الجزء الثامن

## سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

### فضل السورة
عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

"من قرأ سورة الحج في كل ثلاثـــة أيام ، لم تخرج سنة حتى يخرج الى بيت الله الحرام . و ان مات في سفره دخل الجنة. "

### الإسم
وانبثق اسم السورة من احكام فريضة الحج التي وردت في هذه السورة.

### الإطار العام
أولى آيات سورة الحج تصور لنا اهوال الساعة بهدف بث روح التقوى من الله.

و لعل التقوى من الأهداف التي تحققها كل السور القرآنية ، الا ان انعكاساتها على الحياة تختلف ، و قد سبق الحديث عند التدبر في سورة البقرة ان آياتها تهدف بيان صبغة الله التي جعلها للامة المسلمة ، و التي تتجسد في التقوى . و تكاد تكون سورة الحج تأكيدا على تلك الصبغة ، حيث أنها تشرع بأمر الناس بالتقوى ، و تذكرنا بمناسك الحج ، و واجبات الجهاد ، و تنتهي ببيان خصائص الامة الاسلامية.

ولكن هذه السورة التي اختلف المفسرون في أنها نزلت بمكة أو المدينة ، أو فيهما معا تتميز عن سورة البقرة - فيما يبدو لي -في انها شفاء للقلب من أمراض الغفلة و الجدل و الجهل و النفـــاق ، و هي تعالج أيضا الأعذار التي يلجأ اليها الانسان هربا من المسؤولية ! مثل التظني و التمني ، و الاتكال على عبادة الأوثان ، و الخوف منالطغاة ، و الخشية من الهزيمة أمام قوتهم.

كيف يشفي الله بآيات هذه السورة تلك الأمراض ، و يطهر القلب من الأعذار و المانعة عن التقوى ؟

فيما يلي نتذكر معا الحقائق التي نستوحيها من التدبر في آيات هذه السورة التي تفيض هيبة و جلالا:

نرى في بدايتها هزة عنيفة تزلزل قناعات الانسان ، السادر في الغي ، الغافل عن المصير الفظيع الذي ينتظره.

ثم يعالج السياق التبرير القديم الجديد ، الذي تلجأ اليه النفس البشرية هربا من عظمة المسؤولية و هيبة الجزاء .. و ذلك هو الجدل في الله بغير علم ، و الريب في البعث باعتباره مستحيلا.

و بعد التذكرة بقدرة الله على النشور -أوليس قد خلق الانسان اطوارا ؟! - يعالج حالـة الجدل بغير علم ، و حالة الايمان الحرفي ، حيث يهدف صاحبه المصالح العاجلة ، ويحذره بأنه الخاسر في الدنيا و الآخرة.

و يهدينـا السياق القرآني الى ضلالة من يظن بان الله لا ينصره في الدنيا و الآخرة ، أوليس هو السلطان

الحق للسموات و الارض ، و هو الذي يفعل ما يشاء ؟!

و هو الذي يفصل بين الناس - على اختلافهم - بالحق.

ثم يبين جزاء المؤمنين ، و عقاب الكفار ، و بالذات الذين يصدون عن المسجد الحرام .. ذلك البيت الذي بناه ابراهيم و يجب قصده ابتغاء مرضاة الرب.

ان من اعظم حكم الحج بث روح التقوى في القلب ، لتطهيره من درن الشرك ، و ذلك عبر ذكر الله ، و اطعام البائس و الفقير ، و تطهير البدن من التفث.

و هكذا يبدء السياق بذكر الحج من آية (٢٦) ، و يستمر ببيان جانب هام من التقوى ، هو تعظيم حرمات الله و احترام شعائره ، و ينهى عن الاوثان ، و يأمر برفضها عبر الحنفية التي تعني الطهارة و النقاء.

ان تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب ، و الهدف من الذبح تنمية التقوى ، عبر ذكر الله عليها . و قد حدد الله لكل امة منسكا ، ليذكروا الله على نعمائه.

و أسمى درجات التقوى حالة الإخبات حيث يذكرنا السياق بصفات المخبتين ، من خشية الله و الصبر و اقامة الصلاة و الانفاق.

و خلال آيات (٣٨ - ٤١) يذكرنا السياق بالجهاد الذي هو حصن المقدسات ، و درع الحرمات . و العلاقة و ثيقة بين الحج الذي يسمى بجهاد الضعفاء و الجهاد ، أوليسا يهدفان معا اعلاء كلمة الحق ، احدهما بصورة سلمية ، و الثاني بالدفاع الدامي ؟!

و لعل الإذن بالجهاد في هذا السياق لتكميل جوانب التقوى ، حتى لا يتبادر الى الذهن ان التقوى تعني العزلة و التقوقع و الرهبنة .. و عموما يبدو ان هذه الآيات هي سنام السورة.

ثم يعالج السياق تبريرا شيطانيا آخر حيث يظن المكذبين بالرسالات ان تأخير العذاب دليل إهمال الله لهم . بينما ينبغي السير في الأرض للنظر في عواقب المكذبين الذين أملى الله لهم ثم أخذهم أخذا شديدا ، بينما أسبغ على الصالحين نعمه ظاهرة و باطنة . و السير في الأرض لا ينفع الذين يسعون في آيات الله معاجزين ، و هميعاندونها و يتحدونها و لكن لهم عذاب شديد.

و يداوي الذكر الحكيم قلب البشر من التمنيات التي هي أرضية وساوس الشيطان ، و الله سبحانه يؤيد انبياءه فينسخ ما يلقي الشيطان . ثم يحكم آياته . و علينا ان نعالج هذه التمنيات بآيات القرآن ، حتى لا تكون فتنة لنا.

و لكن القلب المريض و القاسي يستقبل ما يلقيه الشيطان فيه عند التمني فيضل عن الصراط السوي.

و الكفار يترددون في ريبهم . و لهم عذاب شديد.

و هناك عذر شيطاني آخر تعالجه آيات الذكر و هو اليأس ، حيث يتساءل المرء : ماذا ينفع القيام لله و المطالبة بالحقوق الضائعة ؟.

بلى ..الذين يهاجرون في سبيل الله ، و يدافعون عن أنفسهم ضد البغي ينصرهم الله ، و لا يعجز الله شيء في السموات و الأرض ، أوليس هو الملك الغني الحميد الرؤوف الرحيم ، و إنه يحيي و يميت ؟!

و لكي نعالج حالة اليأس لابد من النظر في آيات قدرة الله و رحمته.

و لعل ما يعوق الانسان عن العمل هو الجدل في الدين ، و الله نهى عنه ، و نبئنا بانه قد جعل لكل امة منهجا و منسكا ، و انه عليم بكل شيء.

و الشرك ملجأ المبررين حيث يزعم المشرك بأن الإعتماد على الشركاء ينجيه من المسؤوليات ، و لكن القرآن يذكرنا بان اولئك لم يخلقوا ذبابا ، و انهم لا يقدرون على مقاومته.

و في الدرس الأخير من السورة يبين الله كيف يصطفي الرسل من الملائكة و منالناس .. و انه المهيمن عليهم ، فلا يزعم البعض بأنهم انصاف آلهة.

و في ختام السورة نقرأ آية كريمة تحدد ملامح الأمة الاسلامية ، و تأمر بالجهاد كما ينبغي.

## معايشة الساعة سبيل الإصلاح

### هدى من الآيات

في الآيات الاولى من هذه السورة يهز السياق القرآني ضمير الانسان هزا عنيفا بتصوير اللحظات الحرجة الاولى لوقوع الساعة ، حيث يذهل الانسان و يبتعد ذهنيا عن كل العوامل التي كانت تضله في الحياة.

و نسأل : لماذا يضل الانسان ؟

لانه يحب المال و الجاه و الولد و ما اشبه ، فاذا به في تلك اللحظات يذهل عن ماله و ولده .. ، لان الساعة ادهى و أمر ، و أكبر و أعظم من كل تلك الأمور ، فالمرأة تذهل عمن ترضعه ، و الحامل تضع ما تحمله ، و كل انسان يكون كالسكران و لكن ليس بنشوة الخمر وانما هو سكر العذاب ، و هيبة الساعة.

بعد ان يهز القرآن ضمير الانسان بهذا الهول الرهيب يقول له : أتعرف لماذا تتورط في مثل هذا الهول ؟ و كيف تخلص نفسك منه ؟!

انما تتورط لانك اتبعت إلها غير الله من دون علم ، و كذلك لانك غفلت و لهوت حينما يريـد الانسان ان يختار فراشا لبيته أو لونا لغرفته أو ساعة يلبسها أو أي شيء آخر ، تراه يفكر و يخطط و يسأل و يستشير ، و لكن حينما يريد ان يعبد إلها غير الله ، فانه يعبده من دون تفكير او بحث ، و بالتالي يتورط في ذلك الموقف العظيم بالاسترسال.

اما كيف يتخلص الانسان من هذا الهول ؟ فهو لا يكون إلا عبر الايمان بالله وحده ، و الايمان بالبعث و النشور .

ان كل انسان مفطور على الايمان بالبعث ، و بما انه معرض لوساوس الشيطان الذي يزرع الشك في قلبه ، فهو يكفر ان لم يحاول قمع تلك الوساوس ، و يقمع القرآن هذا الشك بقوله : " كما بدأنا اول خلق نعيده. "

ان النظر الى سلسلة الحياة الماضية يهدينا الى المستقبل ، لأن السنة واحدة تنطبق على الماضي و الحاضر و المستقبل ، فاذا أردت ان تعرف المستقبل فارجع قليلا الى الوراء و انظر اليه كيف كان ؟

خلق الانسان من تراب ثم من نطفة ، فعلقة فمضغة ، و بعد الولادة كان في حالة تطور ، فمن الطفولة الى الشباب الى الهرم الى الوفاة ، و هذا التطور يسير حسب قانون و تدبير رشيدين ، من لدن إله قدير مبدع ، فلكي تعرف مستقبلك انظر الى بداية خلقك ، فبعد ما كنت ضعيفا في رحم أمك قويت و سوف تعاد كذلك في ارذل العمر ، أوليس الذي أنشأك في ظلمات الارحام ، و في الحياة خلقا بعد خلق بقادر على انشائك من بعد موتك ؟!

ورد في بعض الاحاديث عن يوم القيامة : ان الارض تصبح كرحم الأم ينشأ الانسان فيها كما ينشأ في رحم أمه ، و اذا كان الانسان يولد من بطن أمه ولادة ،فانه في ذلك اليوم ينبت من الأرض نباتا . و الفارق : ان الناس في الدنيا يولدون بالتدرج اجيالا الا انهم يوم القيامة يولدون جميعا .

و قدرة الله في الأرض تتجلى في شيء يأمرنا ربنا بالتدبر فيه و هو ان الله يصنع الاشياء بمختلف الصور ،

فهو لم يخلق نوعا واحدا من الحيوانات و انما خلق كل شيء بمختلف الاحجام و الالوان ، كل هذه الحيوانات و الكائنات خلقها و دبر أمرها و صورها حتى أننا لا نتصور شيئا الا وقد خلقه الرب ، أوليس الذي استطاع ان يخلق كل شيء بقادر على ان يبعث الانسان في الآخرة مرة أخرى ، كما خلقه اولا في رحم أمه ؟!

و في نهاية الآيات يذكرنا الله بأمرين:

الاول : ضرورة الايمان بقدرة الله.

الثاني : ضرورة الايمان بيوم القيامة.

ذلك ان الايمان بقدرة الله هو الطريق للايمان بالبعث ، فكلما شككنا في البعث لابد ان ننظر الى آيات قدرة الله ، لان الشك في البعث ناتج من الشك في الله ، و الذي يعرف الله حقا لا يشك في البعث.

**بينات من الآيات**

]بسم الله الرحمن الرحيم[

تشير بسم الله الى ان الحياة و ما فيها مخلوقة من قبل الله سبحـانـه ، و قائمة به ، لذلك فاننا كلما بسملنا على أمر فان توجه هذه البسملة يكون نحو ذلك الأمر ، فاذا قلت بسم الله اقوم يعني ان قيامك بالله ، و اذا قلت : بسم الله انام ، يعني ان نومكبالله ، و هكذا.

و تختلف سور القرآن الحكيم في معانيها العامة ، لذلك فان كل ( بسملة ) في بداية كل سورة تشير الى ان كل شيء هو قائم بالله ، فعندما نحج فانه باسم الله ، و هدف الحج هو تقوى الله ، و التقوى بدورها من الله و بالله ، و عندما نصوم فإن صيامنا باسم الله ، و هدف الصيام هو تقوى الله ، و التقوى بدورها من الله و بالله ..و هكذا عندما نصلي و نقوم بأي واجب آخر.

] [1]يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ]الهدف من سورة الحج هو تكريس التقوى التي هي اعلى درجات الايمان بالمسؤولية . ففي سورة الانبياء - التي سبقت سورة الحج - كان الحديـث عن المسؤولية ، اما هذه السورة ، فالحديث فيها عن التقوى باعتبارها مرحلة متقدمة من الايمان.

من الصعب على الانسان ان يؤمن بمسلمات ، و يظن انها قواعد راسخة يستطيع ان يقيم عليها بناء افكاره ، من الصعب عليه ان يؤمن بغيرها ، حتى ولو كانت أقوى ، و هنا -بالضبط - يكمن خطأ الانسان اذا تأسره مسلمات فكرية توجه كل حياته و يزعم انه ضعيف امامها ، كلاان الانسان اقوى من مسلماته ، و علم الانسان أنفذ من سابقياته الذهنية ، و مما يعتقد به مجتمعه و اباؤه ، و ان الايمان بالساعة و زلزالها و اهوالها يحطم المسلمات ، و السابقيات الذهنية ، و يعطي البشر قدرة هائلة للتفكير من جديد . عبر جسر الشك المنهجي فيمايزعم انه من الحقائق المسلمة.

] [2]يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت[

فلا تستطيع المرضعة ان تفكر آنئذ - لهول الساعة - برضيعها.

]و تضع كل ذات حمل حملها و ترى الناس سكارى و ما هم بسكارى و لكن عذاب الله شديد ]ان الحامل تجهض و يسقط جنينها ، و المرأة لا تجهض الا اذا كانت تمر بهول عظيم ، و ترى كل انسان كالسكران ، لا يستطيع ان يستوعب ما يجري حوله ، قد شغلته نفسه عن الآخرين ، و اسكره العذاب حتى صار فاقدا لقدراته الفكرية.

ان تصور هذه الأهوال المروعة كفيل بايقاظ القلب الغافل . و هكذا كان السلف الصالح فقد جاء في قصة نزول هاتين الآيتين من سورة الحج ما يلي:

نزلت الآيات من اول السورة ليلا في غزاة بني المصطلق و هم حي من خزاعة ، و الناس يسيرون ، فنادى رسول الله (ص) فحثوا المطى حتى كانوا حول رسول الله (ص) فقرأها عليهم فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة ، فلما اصبحوا لم يحطوا السرج عن الدواب ولم يضربوا الخيام و الناس بين باك أو جالس حزين متفكر ، فقال لهم رسول الله (ص) : أتدرون أي يوم ذاك ؟ قالوا :الله و رسوله أعلم ، قال : ذلك يوم يقول الله لآدم : ابعث بعث النار من ولدك ، فيقول آدم : من كم كم ؟ فيقول عز وجل : من كل ألف ، تسعمائة و تسعة و تسعين الى النارو واحدا الى الجنة ، فكبر ذلك على المسلمين و بكوا فقالوا : فمن ينجونا يا رسول الله ؟ فقال (ص) : ابشروا فان معكم خليقتين : يأجوج و مأجوج ما كانتا في شيء الا كثــرتاه ، ما أنتم في الناس الا كشعرة بيضاء في الثور الأسود ، او كرقم في ذراع البكر ، او كشامةفي جنب البعير ، ثم قال : اني لأرجو ان تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا ، ثم قال : اني لأرجو ان تكونوا ثلث أهل الجنة ، ثم قال : اني لأرجو ان تكونوا ثلثي أهل الجنة فان أهل الجنة مائة و عشرون صفا ثمانون منها امتي ، ثم قال : و يدخل من امتى سبعون الفا الجنة بغير حساب.

] [3]و من الناس من يجادل في الله بغير علم[

و قوله " يجادل في الله بغير علم " اي من دون تفكير في ذلك الالهة الذي يجب عليه ان يطيعه.

ان الجدال بالباطل لشاهد على حالة الاستقرار الكاذب ، الذي لا يرضى صاحبه التحول عنه ، حيث يزعم انه يهدم اساس حياته ، او يخالف عزته الشخصية ، بينما الاحساس بزلزال يوم القيامة ، يجعل المؤمنين قادرين على مراجعة افكارهم في ضوء العقل و الوحي و استقبال الحقائق الجديدة بلا حمية و لا اعتزاز بالإثم ، و الباطل.

و يزعم الكفار انهم يحافظون على كرامتهم ، حين يعتزون بافكارهم الباطلة بينما يفقدون استقلالهم و كرامتهم بذلك ، اذ انهم يتبعون شيطانا مريدا.

]و يتبع كل شيطان مريد[

متجردا عن كل خير متمحضا في الفساد و الافساد.

] [4]كتب عليه أنه من تولاه [

بارادته و جعله واليا عليه.

]فإنه يضله و يهديه إلى عذاب السعير[

من المستحيل ان يكون ذلك الشيطان المريد هاديا لاتباعه ، لان الله قدر ان يكون مضلا لمن اتبعه ، و ان نهايتهما هي السعير.

] [5]يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم منتراب ثم من نطفة ثم من علقة[

ان كنتم في ريب من البعث فانظروا الى ماضيكم هل باستطاعتكم ان تقولوا : ان الله لا يقدر على خلقنا من جديد ؟ فكيف استطاع اذا ان يخلقكم اطوارا ، بعد ان لم تكونوا شيئا ؟!

و جاء في القرآن و السنة ان الانسان قد خلــق مــرتين ، مــرة فـي عالم الذر حيث خلق كل الناس من تراب ، و مرة أخرى حينما اودعهم الاصــلاب ، ثــم الارحام . فبعد ان تقذف النطفة في رحم الام ، نجدها تتحول بعد فترة الى قطعة دم ، تعلق برحم الام ( علقة ) ثمالى ما يشبه اللحمة الممضوغة ( مضغة. (

]مخلقة و غير مخلقة[

قد تحددت معالمها كالعينين و الرأس و الاطراف ، أو غير مخلقة لا تلبث ان تسقط من الرحم قبل ان تتحدد معالمها.

]لنبين لكم[

ليفهم الانسان بأن التطورات التي تحكم وجوده ، دليل على أنه مدبر و ان الله هو المدبر الحكيم له و للخلق.

]و نقر في الارحام ما نشاء إلى أجل مسمى[

ان المضغة تستمر في الرحم الى ان يشاء الله و يأذن للجنين بالولادة ، و بقاء الجنين في الرحم ليس محدودا بمدة تسعة أشهر ، فقد يولد قبل هذا لذلك قال ) : و نقر في الارحام ما نشاء الى أجل مسمى ) . و من معاني ( و نقر ) اي نكتب ، لانه كما ورد في الاحاديث ان سعادة الانسان و شقاءه يكتبان عليه و هو في بطن امه.

]ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم[

كانت بداية الآية تبين تطور الجنين في الرحم ، اما هنا فتبين تطوره بعد ان يولد طفلا ، حيث يتحول بعدئذ الى شاب يافع قد بلغ اوج قوته ( اشده. (

]و منكم من يتوفى[

كأن يموت بمرض أو بحادث أو بقتل ، و ليست له حيلة في وفاته ، انما تكون بأمر الله و تقديره . و قد يبقى طويلا في الحياة ليعود ضعيفا كما بدأ.

و الواقع ان الزمن ليس دائما في مصلحة الانسان ، و ان الانسان ليس أبدا في تكامل ذاتي ، كيف و هو اذا بلغ ارذل العمر يعود كالطفل فلو كان تكامله ذاتيا ، كان لابد ان يعلو دائما ولا ينتكس.

حقا : ان أهم ما يفقده البشر بكبر سنه هو علمه . العلم - في ذات الوقت - اعظم نعمة يسعى البشر نحوها و يحاول المحافظة عليها ، لأن العلم يميزه عن سائر الخليقة ، و حين يفقد علمه لا يعود ذا كرامة في أهله و ولده و مجتمعه ، أو لا يكون ذلك شاهدا على ان تكامل البشر ليس من ذاته ؟!

]و منكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ][ و ترى الأرض هامدة[

كأنها موات.

]فإذا أنزلنا عليها المآء اهتزت و ربت و أنبتت من كل زوج بهيج ]ان تلك الارض الميتة عندما تستقبل الامطار فانها تزيد و تنمو عليها النباتات.

و النباتات ليست ذات شكل واحد ، و لو كانت الطبيعة هي التي تحكم الحياة اذن لكانت عمياء و لكان كل شيء على صورة واحدة ، و لكن تلك المواد الواحدة - التراب - الاملاح - الماء - النور - تتحول الى عدة انواع من النباتات ، بل ان الله يخلق من كل نوع زوجين لضمان استمرار كل فصيل و نوع - ثم ان متانة الصنع لا تمنع جماله.

] [6]ذلك بإن الله هو الحق [

اذ لا حق لسواه ، و انه حق لا ريب فيه و في قدرته ، و بما انه الحق - كل الحق - فهو احق ان يتبع.

]و أنه يحي الموتى و أنه على كل شيء قدير[

] [7]و أن الساعة ءاتية لا ريب فيها و أن الله يبعث من في القبور ]اولئك الذين كانوا في القبور يبعثون للحساب بقدرة الله سبحانه ، تلك القدرة التي تتجلى اليوم في بعث البذور - الكامنة في جوف الارض - بالنسبة للبذور كالقبر للميت ؟ و لكن فكما يحيي ربنا بالماء البذرة و كذلك يحيي سبحانه الأنسان و هو في قبره.

من هنا جاء في الحديث:

"اذا اراد الله أن يبعث الخلق أمطر السماء على الأرض اربعين صباحا فاجتمعت الأوصال و نبتت اللحوم . "

**الايمان بين المجادلين و الحرفيين**

**هدى من الآيات**

تبين آيات الذكر هنا جانبا من حقيقة الايمان ، و مواقف الناس تجاهه . فمنهم المجادلون ، و منهم الحرفيون الذين لا يصمدون امام الفتنة ، و منهم المؤمنون حقا الصالحون عملا.

و تشير الآية الاولى الى الحجة التي بدونها يصبح الجدال في الله باطلا . و هي العلم و الهدى ، او الكتاب المنير.

و من لا يملك حجة فهو غير مؤمن ، بل مستكبر عن الحق يثني عطفه و يسعى لاضلال الناس عن سبيل الله ، و جزاؤه الخزي في الدنيا حيث يشمله الصغار و الهوان .اما يوم القيامة فله عذاب الحريق ، جزاءا وفاقا بما جنته يداه.

امـا الذين لم تترسخ في افئدتهم حقيقة الايمان التي تقاوم الفتن ، و تتحدى الضغوط ، فتراهم يعبدون الله على طرف السبيل ، تطمئن نفوسهم اذا اصابهم الخيربايمانهم و ينقلبون الى هاوية الجحود ان اصابتهم الفتنة و تعرضوا لضغط . فيخسرون الدنيا و الآخرة ذلك هو الخسران المبين.

ان هؤلاء يميلون مع رياح السلطة و الثروة فيدعون من دون الله مالا يضرهم و لا ينفعهم ، من اصنام حجرية أو بشرية - ذلك هو الضلال البعيد.

بلى انهم يضرون انفسهم بدعوة الاصنام التي هي قيادة سوء و صحابة سوء . أما الذين يعبدون الله باطمئنان و سكينة ، و يتحدون الفتن و الضغوط ، فلهم من ربهم الجزاء الحسن ، جنات تجري من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد.

**بينات من الآيات**

[8]الحجة بين الله و خلقه العقل ، و منه العلم و المعرفة ، و منه الهدى ، و العقل يدل صاحبه الى اتباع الكتاب المنير و من لا يملك هذه الحجة ، فانما يجادل في الله باطلا.

]و من الناس من يجادل في الله[

فيقول : هل الله قادر على ان يبعث الموتى ، او يفعل ذلك ؟ و لماذا ؟

و نستوحي من الآية : ان الايمان بالنشور فرع الايمان بالله ، و باسمائه و منها القدرة و الحكمة ، بل الايمان بسائر حقائـــق الدين انما هو فرع لمعرفة الله ، كما ينبغي ان يعرف ، بعظمته و حكمته و رحمته بعباده.

]بغير علم و لا هدى و لا كتاب منير[

ما هي حقائق هذه الكلمات التي من تمسك بواحدة منها فاز ؟

أ : العلم ، و هو ضوء العقل ، و هو انكشاف الحقائق للقلب بنور الله ، حيثيغني صاحبه من اتباع دليل أو التماس حجة.

ب :الهدى و هو مستوى اقل من العلم ، كمن يمشي في الصحراء تائها و إذا به يجد علامة من بعيد تدلـــه علـــى الوجهة التي يجب عليه ان يتبعها . و الفرق بين المستويين ( العالم و المهتدي ) ان العالم يمتلك خريطة مفصلة يمكنه الاعتماد عليها في مسيره الى الله، فهو لا يحتاج الى علامة ، اما المهتدي فهو كمن يتبع وميض نور يسير على هداه.

ج : الكتاب المنير قد لايكون الانسان عالما و لا مهتديا ، فيكون سائرا على هدى عالم آخر ، كما لو ان جماعة من الناس يسيرون في صحراء خلف دليل ، و الدليل هو العالم ، و قد يكون الدليل هو الكتاب فهم يسيرون معه انى اتجه.

[9]ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله[

اي مائلا ما بين منكبه و رقبته تعبيرا عن التكبر و الاعراض ، لما يواجه به من الحق ، فهو أبدا مول عنه ، و يسعى لاضلال الناس عن سبيل الله ، و سبيل الله هو الايمان به و العمل الصالح خالصا لوجهه.

]له في الدنيا خزي[

لعلنا نستوحي من الآية : ان من يجادل في الله ، يبتلى في الدنيا بخزي اعده الله له لا يمكنـــه الفرار منه ، فاما فشل ذريع ، أو ميتة سوء ، أو فضيحة عند الناس ، أو لعنة ابدية . أو ليس قد اختار لنفسه الذلة باتباع ابليس و طاعة الطغاة ، و الخضوع للأثرياء؟

]و نذيقه يوم القيامة عذاب الحريّق[

النتيجة في الآخرة لن تكون احسن منها في الدنيا ، بل هي اشد و اسوأ .. كلماتنضج جلودهم تبدل بجلود غيرها ، ليذوقوا العذاب الحريق.

[10]ذلك بما قدمت يداك[

و اليدان تعبير عن كل الجوارح ، فهذه حكمة الله ، انه يترك الانسان في الدنيا يقترف ما يريد و يجرم ما يشاء و لكنه يقف له بالمرصاد يأخذه بذنبه حين يشاء.

]و أن الله ليس بظلام للعبيد[

لانه سبحانه قد اعطاك عقلا ، و بعث اليك رسلا ، و اوضح لك طريقك ، و بين لك كيف تعمل ، و كيف توفر لنفسك العزة في الدنيا و النعيم في الآخرة ، ان الرب قد أراد العزة للخلق حين أمرهم بعبادته ، و رفض عبادة المخلوقين ، و لكنهم ظلموا انفسهم فاخذهم بما كانوايكسبون.

و ربما توحي هذه الآية بان الله لا يأخذ عباده بما ينوون القيام به من السيئات ، بل بما يقومون به فعلا . و لذلك جاء التعبير بما قدمت يداك.

## الاتباع على حرف

[11]كان ذلك واقع المجادلين في الله باطلا .. و هناك طائفة ثانية يتحدث عنها السياق هنا ، و هم طائفة الحرفين التي تؤمن بالله ظاهرا و لكنها على شك ، فان اصابهم خير أطمأنت نفوسهم و ركنت اليه ، و ان اصابهم شر تردوا الى مهاوي اليأس و سوء الظن ، انهم كمنيمشي على طرف الهاوية يسقط فيها باقل زلة قدم ، و يزعم هؤلاء : ان مقياس الحق ما يحصلون عليه من المنافع ، فاذا ما أوتوا قدرا من المال و السلطة اذا هم مع الحق اما اذا محصوا بالبلاء من قبل الله نكصوا على اعقابهم.

]و من الناس من يعبد الله على حرف[

و الحرف هو : الحافة و الطرف .

]فإن أصابه خير اطمأن به[

ان هذا الاطمئنان ليس بالله ، و انما بذلك الخير الذي اصابه ، فهو يتبع قيادة الرسول ما دام يسبغ عليه الخير.

]و إن أصابته فتنة انقلب على وجهه[

و لعل الانقلاب على الوجه تعبير عن التغيير كليا و بصورة فجائية ، حيث يقطع علاقته بالمؤمنين تماما ، و يقف في صفوف الكفار كاملا.

يتحدث الله عن هؤلاء قائلا:

]خسر الدنيا و الأخرة[

لان الانسان الـــذي يمشي على شك لا يصيب من الدنيا متاعا ، و لا ينال في الآخرة اجرا ، لانه في الدنيا كان مع المؤمنين و هم عادة ما يكونون مبتلين بالشدائد ، و يعيشون ظروفا صعبة من الفقر و الحرمان و المطاردة ، اما في الآخرة عندما يهب الله الاجر للمؤمنين لا يحسب منهم ، لانه ممن كان قلبه متعلقا بالكفار فهو نائل ما ينالونه.

و يؤكد القرآن و بشدة على عذاب هؤلاء ، لان اكثر الناس الذين يدعون الايمان انما هم من هذه الطائفة ، فهم يصلون في ظروف السلم و الهدنة ، اما اذا جد الجد و اصبحت الصلاة جريمة يعاقب عليها القانون ، فهم ليسوا مستعدين للصلاة ، انهم مع تقلبات السياسة أو الاقتصاد أو المجتمع ، كالريشة في مهب الرياح.

و لقد فسرت كلمة ( حرف ) في الاحاديث بانه الشك ، و ابرز مظاهر الحرفية فيحياة هؤلاء ان انتمائهم الى القيادات الرسالية يخضع لقانون الحرفية ، فمتى ما وجدوا القيادة في حالة انتصار كانوا معها ، و متى ما كان العكس انفضوا عنها . و لذلك جاء في احاديث كثيرة و مأثورة : ان الحرفيين هم اولئك الذين يشكون في القيادات الالهية ، اذ ان الطاعة المطلقة للرسول و اوصيائه من الائمة و بعدهم الفقهاء ، هو ابرز مظاهر الايمان . و لذلك تجد السياق يحدثنا عن مسألة الولاء في الآيات التالية.

[12]مقياس الايمان الحق الانتماء الى القيادة الالهية ، و الثبات معها و طاعتها في الظروف الصعبة رغم مخالفتها للاهواء و المصالح الذاتية.

و أبرز مظاهـر الحرفية في الايمان الشك في القيادة الربانية عندما تأمر بعمل صعب ، أو يخالف قرارها هوى النفس ، أو حينما تتعرض لنكسة أو هزيمة . و ان مصير الحرفيين الارتماء في احضان القيادات الجاهلية ، كالسلطات الطاغوتية ، أو الأحزاب الملحدة ، او الفئات المنحرفة . و هذا يعتبر شركا ظاهرا في منطق القرآن . و هو في ذات الوقت ضلال بعيد.

]يدعوا من دون الله[

اي من دون الله ، و القيادة التي أمر الله باتباعها . من نبي مرسل أو امام معصوم ، أو قائد منصوب من قبله.

]ما لا يضره و ما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد ]أحيانا يتبع الانسان قيادة لا تنفعه و هو يحسب أنها تفيده بل هو ينفعها باتباعه لهـا ، أوليـــس الضلال أن يعبئ الانسان طاقاته من أجل لا شيء ، فلا نفع و لا دفع للضرر ؟!

و أبعد من هذا الضلال أن ينتمي البشر الى قيادة تضر و لا تنفع.

] [13]يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه[

حيث يتراءى لهذه الفئة من الناس ان القيادات الجاهلية توفر لهم قدرا من العزة ، و الثروة ، الا ان العاقبة هي الفقر و الاستعباد.

]لبئس المولى[

القائد.

]و لبئس العشير[

الصاحب.

و لعل هذه الآية تكشف لنا انه لا يجوز للانسان ان يأذن للآخرين باتباعه ان لم يعرف في ذاتــه الكفاءة ، و لا يجوز له ان يعتذر بقوله : ان الناس هم الذين نصبوني اماما و قائدا لهــم ، بل يجب عليه ان يعتزل عن هذا المنصب ، و اذا لم يعتزل فانه ممن يقول الله" لبئس المولى. "

] [14]إن الله يدخل الذين ءامنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ]و هم الذين آمنوا بالله ايمانا راسخا ، و ترجموا ايمانهم الى ممارسات عملية ، و سلوك صالح.

]إن الله يفعل ما يريد[

لانه قادر مريد مطلق القدرة و الإرادة ، يفعل ما يريد ، لا ما يريده غيره ، و منمظاهر إرادته الحكيمة حسن جزائه للمؤمنين الصالحين ، و سوء عقابه للمجادلين فيه ، و الشاكين في انبيائه و اوليائه.

أو ليس الأولى بنا إذا ان نسعى الى جنات الرب التي وعدنا إياها ان كنا مؤمنين صادقين ؟ و أية جنات هي التي بشر الله عباده بالغيب ؟ دعنا نستمع الى ائمة آل البيت عليهم الســلام و هم يفسرون القرآن ، و ينقلوننا الى رحاب تلك الجنات التي بشر بها القرآن.

ان الله يدخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات الى قوله تعالى و لباسهم فيها حرير حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير قال :قلت لأبي عبد الله (ع) : جعلت فداك شوقني فقال : " يا ابا محمد من أدنى نعيم الجنة أن يوجد ريحها من مسيرة ألف عام من مسافة الدنيا ، و ان ادنى أهل الجنة منزلا لو نزل به الثقلان الجن و الانس لوسعهم طعاما و شرابا ، و لا ينقص مما عنده شيئا ، و ان ايسر أهل الجنة منزلة من يدخل الجنة فيرفع له ثلاث حدائق ، فاذا دخل ادناهن رأى فيها من الازواج و الخدم و الانهار و الثمار ما شاء اللهمما يملأ عينه قرة و قلبه مسرة ، فاذا شكر الله و حمده قيل له : ارفع رأسك الى الحديقة الثانية ففيها ما ليس في الأولى ، فيقول : يا رب اعطني هذه ، فيقول الله تعالى : ان اعطيتكها سألتني غيرها ، فيقول : رب هذه فاذا هو دخلها شكر الله و حمده ، قال : فيقال:
افتحوا له بابا الى الجنة و يقال له : ارفع رأسك فاذا قد فتح له باب من الخلد و يرى أضعاف ما كان فيما قبل فيقول عند مضاعف مسراته : رب لك الحمد الذي لا يحصى اذ مننت علي بالجنان ، و أنجيتني من النيران ، قال أبو بصير : فبكيت و قلت له :جعلت فداك زدني قال:
يا أبا محمد ان في الجنة نهرا في حافيته جوار نابتات ، اذا مر المؤمن بجارية اعجبته قلعها و أنبت الله عز و جل مكانها أخرى ، قلت : جعلت فداك زدني قال : يا أبــا محمد المـؤمن يزوج ثمانمأة عذراء ؛ و اربعة آلاف ثيب ، و زوجتين من الحور العين . قلت : جعلت فداك ثمانمأة عذراء ؟ قال : نعم ما يفترش منهن

شيئا الا وجدها كذلك .قلت : جعلت فداك من اي شيء خلقن الحور العين ؟ قال : من تربة الجنة النورانية و يرى مخ ساقها من وراء سبعين حلة كبدها مرآته و كبده مراتها ، قلت : جعلت فداك ألهن كلام يتكلمن به في الجنة قال : نعم . كلام لم يسمع الخلايق اعذب منه ، قلت : ما هو ؟ قال يقلن بأصوات رخيمة : نحن الخالدات فلا نموت ، و نحن الناعمات فلا نبأس ، و نحن المقيمات فلا نظعن ، و نحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن خلق لنا ، و طوبى لمن خلقنا له ، و نحن اللواتي لو أن قرن أحد بنا ، علق في جو السماء لأغشى نوره الابصار " . (١(

(1)بحار الانوار / ج - 8ص ١٢٠

**هكذا يحيط تدبير الله بالانسان**

**هدى من الآيات**

تطرقت الآيات السابقة عن ان هناك من يؤمنون بالله ايمانا حرفيا ، فاذا اصابتهم نعمة اطمأنوا بها ، أما اذا امتحنوا بفتنة انقلبوا على وجوههم و قالت : ان هؤلاء يتبعون قادة يضرون ولا ينفعون.

وفي هذا الدرس يذكرنا القرآن بأن الحاكم الحقيقي للكون ، و من له الولاية الحق على الانسان هو الله ، ليس فقط في المجال التشريعي و في الآخرة ، و انما ايضا في الدنيا و في المجال التكويني.

و لتأكيد هذه الفكرة تذكرنا الآيات بعدة حقائق:

أولا :ان الذين يزعمون انهم منفصلون عن ارادة الله و تدبيره فليفعلوا ما يشاؤون ، و ليكيدوا ما يريدون ، ثم لينظروا ، هل باستطاعتهم ان يخرجوا من حدود قدرة الله و ملكوته ؟

ثانيا : هل باستطاعة الانسان ان يهتدي الى سواء السبيل ، و يعرف الطريق القويم ، من دون هدى الله المتمثل في آياته و رسوله و في توفيقه للهدى ؟

ثالثا : هل بالامكان توحيد البشر على اساس غير رسالة الله الحق ؟ كلا..

ان رسالة الله و العمل بها هو الاساس الوحيد لتوحيد الناس.

ثم يؤكد الذكر على ان كل ما في السماوات و الارض خاضع لله و ساجد له ، كالشمس و القمر و النجوم و الشجر و الدواب ، و لكن تبقى مجموعة من البشر تشذ عن هذه السنة لفترة محدودة ، و في مجال محدود ، ينتهون بانتهاء الفرصة التي اعطاهم الله . فليس بامكان الانسان ان لا يأكل او لا يشرب أو لا ينام ، و كذلك ليس باستطاعته ان يخرج نفسه من الارض ، او يتمرد على سنن الحياة ، نعم بأمكانه ان لا يصوم أو لا يصلي ، في هذا المجال المحدود فقط اعطي الحرية لكي تمتحن ارادته ، اما في سائر المجالات فلابد له من الخضوع طوعا و كرها ؟

اذن ما دمت لا تستطيع الخروج عن ولاية الله ، فلماذا تتمرد عليه و تتخذ غيره وليا ؟

هذا في الدنيا ، اما في الآخرة فيساق المجرمون الى جهنم سوقا و تفصل لهم ثياب من نار ، و يصب من فوق رؤوسهم الحميم فيصهر ما في بطونهم و اجوافهم ، و لهم مقامع " مطارق " من حديد ملتهب ، و كلما حاولوا الفرار من النار اعيدوا اليها مقهورين.

اذن فبداية الانسان و نهايته محدودتان بتدبير الله ، انه لا مخرج من ملكوت الله و سلطانه ، فحري بالانسان ان لا يتخذ غير الله وليا و قائدا.

**بينات من الآيات**

] [15]من كان يظن ان لن ينصره الله في الدنيا و الأخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر

هل يذهبن كيده ما يغيظ ](الهاء ) في كلمة ( ينصره ) تعود الى احد معنيين ، اما الى نبينا محمد (ص) و اما الى من في جملة " من كان يظن ان لن ينصره الله. "

ففي الحال الاولى يكون المعنى : انه من كان يحقد على محمد (ص) ، و ما جاء به من رسالة الله و يشك في نبوته ، ولا يعتقد بان الله ناصره في الدنيا و الآخرة ، فليبذل كل ما في وسعه ، و ليجرب كل حيلة الى ذلك ، حتى لو استدعى ذلك ان يمد حبلا من اعلى و يشنق نفسه ، ثم لينظر : هل استطاع ان يتحدى ارادة الله بمنع رسوله او بمنع رسالته فيشفي بذلك حقده وظنه ؟

اما في الحالة الثانية فان الآية تعني ان الله سبحانه ينصر الانسان ، و يحفظه و يعينه في الدنيا و الآخرة .و من كان يظن غير ذلك ، فليذهب أنى يشاء ، و ليفعل ما يريد ، حتى ولو شاء خنق نفسه ( بمد حبل الى السماء ثم قطعه ) فانه لن يقدر على تحدي سلطان الله ، و لن يذهب عمله و حقده على الله .

و لعل الآية تتضمن تحديا اعجازيا للبشر ، فاذا كانوا يشكون في قدرة الله اذن فليخرجوا من ملكوت الله ، ومن سننه و قوانينه الثابتة التي اخضع لها كل شيء ، و التي يكرهون على الخضوع لها ، و من ثم لينظروا - بعد ان يستخدموا كل امكاناتهم و علومهم - هل استطاعوا ان يخرجوا من ملكوت الله ، أو هل تحرروا من قوانين الحياة المادية و المعنوية ، فيشفوا بذلك غيظهم النابع من جهلهم الموجه ضد ارادة الله و سننه التي وضعت لمصلحتهم ، و التي كان ينبغي عليهم ان يعملوا بموجبها و يشكروا الله عليها لانها أهم مظاهر رحمة الله بعباده . فيكون معنى الآية : مدوا

بحبل الى السماء ، فهل تقدرون على ذلك ؟ و الله العالم.

عندما صعد رائد الفضاء ( ارمسترونغ ) الى القمر .. هل استطاع ان يخرج من ارادة الله ؟! كلا .. انه لا يستطيع ذلك حتى انه لم ينس مشاكله العائلية مع زوجته ، فقد صرح بعد نزوله الى الارض : كنت افكر و انا على سطح القمر في خلافاتي مع زوجتي .. و هل هي راضيةعن عملي هذا الذي اقوم به ام لا ؟

هكذا يبقى الانسان محكوما بالانظمة و القوى الطبيعية حوله ، مادية كانت ام معنوية ، شاء ذلك أم ابى ، ولا يمكنه و الحالة هذه الا ان يمتثل لامر مولاه . و ان تكبر و استنكف فلا يضر الا نفسه.

و أخيرا لو تفكر الانسان : من الذي يرزقه و يسبغ عليه النعم ، و من الذي يدفع عنه الآف الاخطار التي تحمل في طياتها الموت و الدمار ، لوجد انه هو الله الرزاق ذو القوة المتين ، و ما عداه ليس الا اسبابا مخلوقة..

**الله يهدي من يريد**

] [16]و كذلك أنزلناه ءايات بينات و ان الله يهدي من يريد[

كما ان الجانب المادي من حياتنا محكوم بارادة الله سبحانه فكذلك الجانب المعنوي منها كالهداية ، و لو كان العقل و الفطرة كافيان لهداية الانسان ، فلماذا يضل البعض و يهتدي الآخرون و الجميع يمتلك العقل و الفطرة ؟ كلا .. ان الله يهدي من يريد . و ما دامت الهداية من الله فلنتخذه وليا ، لا نعبد سواه.

] [17]إن الذين ءامنوا و الذين هادوا و الصابئين و النصارى و المجوس و الذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ]ثم ان الاختلاف الناشئ بين البشر دليل واضح على ان الانسان بحاجة الىالله ليهديه الى الطريق القويم و ان الله هو الذي يقضي بالحق ، و يفصل بين اتباع المذاهب المختلفة.

]ان الله على كل شيء شهيد[

إن فصل الله بين المذاهب و الآراء المختلفة ، و بالتالي بين الحق و الباطل في كل قضية صغيرة أو كبيرة ، انما هو تجل لشهادته الشاملة لكل شيء ، و انه المهيمن الذي لا يعزب عن علمه شيء في السموات و الارض.

و لانه شهيد على كل شيء ، فلابد من احترام محضره المبارك ، و التحسس برقابته المباشرة و اشرافه الدائم ، و ان يسأل كل انسان نفسه عندما يهم بعمل أو قول ، او حتى عندما يجيل بخاطره فكرة ، و يريد ان يتخذ قرارا أو يصدر رأيا ، هل الله راض عن ذلك ، انه يحاسبه غدا عليه . ان هذا الاحساس هو الذي يبعث نور الهدى في ضمير البشر ، و يشد ازر العقل ضد الهوى ، و يساعد على منهجية التفكير دون الفوضى ، و يقوم سلوك الفرد دون التطرف .. و يجعل له من نفسه واعظا مرشدا.

لقد جاء في الأثر : ان زليخا عندما طلبت الفحشاء من يوسف (ع) و غلقت الابواب رأت في جانب الغرفة صنما ، فقامت وغطته ، فسألها يوسف : لماذا صنعت هكذا ؟ فقالت : لكي لا يرانا ، فقال يوسف : تستحين أنت من صنمك و هو لا يسمع و لا يبصر ، و لا استحي انا من ربي؟!

[18]ثم يوجه القرآن الحكيم نظر الانسان الى السماء و الارض .. الى آيات الله التي تشهد جميعها على هيمنة الله المطلقة و خضوع كل شيء في الوجود له سبحانه.

]ألم تر أن الله يسجد له من في السموات و من في الارض و الشمس و القمر و النجوم و الجبال و الشجر و الدواب و كثير من الناس ]ان هذه الاشياء تخضع خضوعا لله.

]و كثير حق عليه العذاب[

لكن كثيرا من الناس لا يسجدون لله و هؤلاء لا يشكلون في الواقع سوى نسبة ضئيلة اذا ما قيسوا بما في الكون من مخلوقات هائلة ، و اعداد غفيرة تعجز الكمبيوترات عن احصائها و تسجيلها.

ان كرامة الانسان تقتضي السجود لرب تسجد له السموات و الارض ، و من فيهما ، ذلك الله الفاعل ما يشاء ، اما السجود لصنم لا يضر و لا ينفع بل يضر ولا ينفع ، أو لبشر ذليل حقير كالسلاطين المغرورين ، أو كاصحاب الثروة المفسدين فانه يستتبع اهانة و ذلة و صغارا.

و الله سبحانه حين لا يهدي البشر يبتليه بعبادة الاصنام الصامتة أو الناطقة ، فيهينه بذلك، و من اهانه الله لا مكرم له من بعده.

و لا يقدر احد تحدي ارادة الله ، و الخروج عن اطار الاهانة الشركية الى عز التوحيد ، لان الله يفعل ما يشاء ، و لا يفعل ما يشاء غيره سبحانه.

]و من يهن الله فماله من مكرم ان الله يفعل ما يشاء ]من اهانة هؤلاء ، او اكرام اولئك الذين يسجدون له ، من هنا كان علينا الالتجاء اليه ليهدينا اليه ، و يجعلنا ممن اكرمهم بالسجود له.

] [19]هذان خصمان اختصموا في ربهم[

فريق هدى و فريق حق عليهم الضلالة..

]فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار[

الذين كفروا تقطع لهم ثياب من نار فصلت بمقدارهم ، حتى تكون النار اكثر ملامسة لكل جزء من ابدانهم كذلك ليذوقوا العذاب الشديد.

]يصب من فوق رؤويهم الحميم [

عندما يحيط الثوب الناري بالجسم تبقى بعض الاعضاء مكشوفة كالرأس فيصب عليه الحميم الساخن ليكون العذاب شاملا لكل اجسامهم.

] [20]يصهر به ما في بطونهم و الجلود[

ان الحميم من شدة حرارته ( و الذي قيل في شانه انه الرصاص المذاب ) يصهر ما في اجوافهم القلب - الكبد الامعاء.

] [21]و لهم مقامع من حديد [

المقمعة : آلة تستعمل للدق ، تحملها الملائكة لتضرب بها رؤوس المجرمين.

] [22]كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيهـا و ذوقـوا عذاب الحريق [بالرغم من ان الكفار في جهنم يعلمون ان لا أمل لهم في النجاة منها الا أنهم من شدة العذاب يحاولون الخروج منها بسب غمها و كدرها ، و في كل مرة يحاولون ذلك يفشلون ، و هذا بحد ذاته عذاب نفسي لهم.

هكذا يتبين مدى خطا الفكرة التفويضية التي ترى ان الله لا ينصر العبد فيالدنيا و الآخرة ، و انه لا يرتبط به شيء من التقدير و التدبير ، كلا .. ان الله هو الذي ينعم و يهدي و يكرم و يجازي ، فالى كهفه نلتجئ ، و من غضبه الى رحمته نفر، و به من عذابه نستعيذ.

## و اذن في الناس بالحج

## هدى من الآيات

انتهت آيات الدرس السابق بانذار بالغ الشدة للذين كفروا ، و ذلك بتصوير مشهد من مشاهد العذاب في يوم القيامة ، و لانه كلما ورد انذار في القرآن الحكيم شفع بترغيب و بشارة فقد جاءت هذه الآيات تبشر المؤمنين بان لهم عند ربهم ثوابا يتجلى في جنة تجري من تحتها الانهار ، و في زينة يتزين بها هؤلاء في تلك الجنة ، ، و من قبل هداهم الله الى القول الطيب و الصراط الحميد . ثم يتناول موضوع الحج باعتباره منسكا من مناسك الامة الاسلامية الواحدة ، و يهدف تكريس التقوى في نفوس ابنائها ، أما الكفار الذين يصدون عن سبيل الله ، و من أبرز مصاديقه المسجد الحرام ، فلهم عذاب اليم ، بل كل من ينحرف فيه بظلم الناس ، فله عذاب اليم.

و يعيدنا القرآن الى اليوم الاول الذي بني فيه المسجد الحرام ، و كيف أمر الله تعالى ابراهيم عليه السلام ببناء البيت للناس جميعا ، لا من أجل طائفة أو قوم . انما البيت للقريب و البعيد ، للقاصي و الداني.

و لم يوضع الحرم لكي يشرك باللـــه عبـره ، انمـا وضـع لكي يعبد الله وحده هناك . ( باقامة الصلاة و بالركوع و السجود ) فقد أمر الله ابراهيم (ع) ان يطهر بيته من الاصنام التي كانت تعبد من دون الله ، في ايام الجاهلية ، و الأصنام البشرية التي تعبد اليوم هناك و باسمه.

و آيات هذا الدرس هي سنام هذه السورة - فيما يبدو لي - لانها تتحدث عن وسيلة تكريس التقوى ، و الحج هو افضل وسيلة لذلك ، و قد عرفنا مسبقا ان التقوى هي اعلى درجات الاحساس بالمسؤولية.

## بينات من الآيات

## الجنة نعيم شامل

] [23]إن الله يدخل الذين ءامنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار[

الذين آمنوا ايمانا صادقا بالله ، هم المؤمنون حقا ، و هم الذين ينعكس ايمانهم في واقع حياتهم ، بالقيام بالاعمال الصالحة . و الجنات التي يدخلها هؤلاء هي ترجمة لعملهم الصالح ، و لهذا جاءت كلمة ( جنات ) بلفظ الجمع باعتبار ان عملهم الصالح على درجات و انلكل عمل جنة.

]يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا و لباسهم فيها حرير ]اي يزينون باساور من الذهب ، كما يتوجون او يقلدون باللؤلؤ النفيس ، و يلبسون ملابس خضراء من حرير فاخرة و تصور هذا المنظر يشوق الانسان

الى الجنة.

[24]ثم لا يكتفي السياق ببيان النعم المادية ، بل يضيف اليها النعم المعنويةايضا حيث يقول:

]و هدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد ]الطيب من القول هو ) : السلام عليكم و رحمة الله و بركاته ) و جاء في بعض الاحاديث ، انه كلمة التوحيد ، و قد ورد في بعض النصوص : أن الله يرسل الى أهل الجنة كل وقت بهدية و انها هي الطيب من القول ، و هذا هو المعنى الذي ذهب اليه المفسرون ، و كأن الهدايةتتم في الجنة ، و لكن يبدو لي ان معنى الآية : ان المؤمنين قد هداهم الله في الدنيا الى الطيب من القول ، و هو كلمة التوحيد و الاخلاص . و الى الصراط الحميد ، و هو طريق الانبياء و الائمة الهداة ، عليهم جميعا صلوات الله.

## الصد عن السبيل

[25]بعد ذلك يبدأ القرآن بنبذة عن الكفار ، و ما هو عملهم ، بالمقارنة مع المؤمنين ، و عملهم فيقول:

]إن الذين كفروا و يصدون عن سبيل الله[

ليس الكفر هو الكلام النظري أو العقيدة المجردة فحسب . بل هو ايضا ما نبع من ذلك كله كالعدوان و العمل السيء ، لذلك لا يلبث القرآن بعد ان ذكر الكفار ، ان يبين واقع كفرهم قائلا : " و يصدون عن سبيل الله " يعني ان هؤلاء قد كفروا في قرارة انفسهم، اما عملهم فصد عن سبيل الله ، و لذلك تجد كلمة " كفروا " جاءت بصيغة الماضي ، بينما جـــاءت كلمة " يصدون " بصيغة المضارع الدالة على الحال و المستقبل ، فالكفر قرار واحد ، اما الصد عن سبيل الله فهو عمل دائب و مستمر.

و الصد عن سبيل الله ، يقف حاجزا بين الانسان و قيامه بالعمل الصالح ، أيا كان هذا العمل - امرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو بناء مساجد الله و اداء فرائضه- لان الصد عكس ذلك تماما كخلق العراقيل التي تمنع الحجاج عن اداء فرائضهم ، أو منع السلطات عمارة الارض ، و كبت حرية العمل و التجارة ، و عموما فان الكفر يقف حجر عثرة في طريق الانسان لكي لا يصل ذرى التقدم و التكامل المادي و المعنوي.

]و المسجد الحرام[

اما الصد عن المسجد فهو نوعان:

النوع الأول : تكبيل الناس بالقوانين الادارية الجائرة ، و منعهم من السفر الى الحج اساسا.

النوع الثاني : هو ان يتمكن الحجاج من الوصول الى المسجد الحرام ، و لكنهم لا يتركون ليؤدوا شعائرهم الدينية ، كما فرضها الله عليهم بحرية تامة ، بسبب هيمنة و ضغط السلطات الجائرة المتحكمة على الاماكن المقدسة.

## ضمان حرية الانسان في الحرم

و قبل ان يسوق القرآن الحديث حول بيت الله و مناهج الحج اليه ، يفرض احترام المسجد الحرام ، و يتوعد الذين يظلمون فيه ، و يعتدون على حرمات الناس ، و يصادرون حرياتهم ، بالعذاب الاليم.

و الحرية هنالك تعني كل شيء ، اذ من دونها تكاد تتفرغ مناهج الحج من محتوياتها ، فكيف يشهد الحجاج منافع لهم و سيف الظلم مسلط عليهم . و كيف يتفكرون في شؤون الامة ، و اجهزة القمع المتسلطة تلاحقهم ، و كيف يخلعون ثياب الشرك ، و يتحررون من خوف الجبابرة ليعبدوا الله وحده ، و شياطين السلطة يحيطون بهم.

و هكذا نفهم ان اي انحراف يتم بالظلم تشمله الآية ، حتى و لو لم يكن من قبل الدولة ، بل من اصحاب السلطة الصغار كالزوج و المالك و المدير ، و .. و .. جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق - عليه السلام

- :

"كل ظالم يظلم الرجل نفسه بمكة من سرقة أو ظلم أحد او شيء من الظلم فاني أراه الحادا . و لذلك كان ينهى ان يسكن الحرم " . (١)اي كانت الاقامة الدائمة بمكة مكروهة شرعا ، لان الانسان لا يخلو من ظلم نفسه بواحدة من هذه المحرمات فاذا سكن البيت اعتبرت معاصيه هذه الحادا ، و ضاعف الله عليها العقاب.

]الذي جعلناه للناس[

فالمسجد الحرام ليس ملكـــا لاحد ، لا لعائلة معينة ولا لدولة خاصة انما هو للناس جميعا ، و قد جعله الله كذلك .

]سواء العاكف فيه و الباد[

أي يتســاوى فيـه المقيم المعتكف بمكة ، مع ذلك الذي يأتيه من البدو أي الصحراء ، ثم يؤكد الله هذه الحقيقة ، مرة أخرى ، قائلا:

]و من يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم[

ان اصحاب السلطات الظالمة التي تتخذ المسجد الحرام و حاجة الناس اليها سببا لتحريف الناس و تضليلهم ، او التي تفرض على الآخرين منهجا معينا في التفكير .. سوف يذوقون عذابا اليما . و معنى ( بالحاد ) بانحراف.

(1)تفسير نمونه / ج - 14ص ٦٥

و لكي يمرر الجاهليون ظلمهم و تسلطهم و افسادهم في الحرم تراهم يحرفون الكلم عن مواضعه و هذه هي مشكلة الانسان الرئيسية . حيث ان اصحاب السلطة قادرون على تحريف المناهج التي وضعت لانقاذه منهم ، بحيث لا تنفع او تكون اداة لتسلطهم عليه من جديد . و يبدوا انالآية هنا تحذر من هذه الحالة لكي لا يتحول المسجد الحرام الى مكان للظلم و الالحاد باسم جديد!

] [26]و إذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا ]لقد حدد الله سبحانه و تعالى مكان البيت الحرام ، لابراهيم عليه السلام لكي يرفع قواعده عالية شامخة ، و لهدف معين هو : ان يكون البيت القاعدة الرئيسية لنسف فكرة الشرك اولا . و لاقامة منهج التوحيد الصحيح ثانيا . و الواقع ان الكعبة المشرفة كانت موجودة من قبل ابراهيم (ع) و لكنها مع مرور الزمان ، اندرست آثارها ، و لم يبق لها رسم يدل عليها ، و لم يكن ابراهيم (ع) ليعلم حدود البيت . كما انه لم يكن باستطاعته ان يختار بيتا حسب رأيه الخاص ، لان هذا الامر يختص بالخالق العظيم ، جل شأنه - الذي له الامر و الخلق .. فحدد الله مكانها له ثم أمره قائلا:

]و طهر بيتي للطائفين و القآئمين و الركع السجود ]اي طهر بيتي من الادران المادية و الارجاس الوثنية . و قد ذكرت هذه الآية الحالات الاربع للعبادة عند المسجد الحرام ، و هي : الطواف و القيام .. ( الاقامة أو الدعاء و الذكر ) و الركوع و السجود و هما يرمزان الى الصلاة و يعبران عن الكثرة ، و هذه العباداتترمز الى التوجه الخالص لله ، و الخضوع له و التسليم لامره ، و اتخاذ شريعته محورا للحياة.

**نداء الحج**

] [27]و أذن في الناس بالحج [

جاء في الأثر عن هذه الآية انه لما فرغ ابراهيم من بناء البيت أمره الله ان يؤذن في الناس بالحج ، فقال : يا رب ! ما يبلغ صوتي ؟ فقال له : اذن .. عليك الاذان و علينا البلاغ ، و ارتفع على المقام و هو يومئذ

ملصق ( ملتصق (بالبيت ، فارتفع به المقام حتى كان اطول من الجبال ، فنادى و ادخل اصبعه في اذنه و اقبل بوجهه شرقا و غربا يقول : ايها الناس كتب عليكم بالحج الى البيت العتيق ، فاجيبوا ربكم ، فاجابوه من تحت البحور السبع ، و من بين المشرق و المغرب ، الى منقطع التراب من اطراف الارض كلها ومن اصلاب الرجال، و من ارحام النساء بالتلبية : لبيك اللهم لبيك .. او لا ترونهم يلبون ؟ فمن حج من يومئذ الى يوم القيامة فهم ممن استجاب الله و ذلك قوله " :فيه آيات بينات مقام ابراهيم " يعني نداء ابراهيم على المقام.

]يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق[

رجالا :اي مترجلين على اقدامهم ، و ضامر : الدواب المضمرة التي اضمرت بكثرة التدريب او لطول المسافة ، و هذه الآية ترمز الى ان الحجاج يأتون الى الحج متلهفين اما راجلين أو ممتطين دوابهم الضامرة.

] [28]ليشهدوا منافع لهم[

المنافع المادية و المعنوية المختلفة التي فيها صلاح معاشهم و استقامة حياتهم..

]و يذكروا اسم الله في أيام معلومات[

اي في ايام الحج من شهر ذي الحجة.

]على ما رزقهم من بهيمة الأنعام[

الاضحيات التي تنحر في منى يوم العاشر.

]فكلوا منها و أطعموا البائس الفقير[

اي كلوا منها انتم و قراباتكم ، و اطعموا الفقير الذي قد بؤس و جاع . وهذه دعوة صريحة للموسرين ، من اجل ان يخرجوا من حدود انانيتهم و شحهم ، كي يقضوا حاجات المعسرين المحتاجين..

] [29]ثم ليقضوا تفثهم[

حيث تصبح شعورهم شعثاء غبراء من كثرة الترحال و المسير ، كما تطول اظافرهم ، و في نهاية موسم الحج يقصون شعورهم و يقلمون اظفارهم . و يطهرون ابدانهم من الادران ، و التفث في اللغة الدرن.

]و ليوفوا نذورهم و ليطوفوا بالبيت العتيق[

و تلمح هذه الآية الى ان ضرورة قضاء النذور وهي - عادة - تلك التي يلزمها الفرد على نفسه ان بلغ مكة سالما ، او ان قضيت حاجاته . و لعلنا نستفيد من هذه الآية التأكيد بتطهير القلب و التخفيف عنه بالوفاء بالنذور ، حتى يعود الحاج الى بيته بصفحة جديدة . امّاالطواف بالبيت العتيق ، فقد جاء في الاحاديث انه الطواف الاخير الذي يسمى بطواف النساء لان النساء لا يحللن الا بعده ، و يسميه البعض بطواف الوداع ، لانه آخر تطواف حول البيت ، الذي سماه الرب هنا بالبيت العتيق ، لانه حر عن ملكية الافراد و عن سلطة الجبابرةو مركز لحرية الناس . و هو

أول بيت وضع للناس ) جميع الناس ) و قد اعتقه الله من الغرق عند الطوفان الاعظم على عهد النبي نوح عليه السلام.

**و كلمة اخيرة**

لقد فســـرت فـــي احاديــث أهل البيت عليهم السلام كلمة ( ليقضوا تفثهم ( باللقاء مع ( الامام ) او ليس الحضور عند الامام و الالتقاء به في اجواء الحرية عند البيت الحرام يقضي على الادران المعنوية لقلب الحجاج ، ويؤهلهم لبدء رحلة جهادية جديدة ، و هذاالتفسير يؤكد على الجانب الحضاري للحج ، المتمثل في تطوير الحياة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية للامة عبر الحج و ذلك باللقاء مع امام الامة ، و قائد مسيرتها ، و رائد حركتها المباركة.

و في حديث آخر : يجعل الامام احدى حكم الوفادة الى بيت الله التفقه في الدين . و نقل انباء القيادة ، الى الاقطار . جاء في الأثر المروي عن الامام الرضا عليه السلام وهو يبين علل الحج : قال : لعلة الوفادة الى الله تعالى ، و طلب الزيادة ، و اضاف : و نقلاخبار الائمة - عليهم السلام - الى كل صقع و ناحية ، كما قال الله عز و جل:

"فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين و لينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون ، و ليشهدوا منافع لهم " . (١)(١) المصدر / ص ٤٩٠

**الهكم اله واحد فله أسلموا**

**هدى من الآيات**

التقوى تنبت في ارض التوحيد ، و فروعها تشمل كل حقول الحياة ، و اهم و أبرز مظاهرها هو تعظيم حرمات الله و شعائره.

و الذين يخالفون التقوى هم الذين يرتكبون الرجس من الاوثان ، فيفعلون ما ينبغي تركه و يتركون ما ينبغي فعله ، و يتبعون قول الزور و الباطل ، فاذا بهم يرتكبون ما حرم الله كعبادة الاوثان ، و من جهة اخرى يقبضون انفسهم عما احل الله لهم زورا و بهتانا ، و هذا مناف للتقوى.

و يعود القرآن - مرة أخرى - ليذكرنا بان جذر التقوى في النفس هو تحدي الضغوط ، بحيث يكون الانسان حنيفا ، مائلا عما يريده الآخرون له ، و ما يحاولون فرضه عليه . و من يشرك بالله يكون كمن يهوي من السماء الى الارض ، فإما ان يلتقطه الشيطان فيبتلع قدراته وقواه ، كما تخطف الطيور فريستها من السماء ، أو يترك حتى يهوي الى مكان سحيق.

و الدرجة العليا للتقوى هي تعظيم شعائر الله ، بتعظيم كل ما يرتبط بالله تبارك و تعالى احتراما له.

و يعود القرآن فيبين بعض مناسك الحج التي هي من شعائر الله : كالابل التي تساق الى الحج لتنحر فيه . و يؤكد : ان عمل الانسان هو الذي ينمي التقوى في قلبه.

**بينات من الآيات**

**تعظيم الحرمات**

[ [30]ذلك و من يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه]

لان تعظيم حرمات الله و شرائعه يعود نفعه الى الفرد نفسه ، اذ يحتسبه الله له ، فيجازيه خيرا منه ، سواء في الدنيا بزيادة البركات ، أو في الآخرة بالجنات.

[و أحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم]

ان الله احل لنا بهيمة الانعام الا النزر اليسير ، كالموقوذة و المتردية و النطيحة و ما اكل السبع ، و ان الالتزام بما احل الله و بما حرم ، هو جوهر التقوى و اهم مصاديقه.

[فاجتنبوا الرجس من الأوثان ]

هذا الشطر من الآية يبين الابعاد المعنوية للتقوى ، فتنقل الانسان من اجتناب اللحوم المحرمة ، الى

اجتناب الرذائل الخلقية التي تضر بكرامة الانسان ، بل تضر المجتمع و تسيء اليه كله.

و نسأل ما هو الرجس ؟

لقد وقف المفسرون طويلا عند هذه الكلمة ، فمنهم من قال ، انها القمار و النرد و الشطرنج ، و منهم من قال : انها الاوثان التي تعبد من دون الله ، باعتبار ان الحج كان ملوثا عنـد الجاهلية بعبادة الاوثان ، و قد أمر الله سبحانه ان يطهر الحج من عبادة الأوثان . و قال بعضهم : ان الرجس هو مجرد قبول فكرة وجود الصنم في بيت الله الحرام . و قال بعضهم : انها تلك الذبائح التي تذبح لغير الله . و قد سبق ان قال الله تبارك و تعالى : " و احلت لكن الانعام الا ما يتلى عليكم " و في اماكن متفرقة من القرآن يؤكدالله على ان ما ذبح لغير الله حرام ، و انه رجس.

كل ذلك صحيح و مقبول و لكن يبدو ان هناك فكرة اعمق و هي : ان الانسان اما ان يعبد الله و حده لا شريك له ، و يلتزم بالقيم التي أمر بها الله سبحانه ، و اما ان يخضع للشيء اي شيء كان . بتعبير آخر : الناس اثنان ، فاما انسان قيمي يقدس القيم و يؤمن بالغيب ،أو انسان شيئي لا يؤمن الا بالشهود ، و هو يقدس الاشياء ، ان الرذيلة .. الانحراف .. الظلم .. الخ كل ذلك ناتج عن شيئية الانسان و عدم تقديسه للقيم ، و قد يحول في بعض الاحيان القيم الى الشيء ، فتراه يذهب الى الحج و لكنه ليس بهدف الوصول الى الله من خلاله، بل ينظر الى مناسكه نظرة شيئية ، فيتوجه قلبه الى هذه الاشياء دون ان يجعلها سبيلا و رمزا الى القيم التي وراءها ، فالكعبة يجب ان تكون عندنا رمز التوحيد و الوحدة ، و الذبح يجب أن يرمز الى ان كل شيء فداء لله ، و رمي الجمار يجب ان يرمز الى ضرورة مقاومة الشياطين ... الخ.

و الذي ينحرف فيعبد الشيء لا شك انه سوف ينحرف انحرافات أخرى ، و منها الشطرنج ، الذي يشبه الى حد ما تلك العادة الجاهلية التافهة ، التي كانت تقضي بالقرعة عند الأوثان ، ثم العمل بمقتضى ما يستخرج منها.

لذلك جـاء في الأثر : عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام ، قال في قول الله عز و جـل:

"فاجتنبوا الرجس من الأوثان و اجتنبوا قول الزور "قال:

"الرجس من الأوثان الشطرنج ، و قول الزور الغنا " (١)و في حديث آخر عن الامام الصادق عليه السلام ايضا : ان من قول الزور:

"قول الرجل للذي يغني :احسنت " (٢(

و في رواية ايمن بن خزيم عن رسول الله صلى الله عليه و آله انه قال : خطبنا فقال:

"ايها الناس عدلت شهادة الزور بالشرك بالله " ثم قرأ " فاجتنبوا الرجس من الأوثان و اجتنبوا قول الزور " (٣)و من مجموع هذه الاحاديث نستوحي ان قول الزور هو كل قول باطل.

]و اجتنبوا قول الزور[

صحيح ان كلمة ( قول الزور ) فسرت بالغناء و الطرب و اللهو ، و لكن أهم و أعظم من قول الزور هذا هو : ان يقول الانسان كلاما فينسبه الى الله تعالى ، و يتعبد به فيحلل ما حرم الله و يحرم ما احل الله سبحانه.

(1)نور الثقلين / ج ٣ -ص ٤٩٦

(2)المصدر / ص ٤٩٥

(3)المصدر / ص ٤٩٦

## الحنيفية دين الله

] [31]حنفاء لله غير مشركين به[

الحنيفية تعني الطهارة من ادران المجتمع و الميل الى ما يريده الله منك ، كالميل عن سلوك المجتمع ، أو عن ضغط الاهواء و الشهوات خالصا لوجه الله.

فليس من الحنيفية المطلوبة ان تتحدى ضغطا اجتماعيا لضغط آخر ، أو هوى نفسانيا لهوى آخر أو تحارب طاغوتا من الغرب ، من اجل آخر من الشرق ، كلا ، انما عليك ان تتحدى و تقاوم الضغوط كلها و الاهواء جميعا و كل السلطات الظالمة لأجل الله الحق سبحانه.

فالحنيفية طريق واضح و محجة بيضاء ، تختلف تمام الاختلاف ، و تتناقض تمام التناقض ، مع كل السبل الاخرى و لها وجهان :ميل عن الشركاء و الضغوط ، و اتجاه الى الله وحده.

و الواقع : ان الحنيفية هي فطرة الانسان الطاهرة النقية التي يؤوب اليها المؤمنون ، من هنا جاء في حديث مأثور عن أبي جعفر الباقر عليه السلام حين سأله زرارة :عن قول الله عز و جل : " حنفاء لله غير مشركين به " و عن الحنيفية قال:

"هي الفطرة التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله قال فطرهم على المعرفة " . (١)[ و من يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ](١) المصدر / ص ٤٩٦

بفعل الجاذبية يخر الشيء من السماء ، فاذا كان هذا الشيء صيدا تسارع الطيور لاصطياده ، و ان لم تصطده يستمر في السقوط الى ان يصل الى الهاوية ، و كذلك الانسان الذي يشرك بالله ، اما ان يصبح من نصيب الطغاة يجيرونه لمصلحتهم و ينتفعون من طاقته ، و اما ان يكون من نصيب الوادي السحيق ، البعيد القعر في جهنم.

## اهداف شعائر الله

] [32]ذلك و من يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب[

الالتزام بحرمات الله جانب من التقوى ، اما الجانب الاكمل منها فهو تعظيم شعائر الله ، الذي يعني تعظيم كل شيء يدلنا على الله . ان تعظيم قطعة قماش منصوبة على طرف عمود ليس تعظيما لذاتها ، انما هو تعظيم للوطن الذي يمثله هذا العلم ، كذلك تعظيم المسجد ، والعالم و القرآن انما هو تعظيم لله ، فالله سبحانه هو الحق ، و سائر الحرمات و الشعائر وسائل اليه ، و كل شيء محترم أو شخص مقرب ، يقدر لله ، لا لأجل ذاته.

و الشعائر : جمع شعيرة بمعنى العلامة التي تدل على الشيء . و شعائر الله هي الواجبات الدينية التي تشهد على عظمة الرب مثل مناسك الحج و صلاة الجمعة و الجماعة ، و سائر مظاهر التوحيد . و الشعيرة التي جاءت هذه الآية في سياقها : هي الأنعام التي يسوقها الحاج من منزله الى بيت الله . و قد علمها بعلامة تدل على أنها هدي ، بالغ الكعبة.

] [33]لكم فيها منافع إلى أجل مسمى[

باستطاعتكم ان تستفيدوا من الانعام التي تنون تقديمها الى الله ، من حليبهاو صوفها و وبرها ، الى ان تصلوا مكة . كما أكدت ذلك احاديث عديدة . (١)[ ثم محلها[

اي منزلها الاخير.

]إلى البيت العتيق[

العتق هو التحرير بعد العبودية ، و لقد اعتق الله البيت الحرام من ملكية الافراد أيا كانوا و جعله للناس سواء ، و هو في نفس الوقت مكان العتق ، اي ان الانسان يستطيع ان يحرر نفسه من ذنوبه ، و من كل من يستعبده من شياطين الجن و الانس.

] [34]و لكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اســـم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ]لكل أمة من الأمم شعائر ، وضعت من أجل ذكر اسم الله ، فتقديس هذه الشعائر لذاتها هو نوع من الرجس و الوثنية ، اما نحن فعلينا الا نقدس المناسك لذاتها ، انما نقدس المناسك لانها تدعونا الى ذكر الله ، و قد سبق القول : بان المناسك المذكورة في هذه السورةتهدف - فيما تهدف - الى بيان خلفياتها ، لئلا تقدس المناسك ذاتها و يهمل ما وراءها من قيم و اهداف ، و الهدف من الانعام التي تذبح لله ليس اهداء لحمها الى الله ، لان الله لا ينال لحومها و لا شحومها ، بل تناله التقوى و ذكر الله ، فذكر الله هو الهدف الرئيسيمن كل المناسك ، لذلك قال " : ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام " و ذكر الله ليس ذلك الذكر اللساني ، بل نية القلب ، و اخلاص العمل ، كذلك قال الله : " و لكن يناله التقوى منكم " . و المنسك حسب الراغب - العبادة . و حسب الطبري و الرازي يقال المنسك و يقصد الذبيحة . (٢(

(1)راجع نور الثقلين /ج ٣ - ص ٤٩٧

(2)تفسير نمونه / ج - 13ص ١٠٢

]فإلهكم إله واحد[

ليس الهكم الانعام التي تفدونها ، و ليس الهكم الزينة التي تتزينون بها في يوم العيد ، و ليس الهكم مجتمعكم . كلا .. انما الهكم اله واحد ، و كل هذه النعم من الله و تحترم بأمر الله.

]فله أسلموا و بشر المخبتين [

المخبتون : الذين سلموا لاوامره ، و سلموا لوحدانيته.

[35]و يتميز المخبتون بعدة صفات هي:

- 1وجل القلب بذكر الله . و هو تعبير عن قوة الروح ، و عمق الايمان ، و قد بلغت تقوى الله في انفسهـــم ، درجة تجري عبراتهم بمجرد ذكره ، أي وصلوا الى درجة العرفان ، فكان الله أجلى و أعظم حقيقة في نفوسهم كما جاء في الدعاء المأثور عن سيدهــم الامام الحسين عليه السلام : " الهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر اليك ، ايكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو الدليل عليك ، متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك ، و متى بعدت حتى توصلنا الاثار اليك ، عميت عين لا تراك عليها رقيبا. "

- 2الصبر على الرسالة ، و على ظلم الناس ، و الصبر ايضا على قمع الاهواء و الشهوات.

- 3اقامة الصلاة التي هي رمز لسائر العبادات.

- 4حرصهم و محافظتهم على بناء صرح المجتمع بالانفاق.

كذلك قال ربنا و هو يصف المخبتين:

]الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم و الصابرين على ما أصابهم و المقيمي الصلاة و مما رزقناهم ينفقون[

## الجهاد حصن المقدسات

## هدى من الآيات

هكذا جعل الله البدن ، و هي الابل ، من شعائره ، حيث تساق الى البيت الحرام ، من شقة بعيدة ، فاذا صفت ايديها و ارجلها للنحر ، التف حولها الناس ، و منهم الجائعون ، يذكرون اسم الله عليها ، حتى اذا وقعت منحورة اكلوا منها و أطعموا الفقير و المسكين ، وشكروا الله.

لمن هذه اللحوم التي تطعم ، و تلك الدماء التي يراق ؟ انما هي للناس ، و فائدة الذبح و النحر تنمية التقوى في النفوس . و الهدف من تسخيرها لهم تذكيرهم بعظمة الله . وان يكبروه على ما هداهم ، و يحسنوا الى الناس..

و بمناسبة الحديث عن الحرمات و الشعائر ، يبين السياق حكم الدفاع عنها ، فالله سبحانه يدافع عن الذين آمنوا انه لا يحب كل خوان كثير الخيانة دائم الخيانة ، الكفور بنعم الله . و الخونة هم الذين يقاتلون المؤمنين ، و لا يفون بعهد ولا ذمة .اما المؤمنون فعليهم ان يقاتلوا الكفار لانهم قد ظلموا و يتوكلوا على الله واثقين بنصره ،أو لم يخرجوا من ديارهم بغير حق ، و انما لانهم يقولون :ربنا الله ؟ بلى وانما تبقى للمقدسات حرمة بدفاع المؤمنين عنها . و الا هدمت بيوت العبادة و الله ينصر من ينصر دينه و هو القوي العزيز.

و انما يهدف المؤمنون بقتالهم التمكن في الارض و اقامة حكم الله فيها.

## بينات من الآيات

## اهداف الشعائر

] [36]و البدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير[

البدن هي الابل التي تقلد لتنحر في منى ، و هذه من الشعائر المقدسة ، و لنا فيها و امثالها من الشعائر خير ، خير مادي و معنوي ، بالاستفادة منها اولا ، و بالحصول على التقوى من خلالها ثانيا.

]فاذكروا اسم الله عليها صواف[

اي اذكروا اسم الله عليها حين تصف ايديها و ارجلها استعدادا للنحر ، و ذكر الله واجب عند النحر ، و ليست هنالك صيغة خاصة له ، الا ان الاثر جاء بنص يعتبر الاكمل ، ففي حديث مروي عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام جاء هذا الذكر عند النحر.

"و جهت وجهي للذي فطر السموات و الأرض حنيفا مسلما و ما انا من المشركين ، ان صلاتي و نسكي و محياي و مماتي لله رب العالمين لا شريك له و بذلك أمرت و انا من المسلمين ، اللهم منك و لك ، بسم الله و بالله ، و الله اكبر ، اللهم تقبل مني " (١. (

(1)تفسير نمونه / ج - 14ص ١٠٧

و فائدة هذه الشعائر هي أنها تزيد من الكمالات الروحية و المعنوية.

]فإذا وجبت جنوبها[

اي خرت صريعة بعد نحرها ، حتى استقرت جنباتها على الأرض بالكامل كناية عن انتهاء حركتها.

]فكلوا منها و اطعموا القانع و المعتر[

كلمتي )القانع و المعتر ] تدلان على معنيين هما الفقير و المسكين . و الفقير هو الذي لا يملك قوت سنته ، اما المسكين فهو الذي اسكنه الفقر بيته ، و هو أشد فقرا منه.

و اصل كلمة القانع هو الفقير الذي يقتنع بما تعطيه ، فهو كما قال الرب سبحانه في آية أخرى : تحسبهم اغنياء من التعفف .. بينما اصل كلمة المعتر الذي لا يملك تعففا من السؤال . و الكلمة مشتقة من )العر ) و هو مرض الجرب يصيب جلد البعير ، و كان المعتر قد أصاب وجهه مرض فسقط جلده كناية عن ذهاب ماء وجهه و عدم الحياء لديه . و جاء في رواية ان المعتر هو الذي يعتريك .. و لا يسال . و في حديث آخر عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام:

"القانع الذي يرضى بما اعطيته و لا يسخط و لا يكلم و لا يلوي شدقه غضبا ، و المعتر المار بك لتعطمه " . (١)[ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون[

الهدف من تسخير الله الانعام للانسان هو الشكر له سبحانه ، و عموما فان(١) نور الثقلين / ج ٣ -ص ٤٩٨

الهدف من النعم المادية هو التكامل المعنوي.

و نستوحي من هذه الآية : ان النعم المادية في الحياة الدنيا وسيلة للتكامل المعنوي ، فالانسان الجائع الذي لا يمتلك مأوى يأوي اليه ليحميه من قيظ الصيف و برد الشتاء ، من الصعب عليه ان يسعى من أجل بناء كيانه المعنوي ، ان ينمي علمه و ايمانه و تقواه ، امالذي استطاع ان يتجاوز ضرورات حياته ، فان باستطاعته ان يتفرغ لما هيء له.

و ضرورات الحياة تشبه وقود السيارة ، فحينما تمتلئ السيارة بالوقود آنئذ تصبح مهيأة للسير ، فسير السيارة هو الهدف بينما الوقود ضرورة الهدف ، فالسيارة لم تصنع لكي تبتلع الوقود ، انما صنعت لكي تنطلق ، و كذلك الانسان لم يأت الى الحياة لكي يأكل و يشرب وينام ، و .. و .. انما اتى الى الحياة و فرضت عليه تلك السنن ، لكي يسمو بروحه و يعرج في مدارج الكمال .. و هذه الفكرة نستوحيها من الآيتين الاوليتين من هذا الدرس.

[37]ثم ان التقوى كالشجرة التي تنبت في القلب بحاجة الى تنمية ، و الاضحية تنمي شجرة التقوى في القلب.

]لن ينال الله لحومها و لا دماؤها[

ثم يبين الله سبحانه بأنه ليس لربها نصيب في لحومها أو دمائها ، انما النصيب راجع الى الناحر الذي يزداد بذلك تقوى و ايمانا.

]و لكن يناله التقوى منكم[

كذلك جاء في الحديث الشريف : ما علة الاضحية ؟ قال:

"انه يغفر لصاحبها عند اول قطرة تقطر من دمها الى الارض و ليعلم الله عز و جـل من يتقيه بالغيب . و اضاف : انظر كيف قبل الله قربان هابيل و رد قربان قابيـل. "

]كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم[

ان نحر الانعام او ذبحها يهدف شكر الله . و في آية سابقة ، ذكر الله . ان هدف الشعائر هو تقوى القلوب

، اما هدف التسخير فهو تكبير الله ، كل ذلك يوحي بان الهدف الاسمى من النعم المادية التكامل المعنوي . و تكبير الله هو اخراجه من حد التعطيل و التشبيه ، كما جاء في الحديث ، و تكبير الله على الهداية تمجيده على ان هدانا للايمان ، و ارشدنا الى الحنيفية البيضاء . و الآية تشير الى التكبير ايام التشريق في الصلوات بمنى في عقيب خمس عشرة صلاة ، و في الأمصار عقيب عشر صلوات . (١)[ و بشر المحسنين[

كيف يمكن للانسان ان يستفيد من النعم في مجال تكامله المعنوي و الروحي ؟

يجيب القرآن على هذا السؤال و يقول : " و بشر المحسنين " ، فبالاحسان تخرج من شح الذات الى فضاء الخير ، فالعطاء مفتاح الرزق ، و طريق الايمان.

**شرعية الجهاد**

[38]الايمان ليس مجرد كلام يقال ، و لا حتى عقيدة مقطوعة الجذور ، كلا ذلك لان الايمان حقيقة راسخة في القلب يصدقها العمل ، وانما يتضح ايمان(١) راجع الكتب الفقهية . و ايضا نور الثقلين / ج ٣ - ص ٥٠٠الانسان ، هل هو مستقر أم مستودع ؟

حينما ينزل في حلبة الصراع ، فيعرف مدى إيمانه ، و للصراع فوائد كثيرة اهمها:

/ 1انه يجعل الانسان مؤمنا صادقا ، و يزيل عنه رواسب كفره و شكه ، و جهله و غفلته ، كما انه يكشف الافراد الضعفاء ايمانا و ارادة في المجتمع الاسلامي و الذين لا يستحقون ان يكونوا اعضاء مؤثرين فيه . و بكلمة موجزة : ان الجهاد يكرس الواقع الايماني في المجتمع.

/ 2و الجهاد حصن المقدسات و درع الحرمات و الشعائر ، فاذا كانت الحرية مكفولة لجميع الناس عند حرم الله ، و اذا كان المؤمنون يقصدون - بكل أمان - بيت الله و معهم شعائرهم من اقصى الارض ، فلان المجاهدين يحمون البلاد من اطرافها ، و اذا كانت القوى الكافرةو المنافقة و المترفة لا تهتك حرمات الناس داخل البلاد فلان المجاهدين يقفون لهم بالمرصاد . و اذا كانت مراكز الطاعة المقدسة تعلوا في آفاق الارض فلان حولها ليوث الجهاد الاشداء . يحمونها كما يحمي الأسد عرينه.

و بالتالي فان المساجد ، و المعابد ، و الكنائس انما تقوم على اساس دفاع المؤمنين عنها ، و لو لا دفاع المؤمنين عن مراكز عبادتهم ، و محل اقامة شعائرهم و مناسكهم ، اذن لتهدمت هذه المساجد و المعابد و الكنائس على ايدي اعداء الله و اعداء دينه.

فالكعبة مثلا قائمة على دفاع المؤمنين ، عن وجودها و حرية العبادة فيها ، فاذا ترك المؤمنون الدفاع عنها فانها تزول حرمتها و قداستها.

ان ربط المقدسات بعمل المؤمنين و جهادهم هي اهم و ابرز فكرة حضارية يحتاجها المسلمون اليوم ، ان بعض المسلمين اليوم يظنون ان وجود رسم القرآن بينهميجعلهم اعزاء ، كلا .. ان ايمانهم بالقرآن و دفاعهم عنه هو الذي يجعل القرآن عزيزا بينهم و عزيزا في العالم أجمع.

فليـــس وجود الكعبة يعز المؤمنين فقط ، انما وجود المؤمنين حولها يجعلها عزيزة ايضا ، و من دون هذه العزة التي يسبغها المؤمنون على مقدساتهم ، فانها لا تبقى ، و نحن هنا نؤمن بدور الغيب الذي يظلل المؤمنين بظلال من التأييد و الرعاية ، ذلك ان الصراع بينالحـــق و الباطل ليس بعيدا عن هيمنة الغيب ، أو ليس الله يدافع عن المؤمنين ، بلى . و لكنه قد يدافع عنهم بايديهم ، و بكلمة : ان بداية اي تحرك يكون من الناس ، ثم يأتي التأييد و النصر من الله.

]إن الله يدافع عن الذين ءامنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور ]و هذه الآية تزرع الأمل و الثقة و الاطمئنان في قلوبنا ، لان الله يدافع عنا ، و معلوم ان الأمل وقود الثورة ، و الثقة وقود العمل ، و الاطمئنان قاعدة السعي.

[39]ان شياطين الجن والانس يحيطون بقلب الانسان و يملأونه باليأس و الخوف ، اما ذكر الله فهو -

على العكس من ذلك - ينمي فينا التطلع ، و يحفزنا للأخذ بحقنا ، كما انه يزرع الخوف و القلق في نفوس اعداء الدين ، و سراق الحرية ، الذين لا يزالون يخونون امانة الله و الناس ، و يكفرون بنعم الله.

]أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا و إن الله على نصرهم لقدير ]يبحث الانسان المؤمن عن شرعية الجهاد ، و الله يعطيه هنا الشرعية بقوله : " اذن " فلقد اذن اللــه للمعتدى عليهم المظلومين ، ان يرفعوا راية القتال لرد ظلامتهم ، و ذلك لأنك ، مهما اصابك من الظلم و الاستضعاف ، لا يجوز ان تيأس من النصر ، بل جددالعزم لان الله قادر على نصرك ، فما دمت تملك شرعية الجهادو تحمل في جنبيك الأمل ، و كان هنالك من يدافع عنك و يحميك ، فماذا تنتظر بعدئذ ؟ اقتحم كل حصن و وكر ، و جاهد كل طاغية ، فان قوة الله و عزته تتجلى في سواعد المؤمنين و بهم يدفع الله اعداءه و اعداء دينه ، و اعداء البشر.

] [40]الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ]هذه أبرز صورة من صور الظلم الذي قال عنه سبحانه " بانهم ظلموا. "

ذلك لأن أولئك الذين قالوا ربنا الله بصدق ، هم الذين رفضوا تسلط الطغاة ، و قاوموا هيمنة الجبارين . الذين أرادوا فرض قوانينهم و ثقافتهم على الناس . فكفروا بهم و آمنوا بالله الواحد . ثم استقاموا و اخرجوا من ديارهم لانهم احتفظوا باستقلالهم . و لعل الطغاة لم يفرضوا عليهم الخروج بل انهم هاجروا خشية بطش الجبارين ، و استعدوا للقتال حتى تحرير الارض من هيمنتهم . كما فعل المسلمون عندما أمرهم الله و رسوله بالهجرة الى المدينة . حيث نزلت الآية فيهم و جرت في غيرهم.

جــاء في الحديث المروي في كتاب الكافي عن الامام ابي جعفر الباقر عليه السلام انه قــال:

"نزلت في رسول الله و علي و حمزة و جعفر و جرت في الحسين عليهم السلام اجمعين " . (١)و كلمة ( ربنا الله ) هي هدف الهجرة و هدف الجهاد ، و هي في ذات الوقت وسيلة النصر و سبب الفتح . اذ ان اهم شروط الانتصار الاتجاه الكلي الى الله ، و المحافظة على استقلالية العمل في سبيله ، و الا نتصور يوما ان النصر يمر عبر عواصم(١) المصدر / ص ٥٠١

الشرق أو الغرب ، لانهما أعجز من ان يتوليا نصرنا ، وهم أعجز من نصر أنفسهم ، بل ان الله أمرنا بمقاومتهم لانهــم مصدر بلائنا ، و هم المسؤولون الحقيقيون عما يجري علينــا.

فهؤلاء المخرجون من ديارهم - هم المظلومون الذين تكفل الله بنصرهم و بتأييدهم ، شريطة ان يتجهوا اليه سبحانه.

]ولو لا دفع الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع و بيع و صلوات و مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ]صوامع : معابد يبنيها البعض في الاصقاع النائية يتعبدون فيها ، اما البيع : فهي معابد اليهود ، و الصلوات : هي معابد النصارى و كنائسهم ، و المساجد : محاريب المؤمنين ، و كل هذه المراكز تهدف ذكر الله ، و ذكر الله لا يتم إلا بالتحشيد الاجتماعي ، و تعبئةالناس ايمانيا من خلالها ، فاذا هدمت فان سببا من اسباب تجميع الناس على الايمان سوف ينهار ، فالمسجد و الكنيسة و الدير هي رمز للمؤمنين فتحطم هذا الرمز يعني زوال سبب وحدة المؤمنين و تجمعهم حول مبادئهم ، لذلك فان المؤمنين مأمورون بالحفاظ على مقدساتهم هذه.

]و لينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز[

انصروا الله و القيم ، حافظوا على المقدسات و كرامتها ، دافعوا عن حرية الانسان انكم حين تعملون كل ذلك ينصركم الله ، و اذا نصركم فلا غالب لكم ، ان الله قوي يمتلك ادوات القوة فهو : " يؤتي الملك من يشاء و ينزع الملك ممن يشاء "وهو عزيز "يعز من يشاء و يذل من يشاء " فهو يعزكم ان نصرتموه و الا اذلكم ، وان نصرتموه حقا اذل اعداءكم.

## اهداف الحركة الاسلامية

] [41]الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة و ءاتوا الزكاة و أمروا بالمعروف و نهوا عن المنكر[

تبين هذه الآية اهداف الحركة الاسلامية التي يجب ان يبصرها كل فرد رسالي ، و يخلص نيته في السعي ورائها ، و العمل الجدي من أجل بلوغها و هي:

- 1اقامة الصلاة : اذ انها رمز لكل العبادات من ناحية ، و من ناحية ثانية : فان اقامة الصلاة تعني توفير الشروط الموضوعية لاقامتها ، كبناء مساجد الله ، و السلامة الروحية ، و...

- 2إيتاء الزكاة : و هو يشمل كل ابعاد الانفاق الواجب و المستحب و يساهم في ارساء العدالة الاجتماعية ، بل وفي توفير الرخاء في المجتمع المسلم.

- 3الأمر بالمعروف : القيام بما أمر به الشارع المقدس ، من التشجيع على الصالح من الاعمال.

- 4النهي عن المنكر : القضاء على كل المفاسد الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية ، و .. و..

]و لله عاقبة الأمور[

ان الذي يجعل عمله و حركته متجهة الى الله ، فانه سوف يمسك بزمام الأمور و بالتالي فان له من الله العاقبة الحسنى ..

و هذه الآيات الكريمة توضح أهداف الحركة الاسلامية ، و شروط المجاهدين في سبيل الله ، الذين اذن لهم بالقتال ، و هم الذين يطبقون بانفسهم التعاليمالاسلامية ، ثم يندفعون لنشرها بين الناس و في الحديث المفصل التالي تبيان بالغ الاهمية لاهداف الحركة الاسلامية ، و شروط القائمين بها ، و نكمل هذا الدرس به:

جاء في الكافي مسندا عن ابي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله (ع) قال : قلت له : أخبرني عن الدعاء الى الله و الجهاد في سبيله أهو لقوم لا يحل الا لهم و لا يقوم به الا من كان منهم أم هو مباح لكل من وحد الله عز و جل و آمن برسوله (ص) ، و من كان كذا فله أن يدعوا الى الله عز و جل و الى طاعته و ان يجاهد في سبيله ؟ فقال : ذلك قوم لا يحل الا لهم و لا يقوم بذلك الا من كل منهم ، قلت : من اولئك ؟ قال : من قام بشرائط الله تعالى في القتال و الجهاد على المجاهدين فهو مأذون له في الدعاء الى الله تعالى ، و من لم يكنقائما بشرائط الله في الجهاد على المجاهدين فليس بمأذون له في الجهاد و لا الدعاء الى الله حتى يحكم في نفسه ما أخذ الله عليه من شرائط الجهاد ، قلت : فبين لي رحمك الله.

قال :ان الله تعالى أخبر في كتابه الدعاء اليه و وصف الدعاة اليه ، فجعل ذلك لهم درجات يعرف بعضها بعضا ، و يستدل ببعضها على بعض . الى ان قال (ع : (ثم أخبر تبارك و تعالى انه لم يؤمر بالقتال الا أصحاب هذه الشروط ، فقال سبحانه و تعالى : " اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا و ان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله " و ذلك ان جميع ما بين السماء و الارض لله عز و جل و لرسوله و لاتباعهم من المؤمنين من أهل هذه الصفة ، فما كان من الدنيا في ايدي المشركين و الكفار و الظلمة و الفجار من أهل الخلاف لرسول الله (ص) و المولى عن طاعتهما مما كان في أيديهم ظلموا فيه المؤمنين من أهل هذه الصفات ، و غلبوهم عليه ما أفاء الله (١) على رسوله فهو حقهم أفاء الله عليهم و رده اليهم (٢. (

(1)وفي المصدر " مما افاء الله " و في الوافي " فما افاء الله. "

(2)لعلنا نستفيد من هذه الكلمة : ان السلطة في العالم يجب ان تكون للمؤمنين الصادقين فهي لهم حقا.

ثم قال عليه السلام : و انما اذن للمؤمنين الذين قاموا بشرائط الايمان التي وصفناها ، و ذلك انه لا يكون مأذونا له في القتال حتى يكون مظلوما ، و لا يكون مظلوما حتى يكون مؤمنا ، ولا يكون مؤمنا حتى يكون

قائما بشرائط الايمان التي اشترط الله تعالى على المؤمنين و المجاهدين ، فاذا تكاملت فيه شرائط الله تعالى كان مؤمنا ، واذا كان مؤمنا كان مظلوما ، و اذا كان مظلوما كان مأذونا له في الجهاد ، لقوله عز وجل : " اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا و ان الله على نصرهم لقدير " و ان لم يكن مستكملا لشرائط الايمان فهو ظالم ممن يبغي و يجب جهاده حتى يتوب ، و ليس مأذونا له في الجهاد و الدعاء الى الله عز و جل ، لانه ليس من المؤمنين المظلومين الذين اذن لهم في القرآن في القتال ، فلما نزلت هذه الآية : " اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا " في المهاجرين الذين أخرجهم أهل مكة من ديارهم و أموالهم أحل لهم جهادهم بظلمه اياهم و أذن لهــم في القتال.

فقلت : فهذه نزلت في المهاجرين بظلم مشركي أهل مكة لهم فما بالهم في قتال كسرى و قيصر و من دونهم من مشركي قبائل العرب ؟ فقال : لو كان انما اذن لهم في قتال من ظلمهم من أهل مكة فقط لم يكن لهم الى قتال جموع كسرى و قيصر و غير أهل مكة من قبائل العرب سبيل، لان الذين ظلموهم غيرهم ، و انما أذن لهم في قتال من ظلمهم من أهل مكة لاخراجهم اياهم من ديارهم و أموالهم بغير حق ، و لو كانت الآية انما عنت المهاجرين الذين ظلمهم أهل مكة كانت الآية مرتفعة الفرض عمن بعدهم ، اذ لم يبق من الظالمين و المظلومين أحد ، و كان فرضها مرفوعا عن الناس بعدهم اذا لم يبق من الظالمين و المظلومين أحد ، و ليس كما ظننت ولا كما ذكرت ؛ و لكن المهاجرين ظلموا من جهتين ظلمهم أهل مكة باخراجهم من ديارهم و أموالهم ، فقاتلوهم باذن الله لهم في ذلك ، و ظلمهم كسرى و قيصر و من كان دونهم من قبائل العرب و العجم بما كان في أيديهم ، مما كان

المؤمنون أحق به منهم ، فقد قاتلوهم باذن الله تعالى لهم في ذلك . (١)و بحجة هذه الآية يقاتل مؤمنوا كل زمان ، و إنما أذن الله للمؤمنين الذين قاموا بما وصف الله - تعالى - من الشرائط التي شرطها الله على المؤمنين في الايمان و الجهاد ، و من كان قائما بتلك الشرايط فهو مؤمن ، و هو مظلوم ، و مأذون له في الجهاد بذلك المعنى، و من كان على خلاف ذلك فهو ظالم و ليس من المظلومين ، و ليس بمأذون له في القتال ، و لا بالنهي عن المنكر ، و الأمر بالمعروف ، لأنه ليس من أهل ذلك ، و لا مأذون له في الدعاء الى الله تعالى ، لأنه ليس يجاهد مثله ، و أمر بدعائه الى الله ، و لا يكون مجاهدامن قد أمر المؤمنون (٢) بجهاده ، و حضر الجهاد عليه ، و منعه منه ، و لا يكون داعيا الى الله - تعالى - من أمر بدعاء مثله الى التوبة ، و الحق ، و الأمر بالمعروف ، و النهي عن المنكر ، و لا يأمر بالمعروف من قد أمر أن يؤمر به ، و لا ينهى عن المنكر من قد أمرأن ينهى عنه ، فمن كانت قد تمت فيه شرائط الله - تعالى - التي وصف بها أهلها من أصحاب النبي ( صلى الله عليه و آله ) و هو مظلوم ، فهو مأذون له في الجهاد ، كمــا أذن لهم (٣) في الجهاد ، لأن حكم الله - تعالى - في الأولين و الآخرين ، و فرائضه عليهم سواء الامن علة أو حادث يكون ، و الأولون و الآخرون أيضا في منع الحوادث شركاء ، و الفرائض عليهم واحدة ، يسأل الآخرون عن أداء الفرائض عما يسأل عنه الأولون ، و يحاسبون عما به يحاسبون.

و من لم يكن على صفة من أذن الله له في الجهاد من المؤمنين فليس من أهل الجهاد ، و ليس بمأذون له فيه حتى يفيء بما شرط الله - تعالى - عليه ، فاذا تكاملت فيه شرائط الله تعالى على المؤمنين و المجاهدين فهو من المأذون لهم في(١) قال المجلسي )ره) : حاصل الجواب انا قد ذكرنا ان جميع ما في ايدي المشركين كان من أموال المسلمين ؛ فجميع المسلمين مظلومون من هذه الجهة المهاجرون ظلموا من هذه الجهة ؛ و من جهة اخراجهم من خصوص مكة.

(2)و في بعض النسخ "أمر المؤمنين " و لعله الاوفق بالسياق لقوله " و منعه منه. "

(3)اي لاصحاب النبي صلى الله عليه و آله.

الجهاد ، فليتق الله - تعالى - عبد ـ و لا يغتر بالأماني التي نهى الله - تعالى - عنها ، من هذه الأحاديث الكاذبة على الله ، التي يكذبها القرآن و يتبرء منها ، و من حملتها و رواتها ، و لا يقدم على الله بشبهة لا يعذر بها ، فانه ليس وراء المعترض للقتل في سبيل الله منزلة يؤتى الله من قبلها ، و هي غاية الأعمال في عظم قدرها ، فليحكم امرء لنفسه ، و ليرها كتاب الله - تعالى - و يعرضها عليه ، فانه لا أحد أعرف بالمرء من نفسه ، فان وجدها قائمة بما شرط الله عليه في الجهاد فليقدم على الجهاد ، و ان علم تقصيرا فليصلحها و ليقمها على ما فرض الله عليها من الجهاد ، ثم ليقدم بها و هي طاهرة مطهرة من

كل دنس يحول بينها و بين جهادها ، و لسنا نقول لمن أراد الجهاد و هو على خلاف ما وصفنا من شرائط الله عز و جل على المؤمنين و المجاهدين لا تجاهدوا ، و لكن نقول : قد علمناكم ماشرط الله - تعالى - على أهل الجهاد ، الذين بايعهم و اشترى منهم أنفسهم و أموالهم بالجنان ، فليصلح امرء ما علم من نفسه من تقصير عن ذلك ، و ليعرضها على شرائط الله ، فان رأى انه قد وفى بها ، و تكاملت فيه فانه ممن أذن الله - تعالى - له في الجهاد ، و أن أبىأن لا يكون مجاهدا على ما فيه من الاصرار على المعاصي و المحارم ، و الاقدام على الجهاد بالتخبيط و العمى ، و القدوم على الله - عز و جل - بالجهل و الروايات الكاذبة ، فلقد لعمري جاء الأثر فيمن فعل هذا الفعل ان الله - تعالى - ينصر هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم ، فليتق الله امرء ، و ليحذر أن يكون منهم ، فقد بين لكم ولا عذر لكم بعد البيان في الجهل ، ولا قوة إلا بالله ، و حسبنا الله عليه توكلنا و اليه المصير . (١)(١) المصدر / ص ٥٠٢ – ٥٠٥

**فكيف كان نكير**

**هدى من الآيات**

في اطار الحديث عن اهداف الحركة الاسلامية ، و الدعوة الى الله ، ( موضوع الدرس السابق ) يذكرنا السياق بالتأييد الالهي للرسالة ، و خذلانه لاعدائها المكذبين بها.

لم يكن الرسول بدعا من الرسل ، و لم يكن تكذيبه جديدا ، فلقد كذبت رسالات الله قوم نوح و عاد و ثمود ، كذلك قوم ابراهيم و قوم لوط و اصحاب مدين ، و هكذا كذب فرعون و قومه موسى عليه السلام.

ان الرسالة و تكذيبها حقيقة تكررت ، و تراكمت حولها تجارب غنية ، افلا ندرسها لنعتبر بها ، فلماذا لا نسير في الارض ، و ننظر في عاقبة ذلكم التكذيب المتكرر ، على اولئك الكافرين و لا نغتر بتأخير العذاب ، اذ ان ربنا يملي لهم ، فيستدرجهم ليأخذهم بغتة ؟

فارغة من سكنتها ، و هنالك البئر المعطلة لا تستقى ، و القصر المبني لا يسكن.

إن التجارب التاريخية كثيرة ، و الابصار التي تراها كثيرة ، الا ان القلوب التي تعقلها و تستفيد منها هي القليلة . قد اصابها العمى و انكر العمى عمى القلوب التي في الصدور.

و لان أفق البشر ضيق ، فهو لا يحسب لمستقبله حسابا ، فتراه يستعجل الرسول بالعذاب ، و لا يعلم بان صبر الله و إملاءه عظيم ، فاليوم هنالك كألف سنة مما يعده البشر هنا ، و ان وعد الله لا يتخلف ، و ها هي أمامنا القرى التي امهلها الله ، و املى لهم بالرغممن انها كانت ظالمة ثم اخذها و اليه المصير!

وهذه رسالة الله تنذر الناس ، بمثل ذلكم العذاب ، و تبلغهم الانذار ببيان واضح.

فالمؤمنون الذين يعملون الصالحات جزاؤهم مغفرة الذنوب التي ارتكبوها ، و رزق كريم للصالحات التي كسبوها . اما الذين يسعون في آيات الله معاجزين يتحدونها ، و يعوقون طريقها ، و يحسبون انهم يسبقون الرب و يعجزونه ، فاولئك اصحاب الجحيم ، يملكونها و تمتلكهم.

لقد غرتهم الفرصة ، فأخذهم الله في لحظة ، أخذ عزيز مقتدر ، و في نهاية هذا الدرس تأكيد على مهمتي التبشير و الانذار في رسالات الله ( الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ( ، فالإنذار عادة ما يسبق البشارة ، لان الإنذار يهدف الى خلق الارضية في نفس الانسان ، فخشية الانسان من فقده ما في يده ، اكثر من خشية فقده ما في يد غيره ، فالانذار مؤشر خطر عند الكفار لانه ينذر بزوالهم و زوال نعمهم ، فلذلك يندفعون الى الايمان خوفا ، و من ثم فان البشارة تأتي لتسد هذا الخوف مبشرة بالجنة.

**بينات من الآيات**

**عاقبة المكذبين**

] [44 - 43 - 42]و أن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح و عاد و ثمود * وقوم إبراهيم و قوم لوط * و أصحاب مدين ]التكذيب عادة جرت عليها اسلاف هؤلاء المكذبين ، و هذه امثلة من التاريخ حيث كذب هؤلاء الرسل و اصروا على منكرهم ، فلا ينبغي ان ننتظر ما دمنا في خط الرسل القبول السريع و

المؤكد من اقوامنا ، و لكن لنطمئن ، فان طريقنا و تحركنا ينسجم و الخط العام للحيـــاة . لان الخط العام للكون و طريقنا آنئذ يسيران معا في اتجاه واحد ، الى ( الله. (

ليس من مسؤوليات الرسول ان يكره الناس على قبول رسالته ، كما انه ليس عليه ان يقلق لتكذيبهم ، فانه عادة الناس ، و لكن واجب الرسول الصبر و انتظار الفرج ، و سواء استمع اليه الناس ام اعرضوا .. صدقوه أم كذبوه .. فدوره ينتهي بتبليغ الرسالة ، و من ثم ، فالنتيجة بيد الله ، ان شاء عذبهم ، أو أمهلهم حتى حين.

]و كذب موسى[

لم يكذب موسى (ع) من قبل قومه و انما كذبه فرعون و ملأوه ، و لذلك لم يعطف السياق على السابق و انما قال " : و كذب موسى. "

]فأمليت للكافرين ثم أخذتهم [

اي اعطيتهم مهلة من الوقت قد تطول او تقصر " ثم أخذتهم " فاجأهم العقاب المدمر.

]فكيف كان نكير[

لقد سلط الله عذابه عليهم ، فمحقهم محقا ، و وضع حدا لما هم عليه من التكذيب و الجحـــود ، و هكذا ينكر الله على الناس تكذيبهم انكارا عمليا . ارأيتم كيف يكون نكير الله ؟

[45]ان الله سبحانه قد جعل في التاريخ حتمية لا محيص عنها ، و هي حتمية الانتقام من اعداء اللـــه ، اذ ان سنن الله في الطبيعة تلتقي مع الحق في كل النقاط ، و تجاوز الحق ، تعد على تلك السنن ، فلابد لها ان تنتقم بارادة الله سبحانه ، و بأي شكل كان ، سواءعلى شكل صاعقة تنزل ، أو في صورة بركان يتفجر ، أو حرب تدمر ، أو قحط شامل ، أو طاعون ينشر الموت . و على الانسان ان لا يأمن مكـر الله ، فينسى نقمته ، و يظن ان ما يحيط به من نعمه و فضله و آلائه ، هو كل ما في الحياة ، كلا بل ان للحياة وجها آخر ، تتمثل فيالانتقام الشديد.

بلى . من الصعب على الانسان ان يصدق بان ذلك الاله الرحيم الكريم ، الذي تولى خلقه طورا فطورا ، و كان معه في كل حركة من حركاته ، و الذي تتجلى رحمته و فضله عليـه في كل شيء ، أنه تعالى يمكر به و ينتقم منه أشد الانتقام ، لذلك نجده تستدرجه النعم ، و تغرهالاماني ، حتى اذا احاط به ذنبه قال : رب ارجعون لعلي اعمل صالحا . فلكي لا يصبح هكذا يجب عليه ان يذكر نفسه بما مضى من الام ، و ما جرى عليهم ، و ان يسير في الارض بحثا عن تلك الحضارات التي سادت و يتساءل لماذا بادت . ان السير في الارض ، و زيارة المتاحف الأثرية ، و اطلال المدن الكبرى ، و دراسة التاريخ ، لا سيما تاريخ الحضارات البائـــدة ، كل ذلك يوحي الينا بتلك الحقيقة التي لا تستهوينا ، و لا نريد معرفتها ، و هي ان الله يمكر بالانسان اذا ظلم و طغى . و ينتقم منه باشد العذاب.

و تؤكد آيات هذا الدرس على هذه الفكرة ، و تشير أيضا الى مصير اولئك الذين كذبوا هذه الحقيقة الناصعة ، و لم ينفعهم النهي عن المنكر الذي قام به انبياء الله (ع) ، و من سار على دربهم.

]فكأين من قرية أهلكناها و هي ظالمة فهي خاوية على عروشها و بئر معطلة و قصر مشيد ]تبيد الحضارة في بعض الاحيان بصورة طبيعية كما يموت الانسان بعد ان يشيخ و تضعف بنيته الجسدية ، فتنطفئ شمعة الحياة شيئا فشيئا ، و قد تباد الحضارات بصورة فجائية و بعذاب الهي فتكون كما يموت الشاب بموت الفجأة بالرغم من ان جميع اعضاءه تبدو سالمة ، كل مافي الامر ان الروح تفارق جسده ، هكذا حال الحضارات ، فعندما تنحرف عن اهدافها المرسومة لها ، فان الله يوجه اليها ضربة قاضية في صورة زلزال مدمر او صاعقة من السماء ، فتبيد حضارتهم البشرية ، بالرغم من ان المظاهر المادية لهذه الحضارات تظل سالمة لتبقى عبرة للاجيال.

و لعلنا نستوحي هذه الفكرة من قوله سبحانه " و هي ظالمة " التي تدل على ان الهلاك نزل بهم حين ظلمهم.

لقد خلق الله سبحانه الطبيعة بحيث لا تتلائم مع الانحراف و الجريمة ، فهي تصبر زمنا ثم تتفجر غضبا - حين يشاء الله - لتعيد الامور الى نصابها.

"فهي خاوية علـــى عروشها " اي خالية من ساكنيها بالرغم من سلامة ابنيتها و عمرانها . " و بئر معطلة " هي التي ما زال ينضح ماؤها ، و لكن امست بلا رواد . اما القصر المشيد فانه يرمز الى مباني الملوك و الحكام الظلمة ، حيث ذهبوا و لمتغن عنهم قصورهم من الله شيئا.

لقد هلك القوم و تداعت البيوت فيها فهي خالية ، و عروشها قد تهاوت ، اما البئر التي هي محور الحضارة في الصحراء و يعتبر مالكها سيد الناس ، فقد تعطلت بعد ان كانت مركز التجاذب و سبب الصراع ، بينما بقيت القصور المشيدة التي تعالت و تجصصت خالية ترمز الى فناء أهلها.

و في الاحاديث ان العالم الصامت ، هو البئر المعطلة ، بينما العالم الناطق هو القصر المشيد (١) ، و لعل المناسبة بين هذا التأويل و ذلك التفسير ليست مجرد التشبيه ، بل و ايضا : لان هلاك الظالمين انما هو بتعطيل العلم ، و ذلك بعدم الاستفادة من العالم الصامت ( البئر المعطلة ) و لا من العالم الناطق ( القصر المشيد. (

ترى كيف يصور القرآن هذه الحقائق تصويرا بديعا بحيث لو أخذت ريشة و صورتها لخرجت مكتملة الملامح معبرة عن الفكرة ، ابلغ تعبير خذ الآن ريشة و حاول ان ترسم قرية خالية بأبنيتها و شوارعها ، ثم ارسم بئرا قد تدلى عليها دلوها و عليها بكرتها ولا أحد عندها ، ثم صور قصرا فخما مهجورا ، ثم انظر ماذا ترى ، انك ترى لوحة تنطق بالموت الرهيب و تعطي للذين غرهم تقلبهم في الحياة ، العبرة الزاجرة.

**حين يعمى القلب**

] [46]أفلم يسيروا في الأرض [

اي لماذا لا يسيرون في الارض ، ليعتبروا باثار السابقين انهم يسيرون فيها و لكن لا يعتبرون.

(1)نور الثقلين / ج 3ص ٥٠٦ - ٥٠٧

]فتكون لهم قلوب يعقلون بها [

قد يكون اشتقاق ( قلوب ) لغويا من الفعل ( قلب - يقلب ) اي تقليب الامر بشتى وجوهه و احتمالاته فيكون مدلول القلب قريبا من مدلول ( الفكر ) ، فيكون معنى الآية : افلا يتفكرون في الحياة ، ويعقلون حقائقها ، و كيف حل بمن قبلهم لما عصوا و كانوا يعتدون.

]أو ءاذان يسمعون بها[

الانسان :اما ان تكون له القدرة على فهم الحقائق شخصيا ، و اما ان يسمعها و يتلقاها ممن تفكر بها ، لذلك يقـــول القـرآن : " فتكون لهم قلوب يعقلون بها " بصورة مباشرة ، " او اذان يسمعون بها " بالاستفادة من علوم الآخرين و تجاربهم.

]فإنها لا تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب التي في الصدور ]حينما لا يوجد عند الانسان فكر ، و

ينطفئ نور قلبه ، و لا يستوعب العبر ، فماذا تنفع العين ، و ماذا تعني الأذن ؟!

ان تعبير "التي في الصدور " يشير الى إن الفساد لا يصيب الظاهر من الانسان ، و لكن الذي يفسد - في الحقيقة - هو داخل الانسان ، نفسيته و روحه و كيانه . جاء في الحديث الشريف : عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام : و هو يذكرنا بعمى القلب و كيفيتم اتقاءه : تاه من جهل ، و اهتدى من أبصر و عقل ، ان الله عز و جل يقول : فانها لا تعمى الابصار و لكن تعمى القلوب التي في الصدور.

و كيف يهتدي من لم يبصر ؟ و كيف يبصر من لم يتدبر ؟!

اتبعوا رسول الله و أهل بيته ، إقرأوا بما نزل من عند الله و اتبعوا آثار الهدى ،فانهم علامات الامانة و التقى . (١(

**الزمن عند الله**

] [47]ويستعجلونك بالعذاب و لن يخلف الله وعده[

من المشاكل النفسية التي يعالجها القرآن الحكيم في آياته المرة تلو الاخرى هي مشكلة الاغترار بالفرصة ، فترى الانسان يقول ، عندما يرى الوان النعم تصب عليه : أين هو عذاب الله ؟ ولماذا لم يأت ؟ فيكفر بالعقاب أساسا لأنه يبطئ عليه.

لقد وعد الله بالعذاب وعدا حتما ، و لكن يعطي الانسان مهلة كافية لعله يكتشف خطأه ، و لو بعد حين ، فيتوب الى الله متابا ، فاذا لم يكن للاعتراف و الاستغفار في قلبه محلا ، و حان اجله آنئذ لا يستقدم ساعة ولا يستأخر.

جاء في الدعاء : ( سبحانك ما اعجب ما اشهد به على نفسي ، و اعدده من مكتوم امــري ، و اعجب من ذلك اناتك عني و ابطاؤك عن معاجلتي ، و ليس ذلك من كرمي عليك ، بل تأنيا منك لي ، و تفضلا منك علي لان ارتدع عن معصيتك المسخطة ، و اقلع عن سيئاتي المخلقة ، و لان عفوك عني احب اليك من عقوبتي. ( ...

]و إن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون[

لو كان للزمن عند الله قيمة اذا لاهلكنا عند اول ذنب . و لكن الله الذي لا يقدر أحد على الفرار من حكومته ، ولا يفوته شيء في السموات و الارض ، لا يبادر بالجزاء و يكون اليوم الواحد عنده كألف سنة.

(1)المصدر / ص ٥٠٧

انه سبحانه ليس كما نحن ، اننا محددون بالزمان و المكان ، و علومنا و قدراتنا محدودة ، بينما الله على كل شيء قدير ، و هو مهيمن على خلقه ، قادر على ان يقبض المكذبين متى شاء كيف شاء ، فلماذا العجلة ، و انما يعجل من يخاف الفوت ، سبحانه ؟

[48]ان تأخير العذاب ، و تلاشي قانون الزمن عند الله ، لا يعني ان العذاب لن يأتي ، فكم من امة اعطاها الله مهلة بالرغم من انها ظالمة ، ثم أخذها بالعذاب حين حقت عليها كلمته.

]و كأين من قرية أمليت لها و هي ظالمة ثم أخذتها و إلي المصير ]اين يذهب هؤلاء أو ليس الى الله ؟ بلى انه سبحانه لا يخشى الفوت ، و من لا يخشى الفوت لا يبادر بالانتقام.

[49]ان وظيفة الرسول هي تبليغ الرسالة للناس ، لتكون لهم نذيرا بين يدي عذاب شديد . ان هم اصروا على المعصية . و بالرغم من ان الرسول بشير ايضا الا ان السياق أكد على جانب الانذار لان الاطار العام للحديث هنا التكذيب و العذاب.

]قل يا ايها الناس إنما أنا لكم نذير مبين[

] [50]فالذين ءامنوا و عملوا الصالحات لهم مغفرة و رزق كريم ]من يقف بجانب الرسالة و يؤمن بها و بالرسول و يعمل الصالح بموجبها ، فانه يفوز بجائزتين :اولهما المغفرة و حط الذنوب ، و ثانيهما الرزق الكريم ، انها جائزة معنوية تتمثل في التطهير من الذنوب و أخرى مادية و هي الرزق الكريم ، اي يوفر كرامة الانسان ذلك لأن من الرزق ما يذهب بها ، و يسبب له الهوان.

و ليس في الآية ما يدل على الآخرة فقط بل يشمل الدنيا أيضا . ذلك ان المغفرة و كفران الذنوب و تطهير الواقع الفردي و الاجتماعي من آثار الانحراف و الفساد ، و تزكية النفس من قذر العقد و الاحقاد ، ان كل ذلك نعمة عظيمة يسبغها الله على المؤمنين في الدنيا ايضا.

كذلك الرزق الكريم يوفره الله لعباده المؤمنين ، الذين يرفضون الخضوع لاصحاب السلطة و الثروة ، و يتعالون على الذلة و الهوان ، او لم يقل ربنا سبحانه:

"و من يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب " ؟

] [51]و الذين سعوا في ءاياتنا معاجزين أولئك اصحاب الجحيم ]اولئك الذين يبذلون قصارى جهدهم في سبيل تعجيز آيات الله ، حسب ظنهم ، اي عرقلة مسيرتها ، و تعويق تطبيقها ، و تحديها و التكذيب بها أو تأويلها ، انهم اصحاب الجحيم.

و يسعى هؤلاء نحو الحاق العجز بالآيات ، بتحديها و مواجهتها ، فهم بعكس المؤمنين الذين يسلمون بالآيات ، و يقولون : كل من عند ربنا بلا مكابرة و لا جدال.

و يدخل ضمن هؤلاء:

اولئك الذين يكذبون بالآيات رأسا.

و اولئــك الذين يأولونها و يحرفون مواضعها ، مثل خدم السلاطين من علماء السوء.

و اولئك الذين يعوقون تطبيقها كالحكام الظلمة.

و اولئك الذين يحبسونها في حدود ضيقة.

و كلمة " معاجزين "من معاجزة ، على وزن مفاعلة و هي صرف الشيء عن وجهه.

و الانسان الذي لا يريد ان يطبق أوامر الله و شريعته يبدأ بتأويل الآيات القرآنية المحتوية على الاحكام و الشرائع فيبعدها عن مقاصدها ، و هذه هي المعاجزة.

يؤكد القرآن مثلا على محاربة الطاغوت ، اما المعاجز فيقول : صحيح ان القرآن يؤكد على محاربة الطاغوت و لكن الطاغوت المقصود في القرآن هم ( فرعون ، نمرود .. ) و ليس هؤلاء طغاة اليوم ، و القرآن يحرم الربا ، و يقول المعاجز انما نأخذ الفائدة.

ان الآيات من الوضوح بحيث لم تدع سبيلا لتحريف مدلولاتها ، ان الطاغوت هو الطاغوت ، و لا سبيل الى التستر عليه بعد ان سلطت عليه الآيات القرآنية الاضواء الكاشفة ، ففرعون قال : انا ربكم الأعلى ، و فلان ( ... ) حاكم قال مثل ذلك بعمله و تصرفاته . و هما سواء ، كما انه لا فرق بين الفائدة و الربا.

ان في القرآن الحكيم العلاج الناجح لأدواء الانسان و امراضه ، فالقرآن لا يشير الى العلاج فقط ، بل و يقوم ايضا بمعالجة الانسان مباشرة ، بشرط ان يتفاعل مع آياته ولا يعاجزها فيزداد مرضا على مرض.

## كيف نتحدى التمني بالذكر ؟

## هدى من الآيات

في اطار تذكرة سورة الحج بمواقف الناس من الهدى ، و بعد الحديث عن موقف التحدي ( المعاجزة ) عند البعض ، تبين آيات الدرس : خطأ التمني ، و انه حتى الانبياء و الرسل لو تمنوا ، القى الشيطان في امانيهم ، بيد ان ربنا يعصمهم مما يلقيه الشيطان بآياته الحكيمةالتي تنسخ إلقاءات الشيطان ، التي هي فتنة يتبعها مرضى القلب ، و قساته من الناس ، و ذلك بسبب ظلمهم الذي يضلهم عن الطريق السوي بعيدا بعيدا.

اما المؤمنون فان هدى الله ينور قلوبهم ، و يطهرها من أماني الشيطان ، فيعلمون انه الحق من ربهم فيؤمنون به ، فتصبح قلوبهم خاضعة للحق ، مسلمة لأمر الله ، و يهديهم الله بايمانهم الى صراط مستقيم ، بينما يفقد الكفار نعمة اليقين فتراهم لا يزالون في ريبمنه برغم كل آيات الصدق ، حتى تأتيهم الساعة بغتة بالموت ، أو يأخذهم الرب ، بعذاب يوم عقيم.

و يوم القيامة ، يتجلى ملكوت الله الذي يحكم بينهم ، و يكرم الذين آمنوا و عملوا الصالحات في جنات النعيم كما يهين الكفار الذين كذبوا بآيات الله ، فيلقيهم في عذاب أليم.

## بينات من الآيات

[52]تعالج آيات هذا الدرس الكريم ثلاثة مواقف للانسان تلقاء الذكر الحكيم:

الف : موقف التحدي و المعاجزة.

باء : موقف التمني.

جيم : موقف التسليم.

و المواقفان الاولان خاطئان ، و هما متطرفان ذات اليمين و ذات الشمال و المحجة السالمة ، الموقف الثالث.

ان على الانسان ان يسلم نفسه للحق كله ، و يؤمن بحلوه و مره ، ثوابه و عقابه ، سهله و صعبه ، و يكيف - بالتالي - واقعه له انى كان.

و من الناس من يصارع الحق و يسعون في آيات الله معاجزين متحدين . و منهم من يتمني فيخلط بين الحقائق و الاحلام ، بين ما هو حق و واقع ، و بين ما يصبو اليه و يتطلع نحوه.

و لعل العلاقة بين المعاجزة و التمني ، هي ان كلا الموقفين نابعان من عدم التسليم للحق كما هو ، مع فارق في الطريقة ، فاصحاب المعاجزة يتحدون الى الحق ، و يكفرون به ، بينما اولي التمني يرفضون طريقة تحقيق الحق ، و تكريسه ، منالسعي و الاجتهاد و القتال .. ثم القبول بالنتائج.

و لا ينبغي ان يسترسل المؤمن مع زخم امنياته فيذهب مع رياح الاحلام ، انى اتجهت ، و حتى الانبياء العظام ، و الرسل الكرام لو تمنوا بطبعهم البشرى ، تمنوا مثلا ان لو هدى الله الناس جميعا ، او اهلك الظالمين فورا ، او اسعد الخلق بوافر نعمائه بلا سعي و لاعسر ، او اخلد الصالحين و لم ينزل عليهم مصيبة الموت ، أو ما الى ذلك من احلام تنبع من فرط حسم للخلق و للقيم الرسالية ، فان الشيطان يلقي في امنياتهم ، الا ان الله يعصمهم و يحكم آياته في واقعهم.

و لكن على المؤمنين ان يعرضوا هذه التمنيات على الحق الذي انزله الله في آيات الكتاب فيلزموا انفسهم حقائق الكتاب و يعرفوا ان الله قد خلق الدنيا دار ابتلاء ، و لم يجعلها دار جزاء ، حتى يعجل

للكفار العذاب ، أو للمؤمنين بالثواب!

و ان الهداية ليست كرها على الناس ، و ان الله قد فرض القتال على المؤمنين لحكمة بالرغم من انهم له كارهون.

و هكذا جاء في الأحاديث - اضافة حكمة و لا محدث ، و لعله للدلالة على ان الربانيين من العلماء هم بدورهم معصومون من القاءات الشيطان ، مؤيدون بروح الايمان.

]و ما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ]و يبدو ان معنى ذلك : ان النبي و الرسول و الامام المحدث يكاد يتمنى ، و لكنه لا يتمنى لقوله سبحانه:

]فينسخ الله ما يلقي الشيطان[

في روع الرسول لمقامه البشري الضعيف لو لا تأييد الله و نصره.

]ثم يحكم الله ءاياته[

بالعصمة التي تجعل الرسول لا ينطق عن الهوى بل هو وحي يوحى.

]و الله عليم حكيم[

فهو يحيط علما بالقلب البشري ، و القاءات الشيطان فيه و هو ينسخها من ضمير المؤيدين كالنبي و الرسول و المحدث بحكمته . و هذه الآية اكبر شاهد على عصمة انبياء الله و ائمة الهدى . ذلك لان الله لا يسمح للشيطان بأن يوسوس اليهم في صدورهم ، بل يعصم عزائمهم ،و امنياتهم و افكارهم من القاءات الشيطان . و تشبه هذه الآية آيات اخرى في القرآن الحكيم ، كقوله سبحانه:

"و لقد همت به و هم بها لو لا ان رأى برهان ربه " حيث تدل على ان يوسف عليه السلام تعرض لطائف من الشيطان فعصمه الله رأسا ، و قوله تعالى:

"و لو لا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا "حيث ان الله لم يدع الضغوط الجاهلية تؤثر على مسيرة النبي المستقيمة.

ومن المفارقات الغريبة اننا نجد تلفيقات من القاءات الشيطان حول هذه الآية.

حيث جاء في بعض الاخبار المروية : ان رسول الله صلى الله عليه وآله جلس في أحد نـــوادي مكـــة ، و قـرأ على المشركين سورة ( النجم ) حتى اذا بلغ قوله تعالى : " افرأيتم اللات و العزى و مناة الثالثة الاخرى " اضاف اليها : و انهن لهن الغرانيق العلا و ان شفاعتهن لهي التي ترتجى و مضى في قراءة السورة حتى انتهى الى السجدة في آخرها فسجد و سجد المشركون معه ، و لم يتخلف منهم احد ، فاعلنت قريشرضاها!!!..

و في بعض الروايات ان رسول الله صلى الله عليه و آله كان يقرأ سورة النجم في الصلاة ، فعندما كان يقرؤها فاذا بأحد خلفه يردد آيات الغرانيق فرددها الرسول عدة مرات على غفلة منه ، فنزلت هذه الآية.

و ان هذه الرواية و امثالها لا تحتمل التصديق لان سورة الجن نزلت في مكة و سورة الحج نزلت في المدينة ، عوضا عن ان الرسول يعلم علم اليقين ان سورة النجم التي تحتوي على سجدة واجبة لا تقرأ في الصلاة.

المهم جاءت هذه الآية لتؤكد بان شفاعة هذه الغرانيق لا ترتجى ، و ان هذه القصة ليس سوى امنيات القاها الشيطان ليختبر بها الله عباده المؤمنين ، فما هي الا اسطورة لا اكثر و لا اقـل . لان الرسول أرفع

من ان ينزل الى مستوى الجهل بأهم اصل من اصول رسالته ،الذي يعتبر الركيزة الاولى التي قام عليها الدين بأكمله و هي التوحيد ، فحتى لو اغمضنا العين بقول ان رسل الله معصومون عن الذنب ، و الخطأ و السهو النسيان و بالذات رسول الله محمد خاتم النبيين صلى الله عليه و آله الذي يقول عنه الرب سبحانه : " و ما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى " . ان هذه الآية نقرأها في سورة النجم بالذات التي حولها هذه الاسطورة ثم هل من الممكن ان نتصور رسولا يبعثه الله لابلاغ رسالة التوحيد ثم ينسى هذه الحقيقة ، و يبدلها بخرافة الشرك ؟!

ان هذا الحديث الذي يقول عنه ابو بكر الزار لا نعلمه يروى عن النبي باسناد متصل يجوز ذكره ، انما تقوله الجاهليون الحاقدون على الرسول نكاية به ، و تناقله الجاهلون الذين لم يعرفوا رسول الله بل لم يعرفوا رسالات الله.

و لو افترضنا - جدلا -صحة هذه الرواية فلابد ان يكون هذا الكلام منالقاءات الشيطان في قلوب المشركين ، التي اضافوها الى الآيات ، و اشاعوها بين الناس ، ليشبهوا على الناس ، الا ان الله سبحانه - الذي وعد بحفظ القرآن عن عبث العابثين و تحريف المبطلين - احكم آياته ، و فضح القاءات الشيطان ، و قد ذكر كثير من المفسرين هذا الاحتمال في هذه الرواية التاريخية.

[53]ان قلوب الناس على ثلاثة انواع : السليم ، و المريض ، و القاسي ، و القلب السليم يعصمه الله عما يلقي الشيطان في امنياته ، بينما القلب المريض و القاسي يلقيان ما يلقيـــه الشيطان ، و يصبح بالنسبة اليهما فتنة تستهويهما و يصعب عليهما التخلص منهـا.

]ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض و القاسية قلوبهم ]ما هو القلب المريض و القاسي ؟

لعل امراض القلب هي تلك العقد النفسية ، التي تظهر في الصفات الرذيلة كالحسد و الحقد و الكبر و اليأس ، و حب الرئاسة ، و الجدل في الله بغير حق.

و اما قسوة القلب فهي التي تنشأ بسبب تراكم اثار الذنوب عليه ، فاذا به لا يستجيب للحق ، ولا يهتز للانذار و التبشير ، و لا يعتبر بمصير المجرمين ، و لا ينتفع بآيات الله في الافاق.

و كيف تصبح القاءات الشيطان بالنسبة إليهما فتنة ؟

لان القلب المريض او القاسي يبحث ابدا عما يتوافق معه ، فأنه يستجيب سريعا لوساوس الشيطان و يكون مثله مثل الجسم المريض الذي تكاثرت فيه الجراثيم، و ضعفت مناعته الذاتية ، فاذا به يتلقف الجراثيم الجديدة بسهولة ، انمقاومة هذا الجسم للمرض ضعيفة ، فخطر المرض عليه شديد ، كذلك القلب المريض أو القاسي ، يصعب عليه مقاومة الاشاعات الشيطانية التي تنتشر و تلقى هوى في النفس.

مثلا : انك ترى قلوب الجاهليين المريضة بحب " الغرانيق العلى " ، والتي تراكمت عليها أثار عبادة الاصنام ، و تحن الى ايام الصبا حيث كانوا يتساقطون امام الاصنام المزخرفة ، و يسحرون على وقع الاناشيد و الطبول ، و في احتفالات اللعب و اللهو و بانتظار موائد الطعام و الشرب و المسكرات ، و مع صبايا الحي الجميلات و الصبيان الحسان.

انك تراها اليوم تتلهف الى اشاعة تـروج في مكة ، بان النبي قد مدح هذه الاصنام ، و وقع ساجدا لها ، و اعطى الشرعية من جديد لها ، و تتناقل الافواه هذه الشائعة المفضوحة بشوق عظيم ، و اذا بها تصبح مادة اعلامية لكل من سولت نفسه النيل من مقام سيد البشر ومنار الهداة و قدوة الصالحين محمد بن عبد الله الطهر الطاهر المطهر ، الذي عصمه الله من كل ذنب ، صلى الله عليه و على آله المعصومين.

و تستمر الافواه تتناقلها حتى اليوم حيث تتلقفها اقلام المستشرقين و تنسج حولها بيوت العنكبوت و من راجع كلمات المستشرقين و محاور تركيزهم وجدها تدور في الاغلب حول تلك الاشاعات الكاذبة التي روجتها افواه الحاقدين على الرسول (ص) ، ثم دخلت في كتب التاريخاما بسهو أو عبر اصحاب

القلوب المريضة الذين تظاهروا بالاسلام ، و هم ينوون النيل من الاسلام كبني أمية ، و احزابهم.

و مع الأسف استرسلت اقلام بعض المفسرين مع هذه التقولات الكاذبة حتى صنعت من الرسول شخصية مفروزة ، و لم تلتفت الى الحديث المجمع عليه و المأثورعن النبي صلى الله عليه و آله : ( ستكثر من بعدي القالة ) و لم تلتفت الى حذر اصحاب الرسول من بعده عن قبول الاحاديث الا اذا شهد عليها شاهدان ، و قد طردوا بعض الرواة و ضربوهم بالدرة ، لانهم اكثروا من نقل الحديث غثة و سمينة.

و قد تصدى ائمة اهل البيت بحزم لهذه الظاهرة الخطيرة و اصروا بان يعرض كلام الرسول و كلامهم ايضا على كتاب الله . فما وافق كتاب الله أخذ و ما خالف كتاب الله ضرب به عرض الحائط ، و استطاعوا ان يفندوا الكثير من الاشاعات الضالة بهذا المقياس الرشيد.

]و إن الظالمين لفي شقاق بعيد[

ان الذين ظلموا انفسهم بارتكاب المعاصي ، حتى مرضت قلوبهم و قست و استجابت لفتنة الشيطان انهم بعيدون عن الحق كثيرا.

و يستوحي من الآية الكريمة : ان قسوة القلب مرحلة تالية لمرضة ، و ان ما يسبب مرض القلب هو الظلم فاذا فحش و ازداد قسى القلب.

] [54]و ليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم [يتميز الذين اوتوا العلم ، بأن موقفهم اخذ في التكامل فمن العلم الى الايمان الى الاخبات ، ذلك لان العلم هو اكتشاف الحقيقة و الايمان هو الاعتراف بها ، و الاخبات هو ان تتبعها بكل كيانك.

و هذا التكامل يتم عبر الصراط المستقيم الذين كلما مشى فيه الانسان ظهرت له معالم الحق ، و الله هو الذي يهدي المؤمنين الى هذا الصراط ، و لا احد سواه قادر على الهداية اليه.

]و إن الله لهاد الذين ءامنوا إلى صراط مستقيم[

[55]اما الذين كفروا فهم باقون اسارى شكهم النابع من جهلهم . و لا يمكنهم التخلص من هذا الشك الى اليقين بسبب كفرهم.

]و لا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ]الساعة هي يوم القيامة ، اما العذاب العقيم فهو العقاب في الدنيا.

[56]هنالك عند قيام الساعة ، يتجلى ملكوت الرب ، و قضاؤه الفصل و جزاؤه العادل ، فهو الملك و الحاكم و المدبر .

]الملك يومئذ لله[

فله السلطان الظاهر ، حيث يطوي بعزته سلطات الجور التي نشرها الشيطان ، و امهلها الله بحكمته الى اجل مسمى.

]يحكم بينهم[

فلا احد يستطيع رد حكمه ، و الادعاء كذبا بانه على حق كما هو اليوم في الدنيا.

]فالذين ءامنوا و عملوا الصالحات في جنات النعيم ][٥٧] ذلك هو مصير المؤمنين العاملين للباقيات الصالحات ، اما مصير الكافرين فهو العذاب المهين.

]و الذين كفروا و كذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ]كلمة المهين توحي بان اهم العوامل التي تدعو الانسان للشك و اتباع الاماني هو التكبر ، و الاهانة هي العذاب النفسي الذي يصيب المتكبرين . و لعله أشد ألما من العذاب المادي.

## هكذا ينصر الله المظلوم الذي يتحدى

## هدى من الآيات

هنالك هجرتان : هجرة معنوية و اخرى مادية ، فالهجرة المادية عادة ما تتبع الهجرة المعنوية ، لذلك نجد القرآن الحكيم حينما يحدثنا في هذا الدرس عن الهجرة المادية من دار الكفر و الكبت و الحرمان ، الى دار الحرية و الاسلام ، لا يلبث ان يحدثنا عن الجوانب المعنوية لهذه الهجرة.

و بمناسبة الحديث عن الهجرة يحدثنا القرآن الحكيم عن قدرة الله ، و اهم و أبرز مظاهر هذه القدرة حركة الليل و النهار ، و إيلاج كل واحد منهما في الثاني ، فكما يبدل الله - سبحانه - الليل نهارا ، فانه كذلك يبدل ظلام الارهاب و الكفر و الجاهلية الى نور العدالة و الاسلام و الحرية.

تلك القدرة المهيمنة على الكون هي ذاتها القدرة المهيمنة على المجتمع ، لأن قيادة هذا الكون ، و ولايته سواء في السماء او في الارض لله الحق وحده.

## بينات من الآيات

[58]بعد ان ذكرنا الرب سبحانه ببعض حقائق الايمان في آيات آنفة ، جاءت هذه الآية تذكرنا بدور الهجرة في الله . لماذا ؟

لان الطريق الى الايمان يمر عبر الهجرة و الجهاد . إذ أن الطغاة لا يدعونك حرا تؤمن بالله وحده ، و تطبق منهجه فقط ، إنما يريدون ان تميل عن عبادة الله الى الشرك به بعبادتهم ، و لابد من تحديهم حتى تصبح مؤمنا بالله و حده . و من هنا تبدأ مرحلة الجهاد بالهجرة من ديار الكفر الى بلاد الاسلام . و الواقع فالهجرة ذاتها مرحلة متقدمة من مراحل الايمان ، فليس كل مؤمن مستعدا للهجرة الى الله بعيدا عن اهله و وطنه ، و الهجرة لا تتم من دون معاناة ، فالمهاجر عادة يتعرض للقتل بسبب أو بآخر.

و ليس هناك ما يعوض القتل أو الموت الا الرزق الحسن من الله ، فهذا المهاجر الذي ترك موارده الخصبة في بلده ، يعوضه الله خيرا منها دار الخلود ، و بدل خروجه من وطنه ساخطا يدخله تلك الدار راضيا مرضيا .

هذا لمن يهاجر و يلقى حتفه ، اما الذي يبقى حيا فأن الله سوف ينصره نصرا مؤزرا على من كانوا السبب في تهجيره و تشريده ، و بما أن الهجرة من دار الكفر الى دار الايمان تنشأ من السخط على الاوضاع الفاسدة - السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية - فان الهجرةفي عرف الطغاة تشكل سن الحربة لذا فهم يسعون لوأد هذه الحركة بقتلهم المهاجرين ، او التضييق عليهم كأن يبرموا الاتفاقات مع الدولة الاخرى كي يسلموهم ، أو يضيقوا عليهم حتى يستحيل عليهم النصر فيموتوا بعد سني النضال الطويل.

]و الذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم اللهرزقا حسنا و إن الله لهو خير الرازقين[

هكذا يعرفنا الله نفسه.

من الآية (٥٨) الى الآية (٦٥) يذكرنا القرآن بـ (١٥) اسما من الاسماء الحسنى ، هي خير الرازقين ، العليم ، الحليم ، العفو ، الغفور ، السميع ، البصير ، العلي ، الكبير ، اللطيف ، الخبير ، الغني ، الحميد ، الرؤوف ، الرحيم.

و نستوحي من منهج القرآن في ذكر اسماء ربنا هنا و في سائر السور ، ان الله يريد ان يعرفنا نفسه في مختلف جوانب الحياة التشريعية و الاجتماعية ، أو المادية التكوينية ، و ان هناك مسافة تفصل بين الايمان و المعرفة ، كما تفصل مسافة مماثلة بين الاسلام ، والايمان ، فليس كل مسلم مؤمنا ، و ليس

كل مؤمن عارفا و ان للعرفان درجات.

ان الله سبحانه و تعالى قد تجلى في آيات القرآن لعباده ، كما تجلى في آيات الحياة ليعرفنا نفسه ، فكيف نعرف الله ؟

باستطاعتنا ان نعرف الله سبحانه عبر صفاته و اسمائه الحسنى ، المبثوثة في آياته القرآنية و الكونية ، فكل شيء و كل آية هي تجل واضح لأسماء الله و صفاته.

جمال الربيع ، و بهجته ، و عبق ازهاره ، يقودنا الى جمال الله ، و عظمة الليل و النهار ، و دوران الفلك العظيم بشموسه و أقماره ، يهدينا الى عظمة الله ، و انه علي كبير.

و قطرات المطر التي تنزل من السماء ثم تستقر في رحم الأرض ، و تتفاعل مع حبات التراب ، و اذا بتلك البذرة الصغيرة ترتفع نحو السماء ، فتصبح شجرة عظيمة ، كل ذلك يقودنا الى لطف الله في صنعه.

اما اذا نظرنا الى ما في الجبال من خزائن ، و ما في البحار من ثروات معدنية و حيوانية ، و ما في الارض من كنوز و معادن ، فسنعرف آنذاك أن ربنا غني حميد .و انه على كل شيء قدير.

و حين نعرف بأن ربنا سبحانه قد جعل في السموات و الارض أنظمة و سننا - يحفظنا بها - و لو لا ذلك لانتهت حياتنا على الارض ، أو تحولت في أحسن الظروف الى جحيم لا يطاق.

ان نظام الغلاف الجوي كأبرز مثال من الدقة بحيث لو انه كان اقل سمكا لتهافتت النيازك و الشهب فاحرقت الارض ، و لو انه كان اسمك قليلا لما استطاعت الارض ان تأخذ قدرا كافيا من اشعة الشمس فكانت تتجمد ، و هكذا الجاذبية ، و سماكة الارض .. اقول اذا عرفنا كلذلك هدانا الله الى انه سبحانه رؤوف رحيم.

و كذلك تحولات حياتنا من الموت الى الحياة ، و من الحياة الى الموت ، يدلنا على ان تدبير الامور بيد غيرنا لا بيدنا نحن ، و ان الرحمن على العرش استوى . و هكذا نجد في هذه الآيات منهجا قرآنيا عظيما . حيث يذكرنا بآية من الآيات ، ثم بصفة من صفات الخالق، واسم من اسمائه ، و هذا هو الاسلوب المناسب لمعرفة الله سبحانه ، و بتعبير آخر التحول من درجة الايمان الى درجة المعرفة.

**جزاء الهجرة**

] [59]ليدخلنهم مدخلا يرضونه[

قد يكون هذا المدخل الذي يرضونه في الدنيا ، لانهم خرجوا غاضبين في سبيل الله ، و قد يكون المدخل هو الجنة لان اللام في قوله : " ليدخلنهم " تفيد المستقبل.

]و إن الله لعليم حليم[

فهو يعلم عملك و سيجازيك عليه - و لكن بعد حين - لانه حليم لا يعجل ، فمن جهة يعطي الكافرين مهلة اطول ، و من جهة أخرى يطلب من المؤمنين الصبر حتى يعلم صدق ايمانهم.

] [60]ذلك و من عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ]ذلك لان الذين خرجوا من ديارهم مهاجرين الى الله سوف يرجعون اليها فاتحين بإذنه ، فيقتلون اعداء الله و اعداءهم ، لانهم تعرضوا للبغي ، و البغي هو ان تطالب بحقك المغصوب فلا تعطى إياه ، بل و ايضا تواجه بالقمع و الإرهاب . اذ لا يجد غاصبوك سبيلا لاسكاتك الا بالقضاء عليك.

"ذلك ومن عاقب مثل ما عوقب به " اي مواجهة الاعدام بالاعدام .. مثلا بمثل ، "ثم بغي عليه " اي ظلم بعد أخذه لحقه المشروع ( لينصرنه الله ) في هذه الكلمة تأكيدان على تحقيق النصر ، أولهما يدل

عليه لام التوكيد ، وثانيهما تعبر عنه نونالتوكيد.

]إن الله لعفو غفور[

عفو غفور مما تجاوزتم ، و دلالة عفوه و غفرانه نصره لكم.

استوحي بعض المفسرين من الآية فكرة هامة ان الصراع في الاسلام ليس قاعدة مطردة كما في النظرية الماركسية ، انما هو حالة اضطرارية ، فالاسلام يدعوك الى ان تضرب صفحا عمن يظلمونك او يسلبون بعض حقوقك البسيطة ، اما حين يتعدى هؤلاء الحد في السلب و الظلم ، آنئذ يجب عليك ان ترفع عقيرتك في وجوههم و تواجههم فيكون صراعك لا من أجل الصراع ذاته ، بل من أجل العدالة ، و حالما يعود اليك حقك آنئذ تقف عند هذا الحد . و مثل هذه الآية قوله تعالى:

"ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق و من قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل انه كان منصورا "اذا و قبل كل شيء يجب ان يكون الصراع في الله و بالله ، نهب متى استنهضنا و نقف عندما يأمرنا بذلك.

**الليل و النهار**

] [61]ذلك بإن الله يولج الليل في النهار و يولج النهار في الليل[

ما يحدث في الطبيعة مثل حي تمر به الأمم ، فمرة يمتطي صهوة التاريخ كفرة فجرة ، فيصيب المؤمنون جام انتقامهم عليهم ، فتعود مؤمنة كما كانت ، لكنها لا تلبث ان تضمحل و تتلاش و تعود من جديد كافرة فاجرة .. و هكذا تتعاقب الامم حتى يأذن الله لاوليائه الصالحين بالنهوض لازالة الجاهلية و الضلال من ارض الانسانية جميعا.

ان معنى الايلاج هو الادخال ، فمرة يلج الليل في النهار و يدخل فيه ، و مرة يلج النهار في الليل و يدخل فيه ، ففي المرة الاولى يكون الفصل شتاء ، و في المرة الاخرى يكون الفصل صيفا ، لان ايلاج الليل في النهار يعني اقتطاع الليل قطعة من النهار فيصير الليلاطول ، و هذا فصل الشتاء ، و العكس من ذلك ايلاج النهار في الليل.

]و أن الله سميع بصير[

اي ان الله قريب من السنن الجارية في السموات و الارض و من مظاهر قربه سمعه و بصره ، و احاطته بكل صغيرة و كبيرة.

**اسماء الله**

] [62]ذلك بأن الله هو الحق و أن ما يدعون من دونه هو الباطل[

سلطته اعلى من سلطة الآخرين ، هذا اذا سلمنا جدلا بأن للآخرين سلطة ، و الافهم في الحقيقة سراب يحسبهم الظمآن ماءا و الله هو الحق المبين.

]و ان الله هو العلي الكبير [

فما سواه ليس عليا و لا كبير ا، الا به و العلو و الكبر تعبيران عن قدرة الله و سعة سلطانه ، فلتسقط الاصنام البشرية و الحجرية التي تعبد من دون الله ، و ليخلص العارف نيته و عمله لله الذي يولج الليل في النهار و يولج النهار في الليل لانه وحده الحق و ماسواه هو الباطل.

[63]و انه لطيف خبير ، لطيف بعباده يرزقهم من حيث يحتسبون و من حيث لا يحتسبون ، و خبير بحاجاتهم.

]ألـــم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير ]السماء تمطر و الارض تستقبل حبات المطر ، لتتحول تلك الحبات الى بساط أخضر ، فطعام لنا و لانعامنا . ان كل ذلك يدل على ان الله لطيف خبير.

ان علماء النبات يعرفون ، كم هي دقيقة و عظيمة تلك القوانين التي تنظم نمو النبات ، التي عادة ما نمر نحن عليها بلا تأمل أو اعتبار . فبعد ان صرفوا الملايين من الدولارات في المختبرات النباتية لم يعرفوا و الى الآن سر التمثيل الضوئي .. كيف ان شعاع الشمسيتحول الى ثمرة كالتفاح مثلا التي تعتبر اكثر مواده من نورالشمس.

] [64]له ما في السموات و ما في الارض و إن الله لهو الغني الحميد ]ان الله سبحانه و تعالى يمتلك كل الاشياء ، و يسير قوانينها ، و هو بالرغم من انه يمتلك الاشياء و قوانينها فهو غني عنها ولا يحتاج اليها ، فهي لا تعطيه القوة ، بل هو مـــن جهة غني عنها ، و من جهة اخرى حميد يعطيها الوجود و الحركة تبارك و تعالى.

] [65]ألم تر أن الله سخر لكم ما في الارض و الفلك تجري في البحر بأمره ]كل ما في الارض مسخر لنا .. بقسميها البري و البحري ، فالقسم البري يحوي المعادن و الكنوز ، و الاشجار و الحيوانات ، و يحوي القسم البحري الحيوانات و المعادن و لعل أهم فائدة نستفيدها من البحر ، هي جريان سفننا بأمر الله فيه و ان من امر الله الرياح التيتدفع السفن و تحركها الى الامام.

**الجاذبية**

]و يمسك السماء أن تقع على الارض إلا بإذنه[

ان النجوم و الكواكب و سائر الاجرام السماوية تبقى في مساراتها بقدرة الله ، و لو ان الجاذبية موجودة لاختل نظام الافلاك و لاصطدمت ببعضها و تناثرت على الارض فدمرتها . و ربما يكمن التفسير الصحيح في الآية ذاتها في قوله " : الا بإذنه " اي من الممكن ان تسقط اذا اذن الله لها بالسقوط ، و ما هي السواقط تلك ؟

ان السواقط التي يعبر الله عنها بالسماء هي : النيازك و الشهب التي تهبط الى الارض بإذن الله ، و لم يكتشف العلم الحديث و الى اليوم سر الجاذبية ، ما هي ؟

و أين هي ؟ و لكن الله يعبر عنها بقوله:

"و هــو الذي يمسك السماء ان تقع على الارض الا بإذنه " اي ان الجاذبية بيد الله ... و ضعها حسبما شاء و باستطاعته ان يعدمها ، و لكن كلمة " الا بإذنه " لا تدل على ان الله يعدم الجاذبية بل هو اثبات لها ، فالنيازك و الشهب التي تسقطعلى الارض بفعل الجاذبية نفسها.

و معلوم ان تقلص الارض هو نتيجة طبيعية لاعمال الانسان ، بسبب صرفه لطاقات الارض اذ تزايد في الآونة الاخيرة استخدام الطاقة ، و استحلاب الارض من معادنها و غير ذلك .

كما قال تعالى:

"ظهر الفساد في البر و البحر بما كسبت ايدي الناس " . ( الروم / ٤١ )و لعلنا نستوحي من هذه الآيات ان الله لا يأذن للارض بالدمار الا بسبب فساد الناس.

]إن الله بالناس لرؤوف رحيم [

آية رأفته و رحمته انه سخر لنا ما في البر و البحر ، و امسك السماء ان تقع على الارض الا بإذنه و الا فهو قادر على ان يجعل كل ذلك جحيما علينا ، فهناك احتمالات رهيبة في الكون لا يمكن ان تصدق ، و أبرز مثال على ذلك ان هناك الكثير من الشهب و النيازك تتساقط على الارض و باعداد هائلة ، و لكنها لا

تلبث ان تتلاشى اذا اصطدمت بالغلاف الجوي و هكذا نقرأ في الدعاء ، سبحان من لا يأخذ أهل الارض بالوان العذاب سبحان الرؤوف الرحيم.

] [66]و هو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الانسان لكفور ]ثم بعد عرض آيات الله ، و بعد عظيم علمه و رأفته ترانا نكفر بنعم الله . ان المشكلة في الانسان انه محدود النظرة ، فلو نظر الى ما حوله من آيات الله ، بل لو راى خلقه .. و تقلبات كل ذلك من حياة الى موت لآمن ، و لكن الانسان كفور بنعم ربه ، و بعطائه ، و لعل كفره هذا هو علة كفره بالله رأسا.

**الطغاة لن يخلقوا ذبابا**

**هدى من الآيات**

لكي يزداد البشر تقوى و احساسا بمسؤولياته في الحياة ، لابد ان يزداد معرفة بالله وبأنه محيط به علما ، و لابد ان يشعر بان هناك رقيبا يراقبه ، و يحيط به ، و هذه المعرفة تعطيه التزاما أكثر بمسؤولياته.

و في هذا الـدرس ما قبل الاخير من سورة الحج التي تركز حول موضوع التقوى نجد - في هذه الآيات - ايحاءات تدل على علم الله بالكون ، و ان المسؤولية ليست امام الرسول و لا امام المؤمنين بقدر ما هي امام الله رب العالمين ، فالله هو الذي يشرع لكل امة مناسكها، و هو الذي يطالبها بأدائها ، و يحاسب على تركها ، فلماذا اذن يجادل هؤلاء الكفار الرسول ؟

ان مسؤولية الرسول هي الدعوة الى الله عبر الصراط المستقيم و مسؤولية الرسول لا تتجاوز هذا الحد ، أما حساب الناس فهو على ربه و ربهم.

ان الله محيط علما بما في السموات و الارض ، و ان كل شيء عنده مكتوب في كتاب لا يضل ربي و لا ينسى ، و ذلك على الله يسير . لان تسجيل حوادث الدنيا و متغيراتها و إدراجها في كتاب أمر بسيط ، فاذا حانت ساعة الحساب فان يدك كتاب ، و جلدك كتاب ، و عينك كتاب ،و كل ما فيك كتاب شاهد عليك ، فما تفعله لا يذهب هباءا ، و مع كل ذلك ، فانك تجد أناسا يعبدون من دون الله أناسا عاجزين مثلهم و يخضعون لاصنام بشرية أو حجرية.

ان الانسان ينبغي له ان يتبع احد أمرين : اما ان يتبع شريعة الله و يخضع لأوامره ، و نواهيه ، و اما ان يتبع العلم ، فمن لم يتبع أحد هذين الأمرين فهو ظالم لنفسه ، و من يظلم نفسه ، أيحسب آنئذ ان الاصنام الحجرية أو البشرية ستشفع له ؟! انها ستكون عليه ضدا ، و سيحشر معها في جهنم كما قال تعالى:

"انكم و ما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون. "

و انـــك لترى مدى التعصب للباطل عند عبد الطاغوت ، حيث تتبين في وجوههم المنكر .. فاذا بها تظلم و تعبس ، كلما تليت عليهم آيات الله ، البالغة الوضوح ، حتى ان اعصابهم تتحفز و كأنهم يستعدون لمعركة ، و يكادون يرفعون أيديهم للسطو على من يتلوا عليهم الآيات ، و دون النظر الى محتوى الآيات ، و ان التالين لها ليسوا سوى مبلغين و ان قول الحق اذا كان مرا لان فيه تهديدا و انذارا بالعقاب الواقعي ، فان ذات العقاب و هو النار التي وعدها الله الذين كفروا انه اشد حرارة و أسوأ مصيرا.

و بمناسبة الحديث عن الاصنام التي تعبد من دون الله ، يتحدى الله الاصنام البشرية موجها اليها المقال بان ليس في امكانها خلق ذبابة واحدة حتى لو احتشدت كل القوى العظمى اليوم مثلا ( امريكا ، روسيا ، اوربا ، اليابان و اذنابهم ( مااستطاعوا اليه سبيلا.

انهم يعجزون عن صنع حشرة صغيرة كالذبابة ، و ان تسلبهم الذبابة شيئا ، فانهم أعجز من ان يستنقذوه منها ، بالرغم من ضعف قوتها " ضعف الطالب و المطلوب " اذن فلماذا الطغيان ، و لماذا عبادة هؤلاء الضعفاء ؟!

**بينات من الآيات**
**اختلاف الشريعة و وحدة المشرع**
] [67]لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه[

ذكــر المفسرون : ان لكل امة مناسك و طقوسا خاصة ، تختلف من امة الى أخرى ، و هذه الاختلافات لا تدل على اختلاف المشرع ، أو على اختلاف الشريعة الاسلامية التي أتى بها كل الانبياء و غاية ما في الامر هو ان الله الذي أوحى بشريعة نوح قد نسخ هذه الشريعة بشريعة ابراهيم ، ثم نسخ هذه الشريعة بشريعة موسى ، ثم بشريعة عيسى ، ثم نسخها بشريعة محمد (ص. (

هذا التفسير صحيح لكنه ليس كافيا ، فهناك أحكام مختلفة بالرغم من وحدة الرسالة و وحدة النبوة ، و هناك واجبات تختلف من فرد لآخر حسب احواله و ظروفه المكانية و الزمانية و المعاشية و غيرها ، و من باب اولى ان تنسحب هذه المسألة على الشعوب و الامم ، و المقياس الوحيد لتقدير هذه الظروف المختلفة هو وحي الله سبحانه ، و ما على الانسان الا الانصياع لمن له الخلق و الامر ، و ما دام الله هو رب الشرائع جميعا ، فلماذا الاختلاف اذن ؟! لنتوجه اذن لاصلاح ما بيننا حتى يعم السلام و الامن ربوع المعمورة.

و لعل الآية توحي بأن البحث عن جزئيات المناسك العبادية لا يجدي نفعا ، بللابد ان يكون الحديث حول اصل صدق الرسالة ، فمتى ما أيقن المرء ان الرسول يدعو الى الله عبر طريق مستقيم . فلا يجوز ان يجادل في الفروع.

و انه لماذا الصلاة الى الكعبة ، و ليس الى المسجد الاقصى ، و لماذا الصوم في شهر رمضــان ، و ليس في ايام عيد الفطر ، و لماذا لا يحرم الاسلام ما نهت عنه شريعة موسى ، و ما الى ذلك مما كان الكفار يجادلون فيه ، و يتخذونه ذريعة لجحودهم ، و مما لا يزال بعض انصاف المثقفين يتخذونه مادة للجدل العقيم ، و يبررون به فسقهم عن الدين و كفرهم به.

و أساسا كلما منعت البشر العصبية عن منهج سليم ، و لم تفلح ادلته في رده ، أخذ يناقش في الجزئيات التي لا علم له بها و التي لا يستطيع احد اقناع أحد فيها.

و لعلنا نستوحي من الآية : ان الامة الواحدة مهما اختلفت طرائق و شيعا فانها تقوم على اساس منسك واحد ، فالمنسك هو رمز مبدئية الامة و وحدتها ، فالمسلمون قد يختلفون في أي شيء الا في الصلاة الى الكعبة و الحج اليها و الصوم و .. و .. و المسيحيون يختلفون كذلك في كل شيء الا في بيت المقدس و مجموعة مناسك يتفقون عليها مثلا.

]فلا ينازعنك في الأمر[

انت لا تملك ايها الرسول سوى البلاغ و ليس لهولاء حق في ان ينازعوك أو يناقشوك فيما أمرك به الله ، خصوصا في المناسك ، و في هذا نهي حتمي عن الخوض في مثل هذا الجدل.

]و ادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم[

انك على هدى ، تعرف الغاية و تعرف ايضا الطريق المستقيم اليها ، فلا تلتفتالى جدلهم و نزاعهم ، و امعن في طريقك داعيا الى الله سبحانه.

] [68]و إن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون[

لا تحاول ان تورط نفسك في الجدال العقيم معهم ، بل اتركهم الى ربهم فهم مسؤولون امامه ، و ليسوا امامك الا بمقدار الدعوة و البلاغ.

] [69]الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ]اذا وضع الانسان الله مقياسا له و انه رقيب عليه ، فان الخلافات سوف تتبدد و تنتهي و لعل الآية تدل ايضا على ان هناك اختلافات لا تستدعي

الصراع ، بل ان الانسان هو الذي يسبغ على هذه الاختلافات الطبيعية لون العداء.

] [70]ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء و الأرض إن ذلك في كتاب ]ان الله يعلم كل ما يجري في السماء و الأرض ، و كل شيء عنده مكتوب في اللوح المحفوظ الـــذي يسميه القرآن هنا بالكتاب ، و هذان الامران - علم الله و تسجيله للاحداث - يمثلان موعظة بليغة للانسان اذا التفت اليهما جيدا ، حيث يراقب جميع اقواله و افعاله ، ومعتقداته ، فيعمل على اصلاح شؤونه ، و يبتعد عن كل انحراف يجرح فطرته.

]إن ذلك على الله يسير[

بالرغم من ان الاحصاء الدقيق في اللوح المحفوظ فوق تصورات البشر الا انه بالرغم من ذلك على الله سهل يسير.

ان الافعال تطبع آثارا لا تمحى في صحائف شتى ، لا يقرأها الا اصحابالعلم . و كلما زاد العلم تقدما كلما توغل في معرفة الاثار التي تخلفها الظواهر .. و أبرز مثل لذلك المرض فانه يخلف آثاره على كل جوارح الفرد . و على نظام دورته الدموية ، و شبكة غدده ، و افرازاتها ، و مختلف انسجة جسمه . الا ان علماء الطب يختلفون من عصر لعصر في قدرتهم على اكتشاف المرض من خلال تلك الاثار ، فمنهم من يكتشفها من النبض و دقات القلب ، أو من لون البشرة أو من خطوط الكف ، و منهم من يكتشفها بالموجات الكهربائية المنبعثة من حركة القلب أو الدماغ أو من تحليل الدم و الافرازات . و هكذا تجد ان التأثيرات مكتوبة على لوحة الطبيعة ، و انما الاختلاف في القدرة على قراءتها..

و هكذا كل اعمالنا تكتب على عشرات الالواح ، و تتجلى يوم القيامة امامنا فتعقل السنتنا عن الانكار .. الا فلتستعد لذلك اليوم الرهيب الذي تبلى فيه السرائر.

## ضعف الطالب و المطلوب

] [71]و يعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا[

اي انهم يعتقدون ان بامكانهم ان يفلتوا من قبضة الحق ، و من نطاق المسؤولية عبر عبـــادة غير الله التي ما انزل بها من سلطان ، فلم يعط اذنا صريحا بينا لهم بعبادتهـم.

]و ما ليس لهم به علم[

ان تتعبد بعلم هذه حجة قطعية و في غير هذه الحالة لابد ان تتعبد باتباع من تعرف يقينا ان اللـه جعلـه وليا عليك ، اما أن تتعبد بلا علم و لا شريعة ، فعبادتك باطلة ، و عملك هبـاء.

]و ما للظالمين من نصير[

اي ان هذه الاصنام لن تكون المنتصرة لهم من الله سبحانه اذا أخذهم ، فهذه الاصنام التي تعبد لن تخلص نفسها فكيف تخلص الآخرين.

] [72]و إذا تتلى عليهم ءاياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم ءاياتنا ]حينما يسمعون آيات الله تبدو على وجوههم آثار الاستنكار و الرفض ، عميقة و شديدة الى درجة يظن فيها الناظر انهم يهمون بالبطش بمن يتلون عليهم تلك الآيات ، و كأن هؤلاء لو لم تتلى عليهم هذه الآيات سيكونون في حل من القيام بمسؤولياتها.

]قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا و بئس المصير ]ان انحرافكم هذا يؤدي الى النار ، و اذا كان مجرد انذارهم بالنار لا يعجبهم و لا يستطيعون تحمله فياترى هل ان النار نفسها تعجبهم ، و يمكنهم احتمال حرها ؟!

] [73]يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له و إن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب و المطلوب ]كما هو ثابت علميا ان الذباب اذا أكل شيئا فانه يتحول بسرعة عبر عدة تفاعلات كيمياوية الى مواد أخرى تستفيد منها هذه الحشرة ، و يستحيل آنئذ اعادتها من جديد ، و هكذا يكون عجز البشر ظاهرا اذ انهم لا يقدرون على استعادة ما يأخذه الذباب عنهم ، اضافة الى انحجم الذبابة صغير ، بحيث لا تستطيع ادق آلالات ان تستخلص المواد من جوفها ، علما بأن المواد السكرية ، و الكربوهيدراتية و البروتينية تتكون من مادتين رئيسيتين هي : الاوكسجين و الكربون فاذا تحللت هذهالمواد في بطن الذبابة الى موادها الاولية ، آنئذ يستحيل على البشر ان يعيد العناصر الاولية الى مادة.

و أخيرا فالقرآن يؤكد - المرة تلو الاخرى - على ان الطاغوت لا قوة له الا في النفوس المريضة ، فقد يضخمه اتباعه حتى يصير عندهم ربهم الاعلى ، و قد يقزمونه حتى يصير احقر من الذبابة.

## هكذا يصطفي الله الدعاة اليه

## هدى من الآيات

في سياق الآيات التي جاءت في سورة الحج يذكرنا ربنا تعالى بأسمائه الحسنى التي لما عرفنا اسما جديدا منها كلما ازددنا ايمانا بالله و معرفة به و بما خلق ، و كلما ازداد الانسان معرفة بالخالق و المخلوق كلما كان اكثر استقامة و هدى.

ان المحور الاساسي الذي تلتقى فيه كل الخطوط ، هو توحيد الله و معرفة اسمائه الحسنى ، لذلك فان الآيات الاولى من هذا الدرس تؤكد مجددا على اسماء الله تبارك و تعالى ، ان من الواجب على العباد ان يعرفوا خالق هذا الكون ، و موجد هذه الحياة ، و لكنهم لم يقدروا الله حق قدره اذ عدلوه بخلقه.

ان الله ليس لا يقاس فقط بالانداد ، بل لا يقاس حتى بتلك القوى التي هي اعظم من الانداد كالملائكة و الرسل الا ان من الناس من جهل الله و لم يقدره حق قدره ، فقاسه بالطغاة فعبدهم ، و منهم من اشرك معه الملائكة فتوجه اليها ، و منهم من عدله برسله.

ان الله هو الذي يصطفي من الملائكة رسلا و من الناس لينقلوا شريعة الله و رسالته الى الناس ، و يقوما فيهم بأمره في الوقت الذي يحيط بهم سمعا و بصرا دون ان يستطيعوا التقول عليه سبحانه و اذا عرفنا الله معرفة حقيقية فان جوارحنا و جوانحنا تهفو الى عبادتهقربة له ، لان من يعرف الله سبحانه يتصل بنوره ، و من يتصل بنوره ينعكس ذلك على كيانه كله ، فيندفع الى مرضاة ربه بصورة عفوية.

فجوهر العبادة اذا المعرفة ، و اذا تمت المعرفة اتصلت روح الانسان بنور الله ، و تحركت جوارحه في طاعة الله بصورة عفوية ، لذلك يأمرنا الله بالركوع و السجود و فعل الخير ، ثم يأمرنا بحمل رسالة السماء الى الحياة.

ان الانسان الذي يجد حلاوة الايمان في قلبه و يعرف حقيقيته و فوائده الجليلة ، ينبغي له ان يندفع في توجيه الآخرين الى الايمان ، و بيان فوائده و منافعه لهم ، و كذلك يأمرنا سبحانه بالجهاد فيه حق الجهاد ، انك بقدر معرفتك بالله يكون جهادك و تضحيتك في سبيله ، لانك كلما ضحيت في سبيله و انت عارف به كلما شعرت بان تضحياتك اقل و احقر من مقام ربك الأعلى.

ثم يعدد ربنا سبحانه بعد ذلك نعمه علينا كمجتمع فيقول : ايها المسلمون انتم مجتمع فاضل ، اختاركم الله لتحملوا رسالته الى الناس جميعا ، فيجب ان تكونوا كذلك " ان الدين يسر لا عسر " ، "و ما جعل عليكم في الدين من حرج " و من ثم فانتممجتمع قائد لسائر المجتمعات مثلما كان الرسول قائدكم و اخيرا فان مجتمعكم يحمل تجربة جهادية منذ عهد ابراهيم (ع) قبل خمسة آلاف عام أو اكثر حيث ابتدأ المسيرة التوحيدية الجديدة في العالم ، فعليكم ان تقيموا الصلاة و تؤتوا الزكاة و تعتصموا بالله و تتمسكوا بحبله . ( كتاب الله و رسوله خلفائه بمعنى آخر شريعة الله و امام مؤيد من تلك الشريعة ) و آنئذ تكونون قد اخلصتم عبادتكم لله ، مولاكم و نصيركم " نعم المولى و نعم النصير. "

**بينات من الآيات**
**ما قدروا الله**
] [74]ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز[

ما قدروا الله حق قدره بان قاسوه بعباده ، ولم يعبدوه حق عبادته ، و كل الفساد و الضلال و الويلات انما نشأت بسبب عدم معرفة الله حقا.

ما هو الفرق بين القوة و العزة ؟

يبدو ان الفرق بين القوي و العزيز هو ان القوي يستخدم - بسبب أو آخر - قوته في السيطرة على الآخرين ، و لكنه ليس بعزيز ، اما اذا كان قويا و استخدم قوته و قدرته في الساحة الاجتماعية ، فآنئذ يسمى عزيزا اي مرهوب الجانب ، و الله سبحانه كذلك الا انه لا يقاس بخلقه فهو قوي مطلق القوة ، و عزيز يستخدم هذه القوة في تدبير شؤون الخلق ، فلا يتصور احد انه قادر على تحدي الله أو ان باستطاعته بعد ذلك ان يفلت من عقابه ، و عموما فان القوة و العزة توحيان بضرورة التقوى حيث يعاقب الله من لا يقدره حق قدره.

**رسل المسؤولية**
] [75]الله يصطفي من الملائكة رسلا و من الناس[

ان الله سبحانه و كما جرت سنته لا يعذب قوما من دون ان يرسل اليهم رسولا حتى و لو لم يقدروه حق قدره ، " و ما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " ، فالله و قبل كل شيء يصطفي رسلا من الملائكة و من أهل الارض ، فيرسل بالوحي هؤلاء الى هؤلاء ، فرسل الله في الارض هم رسل المسؤولية ، و هذه الآية توحي بان رسل الله سواء كانوا ملائكة او بشرا هم على درجات.

]ان الله سميع بصير[

و عنـــدما يصطفي سبحانه من الملائكة و من الناس رسلا فانه لا يتخلى عن عباده ، بل هو سميع بهم و بصير بما يعملون ، يدبر أمورهم ، و يسجل اعمالهم ، و يعلم ما في سرائرهم و ضمائرهم ، و ان اصطفاءه للرسل انما يتم بعلمه ، و بسمعه و بصره فلا يكون عبثا ، و لعلنا نستوحي من قوله سبحانه " و من الناس " ان الله يصطفي من المؤمنين من يحمل الرسالة ، فهناك الرسول ، و رسول الرسول ، و هكذا و دليلنا على هذه الفكرة قوله تعالى في آخر آية من هذا الدرس ، حين يتحدث عن المجتمع الاسلامي : " و جاهدوا في اللهحق جهاده هو اجتباكم و ما جعل عليكم في الدين من حرج " و آية أخرى يقول فيها سبحانه " :و ان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا امثالكم " فالله سبحانه يختار من سائـر عبيده ، من يحمل الكفاءة العلمية و العملية و القيادة ، و يحمله مسؤولية نقل رسالتـه.

[76]و الله سبحانه يحيط علما بمن يصطفيهم من الرسل فلا يقدرون على مخالفته و معصيته ، و نقل مالا يرضى من القول الى الناس و انه لضلال مبين ان نقيس ربنا بمن يجتبيهم من رسله الذين :

]يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم[

ان علم الله شامل لرسله ايضا ، فهو معهم و يعلم ما بين ايديهم و ما خلفهم.

]و إلى الله ترجع الأمور[

امور الانبياء و امور الناس ، و حينها يأخذ للمحسن من المسيء ، و يجازي المحسن باحسانه ، و السيء باساءته.

] [77]يا أيها الذين ءامنوا اركعوا و اسجدوا و اعبدوا ربكم و افعلواالخير لعلكم تفلحون[

من هذه الآية و ما بعدها يلخص الله السورة مجملة كما انه يذكر الخلاصة التي يريد طرحها.

هذه الآية تبين مراحل الايمان و هي:

- 1الخضوع ، و دليله الركوع لله.

- 2الخشوع بكل الجوارح ، و الشعور بالحقارة امام الله ، و دليلها السجود.

- 3استمرار الخضوع و الخشوع و الاستقامة عليهما ، و هذا هو معنى العبادة.

- 4العطاء المستمر سواء بالانفاق او العلاقات الحسنة او .. او .. ، و هذا معنى قوله : " و افعلوا الخير " .

و نتيجـــة هذه السلسلة من الأوامر هي سعادة الانسان ، و وصوله الى غاياته و تطلعاته ، و هو قوله : "لعلكم تفلحون. "

و هكذا جاء في الحديث المأثور عن الامام أمير المؤمنين في وصيته لابنه محمد بن الحنفية رضي الله عنه:

"يا بني لا تقل مالا تعلم ، بل لا تقل كلما تعلم ، فان الله تبارك و تعالى قد فرض على جوارحك كلها فرائض ، و اضاف بعد ذكر هذه الآية المباركة : فهذه فريضة جامعة واجبة على الجوارح " . (١)و عن الخير الذي أمرنا به في خاتمة الآية جاء في الحديث النبوي:

(1)نور الثقلين / ج ٣ -ص ٥٢٠

"رأس العقل بعد الايمان التودد الى الناس و اصطناع الخير الى كل بر و فاجر " . (١(

**الاجتباء و حق الجهاد**

] [78]و جاهدوا في الله حق جهاده[

هنالك علاقة بين الأمر بالجهاد و قوله سبحانه : " ما قدروا الله حق قدره " ، و هذه العلاقة هي انه بمقدار معرفتك بالله يكون جهادك في سبيله.

]هو اجتباكم[

أي اختاركم ، و يبدو هنا ان الاجتباء هو درجة اقل من الاصطفاء ، لان الله قال عن الرسل بانه يصطفيهم ، اما المؤمنين فيجتبيهم ، و ربما السبب ان الله يصطفي رسله بالغيب اما المؤمنين فانه يجتبيهم اذا ما توافرت فيهم الشروط المطلوبة و حسب السنن الجارية.

ان الايمان مستوى رفيع لا يصل اليه كل انسان ، فاذا ما وصل اليه فلابد ان يعرف ان الله قد وضع على عاتقه المسؤولية بعد ان اجتباه ، و الاجتباء لا يكون بالإخبار المباشر و لكن بالقذف في القلوب و الالهام.

من هنا جاء الحديث المأثور عن الامام الرضا (ع) حين سأله المأمون العباسي عن زيد بن علي (ع) فقال : كان زيد و الله ممن خوطب بهذه الآية : " و جاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم (1)(2) . " المصدر / ص ٥٢١

(2)المصدر / ص ٥٢٢

]و ما جعل عليكم في الدين من حرج[

احكام الاسلام احكام سهلة ، فالذين لا يصلون يتصورون ان الصلاة صعبة ، و لكن الذين يـؤدون الصلاة بخشوع لله فانهم ليس فقط يرونها سهلة ، بل يجدون فيها اللذة ايضا ، و قد يسر الاسلام كل العبادات فلم يجعل من الصلاة حركات رياضية صعبة مرهقة كتسلق الجبال انما جعلها خفيفة ، و كذلك فانه لم يجعل الصيام عملية تجويع متعبة ، و انما هي سويعات صبر و بعدها نعود الى ماكلنا و مشاربنا ، هذا من ناحية و من ناحية ثانية فان الاسلام يخفف بعض الاحكام في الحرج ، حيث لا يستطيع الانسان ان يؤدي الفرض كاملا.

جاء رجل الى الامام الصادق (ع) و قال : جرح اصبعي فوضعت عليه مرارة حتى يندمل الجرح ، فكيف اتوضا ؟ فقال الامام (ع) : هذا و امثاله يعرف من القرآن ، ان الله سبحانه و تعالى يقول : " و ما جعل عليكم في الدين من حرج " امسح عليه .

**صفات القائد**

]ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل[

ان هذا الدين له جذور تاريخية و مجد تليد ، ابتدأه ابوكم ابراهيم (ع. (

]و في هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم و تكونوا شهداء على الناس ]اي في هذا الدين الاسلامي تكون مسؤولية الرسول ، حيث من مهمة الرسول ان يصنع منكم قادة للاجيال و شهداء على تطبيق الرسالة ، و هذا المقطع من الآية يجسد لنا الطموحات التي يجب ان نسعى اليها ، فلا تجعل هدفك ان تكون فردا كسائرالناس ، بل اجعل هدفك ان تكون قائدا ، و شاهدا عليهم.

قد يسمى القائد في الاسلام إماما ، لانه اول ما يجب عليه تطبيق الدين فيؤمه الناس ، و اما سبب تسمية القائد بالشهيد فلانه يكون شاهدا على الناس في تطبيقهم للرسالة.

]فأقيموا الصلاة و ءاتوا الزكاة و اعتصموا بالله ]إن اهم صفات القيادي:

- 1اقامة الصلاة.

- 2ايتاء الزكاة.

- 3الاعتصام بالله و التمسك بحبله.

هذه الكلمات الثلاث هي احكام اجتماعية ، حتى الصلاة بالرغم من أنها علاقة بين الفرد و ربه الا أنها و خاصة الجمعة و الجماعة تركز الروح الاجتماعية ، و عموما فان اهم شرط يلتزم به القيادي هو تقوية ارتباطه بالله ، عبر اقامته لفرائضه ، اما الزكاة فواضح مردودها الاجتماعي ، من سد فقر المعوزين ، و الاحساس بآلامهم و .. و .. ، و الاعتصام بالله اي التمسك بحبله الذي مده لخلقه ، و هم ائمة الهدى و قادة اهل التقى .. و بتلخيص شديد فان صفات الانسان القيادي : اتصال روحي بالله ، و علاقة حسنة مع الناس ، و خط سليم.

]هو مولاكم فنعم المولى و نعم النصير[

هذا المقطع يفسر آية في سورة محمد (ص) و هي " ذلك بان الله مولى الذين آمنوا و ان الكافرين لا مولى لهم . "

ان الله هو مولانا الذي نتلقى منه الاوامر باعتزاز ، فنعم المولى هو الله اذ لم يكلفنا فوق طاقاتنا و لم يتركنا بدون هدى ، و نعم النصير ينصرنا على اعدائه و اعدائنا.

## سورة المؤمنون

بسم الله الرحمن الرحيم

### فضل السورة

عن النبي صلى الله عليه و آله انه قال:

))من قرأ سورة " المؤمنين " بشرته الملائكة بالروح و الريحان ، و ما تقر به عينه عند نزول ملك الموت )) (١. (

و عن الامام الحسين عليه السلام أنه قال:

))مـــن قرأ سورة " المؤمنين " ختم الله له بالسعادة ، اذا كان يدمن قراءتها في كل جمعة ، و كان منزله في الفردوس الاعلى مع النبيين و المرسلين (1)(2) (( مجمع البيان / ج ٧ - ص ٩٨

(2)نور الثقلين / ج ٣ -ص ٥٢٧

### الاطار العام

ما هو الاطار العام للسورة ؟

قد نجيب بسرعة : الاطار العام لسورة المؤمنون هو الايمان ، او صفات هذه الطائفة المتميزة من البشر و هم المؤمنون.

بلى و لكن يبقى السؤال عن علاقة موضوعات هذه السورة بهذا الاطار العام ؟ دعنا نذكر أولا موجزا منها :

- 1مراحل خلق الانسان ) الآيات : ١٦/١٢. (

- 2ان حركة الشمس ، و القمر و وجود المطر ، و الزرع ، و الثمرات ، و الانعام . كل ذلك يخدم حياة البشر ) الآيات ٢٢/١٧. (

- 3كذب قوم نوح بالرسل ، و كذلك قرون بعدهم كثيرون ، فاهلكهم اللهباستكبارهم . كما اهلك فرعون و ملأه حين كذبوا برسولهم موسى بن عمران )الآيات: ٤٨/٢٣. (

- 4و لقد اوى الرب مريم الصديقة و ابنها الكريم ربوة ، و أمر الرسل بأكل الطيبات ، و القيام بالاعمال الصالحة ) الآيات : ٥٢/٤٩. (

- 5لقد اغتر الكفار بالنعم الالهية فكانت عاقبتهم النار ( الآيات : ٥٦/٥٣. (

- 6و الصفات المثلى للمؤمنين ( الآيات : ٦٢/٥٧. (

- 7جزاء الكفار في الدنيا ) الآيات : ٩١/٦٣. (

- 8موقف النبي من ذلك الجزاء ( الآيات : ٩٨/٩٢. (

- 9عقاب الكفار في الآخرة ) الآيات : ١١٥/٩٩. (

- 10مشاهد من يوم القيامة ، و ثواب المؤمنين فيها ( الآيات : ١١٨/١١٦. (

و لعلنا نجد في الجواب التالي على هذا السؤال ، ليس فقط الرابط بين هذه الموضوعات و بين الاطار العام فيها ، بل و ايضا الرابط بين موضوعات سائر السور القرآنية الكريمة و بين الاطر العامة فيها ، و الجواب هو التالي ، ان القرآن ليس مجرد دعوة للاصلاح ، بل هو الاصلاح ذاته ، و ليس وصفة طبيب ، بل دواء للمريض ، و شفاء عاجل ، انه ضياء و نور و هدى.

أو ليست حقائق الايمان ظاهرة ، و شديدة الظهور ، أو ليس الله خالق السموات و الارض اكبر شهادة من كل شيء ؟!

فلمــاذا - اذا - لا يؤمن به اكثر الناس بالرغم من حرص اصحاب الرسالات على هدايتهم ؟!

لأن القلوب مريضة ، و العيون مصابة ، و في الاذان وقر ، إن ركام العقد ، و حجب الغفلة ، و سحب الكبر ، و الغرور ، و السخرية لا تدع انوار الحق تغمر القلوب.

و بالقرآن يعالج المؤمنون كل هذه الامراض ، و موضوعات السورة هذه تصب في هذا المجرى .. كيف ؟ بعد ان حدد الذكر ملامح التجمع المؤمن ، و بين انهم هم المفلحون ، ذكرنا بنفسه ، من خلال آياته في خلق الانسان ، أو ليس اساس الايمان معرفة الرب ؟! ثم عدد نعمه علينا ، و كيف أنها تحيط بالانسان ، و تهدينا الى ذلك التدبير الرشيد في الخلق ، و لكـــن أو ليست هذه الآيات ظاهرة ، و تشهد على وحدانية الرب ، من خلال وحدة التدبير ؟! بلى . اذا لماذا يكفر اكثر الناس بربهم ؟ لانهم مستكبرون ، و كيف نعالج الاستكبار ؟ انمابمعرفة عاقبة من استكبروا من قبل ، و قوم نوح أبرز شاهد ، حيث اغرقهم الله بالطوفان العظيم ، و حمل المؤمنين وحدهم في الفلك المشحون ، و هكذا عاد و ثمود ، و قرون متمادية ، حيث أتبع الرب بعضهم بعضا ، و جعلهم احاديث.

و هكذا استكبر الملأ من قوم فرعون لما ذكرهم موسى - عليه السلام - بربهم ، فأغرقهم الله في النيل ، و نجى بني اسرائيل من الغرق ، و انزل على موسى الكتاب فرقانا و ضياء.

ان انقاذ المؤمنين دليل رحمة الهية تخصهم ، بينما الشيطان يريد ان يغرينا بوساوسه التي منها ان الايمان يضر البشر . كلا .. فهذه مريم و ابنها البار ، يؤويهما الرب الى ربوة ذات قرار معين ، و يأمر الانبياء بأن يأكلوا من الطيبات ، ويعملوا صالحا ، و يعبدواربهم الواحد ، و لا يتفرقوا شيعا . الا ان موقف الكفار من النعم ،بل و من رسالات الله كان خاطئا . حيث تقطعوا امرهم بينهم زبرا . لماذا لانهم اغتروا بالنعم و فرحوا بها و زعموا ان ذلك دليل سلامة خطهم و هم لا يشعرون.

و من أبرز صفات المؤمنين : انهم لا يغترون بالنعم ، و لا بما يؤتون من الصدقات ، فما جزاء اولئك الا العذاب المباغت الذي ينزل بمترفيهم ، فاذا هم يجأرون ، و ذلك جزاء استكبارهم.

و يعالج القرآن الحكيم في هذا السياق (٥١ - ٧٧) سلسلة من الامراض التي تصيب القلب بسبب تواتر النعم ، و يعطي بصائر ينظر من خلالها المؤمنون الى الحياة ، و من نعم الله فيها ، فلا يزدادون بها الا ايمانا و تسليما.

ثم يعود و يذكرنا بنعم الله علينا (٧٨ - ٨٠) و يخص السياق جانبا هاما من دروس آخر السورة بالايمان بالآخرة ، لانه بذاته جزء من الايمان ، و في ذات الوقت ، مكمل للايمان بالله ، و شرط للايمان بالرسالات.

فالله يحيي و يميت ، و يدبر الحياة، و هو بالتالي قادر على أن يعيد الانسان بعدما كان ترابا و عظاما.

و يساعدنا الذكر الحكيم على تجاوز عقبات في طريق الايمان كالجهل ، و الغفلة ، و الفسق ، و التأثر بضلالات الغواة ( ٨٤ -٩٠. (

و من تلك العقبات الزعم بان لله شريكا - سبحانه و تعالى - و القرآن يذكرنا بسخافة هذا الزعم ( ٩٢/٩١ ) .

و لكي يتميز المؤمنون عن الكفار يأمر الله رسوله بان يستعيذ بالله من العذاب الذي ينزل على الظالمين ، و يأمره بالسيرة الحسنة ، و بالاستعاذة بالله من همزات الشياطين ، بل و حتى من مجرد حضورهم ( ٩٨/٩٣. (

و لعل كل ذلك يخدم حالة التميز المطلوبة بين المؤمن ، و المغوين الذين يسحرون الناس ، و لا يدعونهم يؤمنون بربهم الكريم.

و لابد ان نحذر عاقبة هؤلاء الذين يندمون عند نزول الموت بهم ، و يطلبون العودة الى الحياة حتى يصححوا مسيرتهم ، و يأتيهم الجواب : كلا .. بل سوف يبقون في البرزخ حتى ينفخ في الصور ، و آنئذ لا انساب بينهم ، ولا هم يتساءلون عنها ، و لعل الاعتماد على الانساب عقبة في طريق الايمان ( ٩٩ / 100 ) .

و يحذرنا الرب من الموازين . حيث يخسر الذين خفت موازينهم ، بينما يفلح المؤمنون الذين تثقل موازينهم ، و يبدو ان ذلك اعظم وسيلة لتربية النفس . حيث يسعى المؤمن للتخلص من النار التي تصيب اولئك الذين كذبوا بآيات الله ، و اعترفوا بشقائهم ، و طلبوا العودةالى الدنيا ، فرفض طلبهم و أسكتوا ، أو ليسوا كانوا يسخرون من عباد الله حين يدعون ربهم ، فنسوا ذكر الله ( بتلك السخرية ) ؟! فأولئك المؤمنون هم الفائزون بصبرهم. ( 102/111 )

و يبدو ان السياق يعالج - بعدئذ - حالة التسويف في النفس و التي هي الاخرى عقبة في طريق الايمان .

فاذا بسائل يقول : كم لبثتم في الدنيا ؟ فلا يعرفون حساب بقائهم ، و لكنهم يعتبرونه يوما أو بعض يوم ، بلى . لقد لبثوا قليلا في الدنيا ( بالقياس الى زمن الآخرة ) و لكنهم لم يعلموا ذلك و الا لما استهانوا بحياتهم الآخرة ( ١١٤/١١٢. (

و يعالج العبثية التي يزعم اصحابها ان الحياة بلا هدف ، و يذكرهم بأنهم سيرجعون الى ربهم للحساب ، و انه تعالى الرب الملك الحق ، فلا عبث و لا لعب ولا لهو في الخلق.

و يذكرنا الرب بالتوحيد ، و ان حساب المشركين عسير عند ربهم ، و انهم لا يفلحون ، و تنتهي السورة بفتح باب التوبة و الدعاء ، الى الله و هو ارحم الراحمين.

## قد افلح المؤمنون

### هدى من الآيات

تبين هذه الآيات ابرز صفات المؤمنين و التي تمتاز بانها سلوك متأصل في شخصيتهم ، و ليست مجرد اعمال عارضة ، والفرق بين السلوك و العمل هو:

- 1ان العمل يمارس حينا ، و يترك حينا ، بينما السلوك يبقى مستمرا مع اختلاف الظروف و الاحوال.

- 2ان السلوك نابع عن قناعة فكرية ، بينما العمل قد لا يكون كذلك ، فانه يخضع لمختلف النيات و

العوامل النفسية ، فلربما يصدر من شخص عمل ما في وقتين ، و لكن بنيتين متناقضتين ، فالصلاة تكون مرة عبادة لله و مرة اخرى رئاء الناس.

اما الصفات المثلى التي يتحلى بها المؤمنون فهي:

- 1الخشوع و هو الايمان حقا .

8 + 148

- 2الاعراض عن اللغو.

- 3العطاء ( الزكاة. (

- 4تحديد الشهوات.

- 5رعاية الأمانات و العهود .

- 6المحافظة على الفرائض و الحدود.

و لا شك ان هذه الصفات سوف تنتهي بصاحبها الى جنة الفردوس بفضل الله.

**بينات من الآيات**

]بسم الله الرحمن الرحيم[

ان فلاح المؤمنين و وصولهم الى سعادتهم يكون ( ببسم الله ) لا بذاتهم.

**صفات المؤمنين**

**- 1الخشوع لله**

[1/2]و الخشوع هو جذوة الايمان التي تلتهب في القلب ، و ينتشر شعاعها الى سائر انحاء السلوك ، فالايمان حقيقة هو الخشوع الذي يعني تسليم النفس الى ارادة الله من خلال الالتزام برسالته ، و اطاعة اوليائه ، فقد يصبح الانسان عالما بشيء و لكنه لا يؤمن به.
اذ الايمان ليس مجرد العلم ، بل المؤمن هو الذي تسلم نفسه للمعرفة ، و تخشع للحق.

و النفس الخاشعة لا تتكبر ، لانه لو وجد في قلب الانسان و لو بمقدار حبة الخردل فانه سيمنع الخشوع ، كما ان النفس الخاشعة ابعد ما تكون عن القساوة ، لأنالقساوة تجعل النفس كالصخرة ، لا ينبت عليها الزرع ، و لا تستقبل أمواج النور.

اذن الخشوع هي الصفة الاساسية التي يتحلى بها المؤمنون ، بل هو الايمان ذاته.

]قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون[

ان فلاح المؤمنين ، و نيلهم سعادتهم يكون بتأديتهم الصلاة بخشوع ، لان الخشوع يتجلى عند الصلاة اكثر من أي وقت آخر ، و لهذا كان الامام الحسن (ع) اذا توضأ لها اصفر لونه ، و تغيرت ملامحه حتى ينكره الذي يعرفه ، و قد أمر الدين بالخشوع القلبي دون الظاهري في الصلاة ، فقد جاء في الأثر عن رسول الله (ص) انه قال:

"ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق "و نهى الدين عن العبث أثناء الصلاة لانه

يتنافى و خشوع القلب . قال أمير المؤمنين (ع: (

"ليخشع الرجل في صلاته ، فانه من خشع قلبه لله عز و جل خشعت جوارحه ، فلا يعبث بشيء " (١ (
.

**- 2الاعراض عن اللغو**

[3]لان القلب المؤمن خاشع فهو يعي مسؤوليته ، او ليس يسلم للحق ، و يعرف أنه سيسأل عن كل صغيرة و كبيرة ، و يحاسب عليها ، و يعلم ان الحياة جد ، لا عبث فيها ، و لا لغوا بينما الذي لا يعرف ان وراء حياته جزاء ، و انه يجب ان يكيف حياته على هدى ذلك الجزاء، فانه يتخذ الحياة لهوا و لعبا.

(1)نور الثقلين / ج ٣ -ص ٥٢٨

]و الذين هم عن اللغو معرضون[

الذي يكون لديه مريض في حالة خطيرة لو مر على جماعة يلعبون فهل سيقف معهم ؟ كلا ..و هكذا حال المؤمن فان قلبه مهموم بأهدافه و مسؤولياته في الحياة ، مما يجعله يترفع عن صغائرها و توافهها . و حتى لو جاءه اللغو يسعى فانه لا يعيره أي اهتمام ، و لا يقول القرآن عنهم : انهم لا يفتشون عن اللغو ، بل قال " عن اللغو معرضون " اي لو حاول احد ان يؤثر عليهم ، فهم لا يتأثرون به و بلغوه.

و قـد فسر اللغو في كلمات ائمة اهل البيت (ع (بالاصغاء الى مالا يحل الاصغاء له ، مما يشمل الفحش ، و الغيبة ، و الخوض في آيات الله.

و جاء في حديث مأثور عن ابي عبد الله الصادق (ع) في تفسير الآية:

"ان يتقول الرجل عليك بالباطل ، أو يأتيك بما ليس فيك فتعرض عنه لله "و جاء في حديث آخر تفسير اللغو بالغناء ، و الملاهي ، و فسر في حديث آخر بالاستماع الى القصاص ، اما الامام أمير المؤمنين (ع) فيقول:

"كل قول ليس فيه لله ذكر فهو لغو " (١(

**-العطاء**

] [4]و الذين هم للزكاة فاعلون[

و الزكاة التي يذكرها القرآن هنا ، ليست مجرد العشر الذي يعطيه المسلم على تسعة اشياء هي الغلاة الاربع ، و الانعام الثلاث ، و النقدين ، و انما كل زكاة ،(١) المصدر / ص ٥٢٩

8 + 151

و زكاة كل شيء بحسبه ، فزكاة العلم نشره ، و زكاة الجاه بذله ، و زكاة المال انفاقه ، و زكاة الصحة النشاط.

ان نظرة المؤمنين الى الحياة تنبع من خشوعهم للحق المتمثل في رسالات ربهم ، فلانهم خاشعون لله يعملون بشرائعه ، و يشكرون ربهم على نعمائه بالإنفاق ، لانهم يرون كل نعمة منه ، و كلمة " فاعلون " تختلف عن معطون . اذ توحي باستمرار الانفاق ، و انهسلوك لا حالة طارئة ، اي ان فعلهم و عملهم هو الزكاة ، و الواقع ان الزكاة قرينة الصلاة في القرآن دائما ، و لا تقبل الصلاة الا بها ، و قد أكد الاسلام عليها ، و جاء في الحديث عن الامام الصادق (ع: (

"من منع قيراطا من الزكاة فليس هو بمؤمن ، و لا مسلم ، و لا كرامة " (١(

**- 4تحديد و توجيه الشهوات**

[5]لقد خلق الله الانسان مزودا بشتى الغرائز ، و ليس ذلك الا ليستفيد منها ، و لكن بالشكل المناسب ، و المؤمنون وحدهم الذين يستثمرونها لصالحهم ، لانهم يهيمنون على أنفسهم ، و يكبحون جماح الشهوات بالخشوع و التسليم للحق .

]و الذين هم لفروجهم حافظون [

و قد يعني الحفظ هنا بالاضافة للالتزام بالشريعة ، و توجيه الغريزة وفقها ، الحفاظ على فرج الانسان من الناحية الصحية ايضا ، و ذلك بعدم الافراط في الشهوة ، و الالتزام بالمنافذ الشرعية لها.

] [6]إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم[

(1)المصدر / ص ٥٢٩

من الإماء.

]فإنهم غير ملومين[

اي غير مؤاخذين عند الله ، لانهم يصرفون شهواتهم في محلها المناسب ، و لعل في الآية اشارة الى خطأ الابتعاد كليا عن الشهوات ، و ان وساوس الشيطان هي التي تزرع اللوم في افئدة البعض اذا مارسوا الشهوات بقدرها ، و على المؤمن ألا يأبه بها.

] [7]فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون[

الذيــن يستحقون الجزاء في الدنيا بالحدود الشرعية ، و في الآخرة بالعذاب المهين ، و العادي أو المعتدي : الذي يتجاوز الحدود.

و في الآية بيان فساد كل استغلال للشهوة في غير موردها مثل استثارة الشهوة بالنظر الى الاجنبية ، و الصورة الخليعة ، و الأفلام الجنسية ، أو باستماع قصص الغرام.

اما الشذوذ الجنسي ، و العادة السرية ( الاستمناء ) ، و نكاح البهائم ، فان الآية تنطق بحرمتها صراحة.

و جاء في الحديث : عن أمير المؤمنين - عليه السلام: -

"ابعد ما يكون العبد من الله اذا كان همه فرجه و بطنه "و عنه ايضا:

"تحل الفروج بثلاثة وجوه : نكاح بميراث ، و نكاح بلا ميراث ، و نكاح بملك يمين " (١)(١) المصدر / ص ٥٣٠ – 531

**- 5اداء الأمانات و العهود**

[8]و علاقات المؤمنين مع الناس قائمة على أساس الالتزام و المسؤولية ، و ليس اللامبالاة ، فاذا اخذوا شيئا من أحد تحول في نظرهم الى كرامة ، تتضرر شخصيتهم لو لم يردوه إليهم ، و اكثر من هذا الوازع يدفعهم لرده الخشوع و الايمان خوفا من الله . دافع انسانيو دافع ديني ، لذلك يرعون الامانة و العهد.

و العهد و الامانة هما شيء واحد ، فالانسان مسؤول امام الآخرين فيما يأخذ و فيما يقول.

]و الذين هم لأماناتهم و عهدهم راعون[

و التعبير في هذه الآية دقيق جدا حيث استخدم القرآن كلمة " راعون " فلم يقل : ردوا الامانة و ذلك لسببين:

الاول : حتـــى تشمل الكلمتين العهد و الامانة ، فالعهد لا يرد لانه شيء معنوي لا مـادي.

الثاني :كلمة " راعون " ادق حتى في موضوع الأمانة من كلمة ( الرد ) اذ تبين حرص المؤمنين على أموال الآخرين ، فليس همهم ان ترد الامانة بأية صورة ، و انما يظلون يرعونها و يحافظون عليها ربما اكثر من ممتلكاتهم الشخصية حتى تسلم الى صاحبها ، بينما نجد ان اكثر الناس يكون حفاظهم على ممتلكاتهم الشخصية أشد من ممتلكات غيرهم.

و هكذا يرعون العهد بالثبات عليه ، و تأكيد الالتزام به ، و من أعظم العهود التي يرعاها المؤمنون حق رعايتها ، عهد الولاية . حيث يؤدونها الى اهلها ، و قد جاء في احاديث آل البيت - عليهم السلام - تفسير العهد بالولاية.

## - 6المحافظة على الفرائض و الحدود

[9]بعد تبيان هذه المجموعة من الصفات يذكرنا القرآن باهمية المحافظة على الصلاة ، و ربما تختلف الصلاة التي يذكرها في أول الصفات عن هذه التي في آخرها ، فبينما الخشوع في الصلاة يعني في ذات الصلاة ، و هو اصل الايمان و حقيقته ، اما المحافظة على الصلاة فهي المحافظة على حدودها ، و هذا يوضح ما للصلاة من انعكاس على جميع أبعاد الحياة لدى الفرد ، فأي انحراف في اي بعد يؤثر على صلاته ، و هكذا تعني المحافظة عليها الالتزام بسائر الحدود الشرعية ، و المؤمنون لا يتهاونون في الاحكام الشرعية بحدودها ، و شرائطها ،باسم جوهرها . فلا يتركون الصلاة مثلا بحجة ان الخشوع هو الاصل فيها ، فاذا تحقق فلا أهمية للركوع و السجود ، كما يتصور ذلك بعض المتصوفة ، اذ تراهم لا يحترمون الحدود الشرعية بزعم انها وسائل للوصول الى الحق ، و انهم يصلون اليه عبر وسائل اخرى ، و انهم اذابلغوا الحق و اتصلوا به سقطت عنهم التكاليف لان الله يقول : " و اعبد ربك حتى يأتيك اليقين " و هم - في زعمهم - قد أوتوا اليقين.

كلا .. المؤمنون حقا هم المحافظون على حدود الصلاة ، و لكنهم لا يلتزمون بالحدود فقط بعيدا عن جوهر الصلاة ، و سائر العبادات ، فهم من جهة في صلاتهم خاشعون مراعون لجوهرها ، و هم من جهة اخرى على صلواتهم يحافظون ، و يراعون حدودها.

]و الذين هم على صلواتهم يحافظون[

وراثة الفردوس:

[ 10/11 ]لماذا يؤمن الانسان ؟

لأنه يعرف ان ايمانه سينتهي به الى جنة عرضها كعرض السماوات و الأرض ، و لهذا يأتي الحديث بعد هذه الصفات عن الجنة.

]أولئك هم الوارثون[

و لهذه الآية معنيان:

الأول :ما جاء في الأحاديث من ان لكل انسان بيتين . احدهما في الجنة ، و الآخر في النار ، فمن اصبح من اهل النار ورث المتقون بيته في الجنة ، فقد روي عن النبي (ص: (

"ما منكم من احد الا له منزلان ، منزل في الجنة ، و منزل في النار ، فان مات و دخل النار ، ورث اهل الجنة منزله " (١)الثاني : انهم يرثون الفردوس و هي أعلى مراتب الجنة من دون عمل يذكر ، الا انتسابه للجنة ، كالذي يرث مال أبيه لا بعمله و كده ، بل لانتسابة اليه.

و الله سبحانه و تعالى يريد من الانسان ان يتصل بسبب الى الجنة ، حتى اذا مات ورثها.

]الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون[

(1)المصدر / ص ٥٣٢

**بينات من الآيات**

[12]اذا عرف الانسان ربه حينئذ يكون اتصاله به أسمى من ذلك الذي يؤمن خوفا من النار أو رغبة في الجنة ، فالايمان الحق انما هو الذي يكون منطلقة المعرفة و القناعة كايمان علي (ع) و الذي كان يقول عنه:

"الهي ما عبدتك حين عبدتك خوفا من نارك ، و لا طمعا في جنتك ، و انما وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك " .

و السبيل الى المعرفة بالله هو:

١- **التفكر في النفس**

و من هذا المنطلق يعرف الله الانسان حقيقته:

"و من عرف نفسه فقد عرف ربه. "

فيقول:

]و لقد خلقنا الانسان من سلالة من طين[

فالانسان ينسل من طين الارض انسلالا ، و من الطين يحوله الله الى نطفة.

] [13]ثم جعلناه نطفة في قرار مكين[

في صلب الأب أولا ، و في رحم الأم ثانيا ، و النطفة هي الماء القليل.

ان التفكر في خلق الله يهدينا الى معرفة بعض اسماء الله الحسنى ، كيف خلق الله مـن الطين الميت نطفة حية ، و كيف أودعها من صلب الى رحم في ذلك الموقع الآمن ، و امن له النمو حتى أصبح بشرا سويا ، ثم ألهمه العقل ، و سخرله الاشياء سبحانه.

و يزعمون انها الصدفة ، و هل يمكن ان تنبثق خلية واحدة بالصدفة ؟! يقول بعضهم : ان هذا الزعم يشبه القول ، بان انفجارا في المطبعة ، سبب ( صدفة ) صدور الموسوعة البريطانية ، بكل ما فيها من علوم ! و يقول عالم غربي آخر ان تطور الخلية الحية بالصدفة يشبه القصة الخيالية التالية:

)ان رجلا كان يعيش على كوكب الارض ، ضمن المجموعة الشمسية ، ضمن مجرتنا ، و كان

بجـانب مجرتنا مجرة اخرى ، و في احدى المجموعات الشمسية ، في احدى الكــواكب ، و في احد الاقاليم نهر به سمكة ، فحدث صدفة ان اطلق هذا الرجل طلقة ، فطــارت من كوكبنا متخطيةمجموعتنا الشمسية ، متخطية مجرتنا ، لتدخل في المجرة التالية ، من المجموعة الشمسية المعينة ، في ذلك الكوكب ، لذلك الاقليم ، في ذلك النهر ، لتصيب الطلقة رأس السمكة!! (

] [14]ثم خلقنا النطفة علقة [

اي ان النطفة صارت نطفتين من الأب و الأم ، فتعلقتا ببعضهما و أصبحتا علقة.

]فخلقنا العلقة مضغة[

و المضغة هي مقدار ما يمضغ من اللحم.

]فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ]و يلاحظ ان في الآيات ( ١٢-١٤ ) سبعة أفعال تبين دور الارادة الالهية في التحولات التي يمر بها الانسان من كونه طينا حتى يصير بشرا سويا ، و هي ( خلقنا ، جعلناه ، خلقنا ، فخلقنا ، فخلقنا ، فكسونا ، أنشأنا ) و ذلك حتى لا يتصور الانسان ان القانون الطبيعيهو الذي يخلق ، كلا .. بل الله هو المهيمن و المدبر من فوق القانون " و ما كنا عن الخلق غافلين. "

من هنا نقول بان امور الانسان بيد الله ، فهو يخضع لتدبيره تكوينيا ، فكيف لا يخضع لتدبيره تشريعيا و سلوكيا ؟! و ثمة ملاحظة هامة هي : ان الله في كل مراحل الخلق لم يقل " تبارك الله " الا في المرحلة الاخيرة ، اذ اعطى فيها الانسان العقل ، و هنا يجب ان نجل صاحب هذا الفضل و نقول " تبارك الله احسن الخالقين. "

] [16 - 15]ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ]هكذا ينقلنا القرآن من معرفة النفس ، و تطورات الخلق الى قدرة الله التي لا يعجزها شيء ، و من قدرة الله الى البعث بعد النشور ، و بالتالي الى المسؤولية ، و هكذا نرى ان منهج القرآن هو التذكرة بالحقائق العلمية من أجل أغناء وعي الانسانبالحقائق لكي يحس بدوره في هذا الكون.

٢- **التفكر في الكون**

] [17]و لقد خلقنا فوقكم سبع طرائق[

سبع سموات لكل واحدة منها طريقتها ، و فلكها ، و طبيعة الخلق عليها ، و حولها.

ماذا تعني الطرائق هذه ؟ هل في السموات السبع ، ام طرقها ؟ و ما هي السموات الســبــع هل هي سبعة أغلفة لهذا الكوكب تحافظ عليه ؟ أم هي سبع كرات ؟ ام سبع مجرات ؟ ام سبعة عوالم ؟ تقع كل المجرات التي عرفها او سوف يعرفها البشر في المستقبل ضمن عالم واحد منها فقط ، و لا يعلم الا الله و من ارتضاه لسره ماذا في العوالم الاخرى ؟.

المهم ان دقة خلق الله ، ترى في النطفة كما في السموات ، و تناغم الخلق بين النطفة و السموات ، دليل فطري على وحدة التقدير و التدبير - سبحان الله! -

]و ما كنا عن الخلق غافلين [

فالله خلق السموات ، و هو يدبرها ، و يهيمن عليها ، و هذه سنته في الخلق جميعا ، لا كما يــدعي اليهود : انه خلق الكون ثم تركه هكذا فهو - تعالى - و ان جعل للحياة سننا ، و لكنه هو الذي يجريها كما يشاء كيف يشاء.

[18]و تتجلى هيمنته على السنن الجارية ، في حكمته البالغة ، فالمطر لا ينزل صدفة و بدون

حساب ، انما ينزل من السماء لمصلحة الارض و احيائها.

]و أنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض[

المطر الذي ينزل من السماء يكون بقدر حاجة الارض حالا و مستقبلا ، فلو ان البحار تبخرت جميعا ، و تحولت الى سحاب ، ثم الى مطر لحدثت الفيضانات و اهلكت الزرع و الضرع ، كما فعل طوفان نوح (ع) ، و على العكس من ذلك لو صارت الامطار شحيحة ، لا تكفي النــاس لماتوا عطشا ، و لكن الذي خلق حاجات الانسان خلق الى جانبها أشياء بقدرها ، فأودع في الأرض مخازن تحفظ مياه الشتاء للصيف.

و الذي شاهد المخازن تحت الجبال ( كمغازة جعيتا في لبنان ) يعرف كيف ان الله جعل في رحم هذه الجبال مخازن ، تستقبل مطر الشتاء ، ليتفجر نهرا طوال الصيف.

و لكن هل تعني هذه الحقيقة العلمية ان المطر بعيد عن ارادة الله ؟ كلا..

]و إنا على ذهاب به لقادرون [

و كمثال على ذهاب الله بالامطار ، ما يقوله الخبراء عن الصحراء الكبرى في افريقيا ، من انها كانت في يوم ما مزروعة و معمورة ، بسبب هطول الامطار عليها ، اما الان فنادرا ما تتلبد سماؤها بالغيوم ، و يداعب المطر حبات الرمال فيها.

[19]بعد ان ذكر الله بان المطر تحت إرادته ، ينزله ، و يذهب به متى يشاء ، عاد السياق يوضح بعض منافع الماء و التي من اهمها و أكبرها أثره في الزراعة ، و ذلك حتى لا يصاب الانسان بالغرور فيتكبر عن الحمد حين يرى الخيرات.

]فأنشأنا لكم به جنات من نخيل و أعناب لكم فيها فواكه كثيرة و منها تأكلون ]فبالاضافة الى الأكل الذي يحصل عليه الانسان من الجنات و البساتين ، هناكنعم اخرى في الاشجار ، أو ليست الغابات و المزارع تستمطر السماء ، و تزيد من قدرة الارض على تخزين المياه بسبب تكون الاحواض تحتها ، و توفر لحوم الطيور و غذاء الانعام ، و تمنع زحف الصحراء برمالها الخطيرة على المدن ، كما تحجز الرياح السامة ، و تلطف الهواء في الصيف و الشتاء و هي - بالاضافة الى كل ذلك - تعتبر المواد الاولية للصناعات المختلفة . و كان الانسان يعتمد عليها في بناء المساكن ، و تهيئة الملابس ، و تعبيد الطرق ، و بناء الجسور ، و ما أشبه ؟!

و بعد كل ذلك تزرع المساحات الخضراء البهجة في افئدة الصغار و الكبار.

هذا خلق الله ، فكيف ترانا نشكره ؟!

] [20]و شجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن و صبغ للآكلين ]الشجرة هي الزيتون ، و الطور الجبل الصغير ، و سيناء اسم للجبل الذي فيه حقل الزيتون ، و كل مكان تزرع فيه اشجار الزيتون يسمى في اللغة العربية ( سيناء ) ، و هي شجرة نافعة ، من فوائدها : انها تعطي الدهن ، و تشكل غذاءا جيدا " صبغ للاكلين . "

و في هذه الآيات يذكر الله بثلاث ثمار هي ( التمر ، و العنب ، و الزيتون ) و هي في الواقع انفع الثمار للانسان و فيها حاجاته المختلفة.

[21]و كما الفواكه نجد انه الحيوانات ايضا خلقت بشكل يمكننا الاستفادة منها ، و تسخيرها.

]و إن لكم في الأنعام لعبرة [

و العبرة كلمة مأخوذة من العبور ، و يعني ان لا نقف على حدود الاشياء ، بلنتحول منها الى دلالاتها ، فاذا رأينا الابل يتحمل العطش و الجوع مدة طويلة ، يساعده ذلك على حملنا في المفاوز المترامية الاطراف ، و ان له من المنافع الشيء الكثير ، فلا يجب علينا ان نقف اجلالا لهذا الابل او نعبده ، بل يجب علينا ان نكبر خالقه.

]نسقيكم مما في بطونها[

من حليبها و مشتقاته.

]و لكم فيها منافع كثيرة[

من وبرها ، و صوفها ، و جلدها و .. و..

]و منها تأكلون[

لحمها و شحمها.

[22]و بعضها كالجمال ، و الحمير ، و البغال ، و الخيول تصلح ان تكون وسيلة للتنقل عليها.

]و عليها و على الفلك تحملون[

و هكذا نجد الحياة مليئة بنعم الله ، فالدواب تحملنا في البر ، حتى اذا وصلنا الى البحر وجدنا السفينة تحملنا في عرضه.

و كلمة اخيرة:

ان القلب الطاهر ، و الاذن الواعية ، و العين البصيرة ، شرط لاستقبال نور المعرفة الالهية ، المنبثق من آياته الظاهرة ، فانى نظرت ، رأيت تناسقا ، و تنظيما ، و تدبيرا ،و رأيت عمق الصلة بين المخلوقات ، و بالذات بين الانسان ، و سائر ما خلق له.

انه يخلق من سلالة من طين ، و تقيده يد الرب في تطوراته ، ثم اذا خرج الى الدنيا وجد أمامه كل حاجاته . وجد السماء سقفا محفوظا ، و وجد الماء يهبط له منها ، و هو اصل كـــل خير ، و وجد الزراعة تتناسب و حاجاته المختلفة ، و وجد الحيوانات مسخرة له . افلايدعوه ذلك الى الخضوع و التسليم لرب العالمين ؟!

## ربي انصرني بما كذبون

## هدى من الآيات

في سياق الحديث عن الايمان في هذه السورة يحدثنا هذا الدرس عن عاقبة الذين استكبروا على الله ، و لم يؤمنوا بالرسالة الإلهية او من يمثلها ، و يأتي هذا الدرس بعد تذكير القرآن بآيات الله ، بهدف تذليل العقبات التي تعترض طريق الايمان بالله ، و ابرزها الاستكبار ، و كان يمثل الولاية في الارض آنئذ رسول الله نوح (ع) حيث استكبر قومه فلم يسمعوا له ، زاعمين بانه مادام بشرا ، فلا يمكن الخضوع له ، و علوا في الارض ، فماذا كانت عاقبتهم ؟

لقد أمـــر الله نوحا ان يصنع الفلك ، فلما اكتملت جرى الطوفان ، فأنجى الله من في السفينة ، و اغرق الباقين ، و قد تجلى علم الله ، و قدرته على يد نوح في الأرض ، و هذا يكفي دليلا على انه يمثل ولاية الله الحق.

اذن لا داعي للاستكبار على من يمثل هذه الولاية ، و لا نعتقد يوما ان رفضنا له سيغير من الواقع شيئا . اذ سيبقى وليا قبلنا أم رفضنا ، و اذا لم نقبل بولايته تشريعيابالطوع . فسنقبلها

تكوينيا بالاكراه ، و لنا في الماضين عبرة.

ان ولاية نوح لم تكن ذاتية ، و انما كانت بأمر الله و قدرته ، لذلك دعا ربه ان ينزله منزلا مباركا . فيه الخير و الامان.

و تكررت قصة نوح مع آخرين بعدهم ، اذ لم يتعظوا بمن قبلهم - و هذه سنة الهية عامـــة - فقد اهلكهم الله لانهم كذبوا بالرسول ، و استكبروا على الرسالة ، و الاسباب هــي:

- 1انهـــم كانوا ينظرون للرسول نظرة مادية . حيث أرادوه صاحب مال و منصب ، أما ان يكون مثلهم ، فقد زعموا انهم سوف يخسرون لو اطاعوه ، و غاب عنهم ان القيمة الحقيقية للانسان هي بما يملك من قيم و سلوك صالح ، و بالتالي اذن الله.

- 2كانت تلك عقبة الاستكبار ، و العقبة الثانية في طريق الايمان بالرسالات ، الريب فـــي البعث ، فقالوا : انه يعدكم بالنشور بعد ان تموتوا ، و تصبحوا ترابا ، و عظاما . انه وعد بعيد ، ثم قالوا : بل هو وعد كاذب ، و انما هي الحياة الدنيا نموت و نحيا فيها.

و تمادوا في غيهم ، فكذبوه ، و قالوا : انه مفتر على الله ، و عقدوا العزم على عدم الايمان به أبدا.

لقد كان التكذيب عظيما على قلب نوح (ع) ذلك العبد الصالح ، الذي غمرت معرفة الرب ارجاء قلبه الخاشع ، و لم يجد لنفسه من نفسه قوة ، فدعا ربه قائلا " : رب انصرني بما كذبون. "

بينات من الآيات:

[23]في آيات آنفة راينا نعم الله على البشر ، و لكن لماذا نجد الانسان بالرغممن تجلي الله له في كل شيء ، يكفر به ، و يجعل بينه وبين معرفته حجبا زائفة ، معرضا عن آياته تعالى.

]و لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ]ان خضوع الانسان لقوى اخرى هو الذي يبعده عن معرفة الله ، و الطاعة له ، و الآية تبين مشكلة قوم نوح انهم كانوا يخضعون لقوى أخرى ، و تتعرض الآية التالية الى اثنتين منها:

[24]الاولى : تقديس الذات الذي يقودهم الى التكبر على الحق.

]فقال الملؤا الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد ان يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ]و لو كان الانسان يجعل الحق هو المقياس لا ذاته ، لما همه لمن يخضع مادام يمثل الحق رسالة و سلوكا.

الثانية : تقليد الآباء.

]ما سمعنا بهذا في ءابائنا الأولين[

[25]و هذان السببان هما اللذان حملاهم على اتهام نبي الله نوح (ع) بالجنون.

]إن هو الا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين[

ان المعـــرفة قريبة من الانسان ، و ميسرة له ، و لكنه قد يبتلي بالكبر أو التقليد الاعمى ، فيكون ابعد ما يكون عن الايمان و المعرفة ، و حتى نخلق الايمان في نفوسنا يلزم ان ننبذ الكبر ، و ان نغير طائفة من عاداتنا و تقاليدنا السلبية التي درج عليهاالأولون ، بل و حتى بعض العادات الجيدة قد لا يكون الأنسب توارثها تباعا لاختلاف الظروف بل الأنسب تطويرها أو تقديم غيرها

عليها.

و بقي شيء لابد من ذكره من خلال قصة نوح و قومه هو : انهم حينما ارادوا انكار القيادة الالهية العادلة انكروا الله من الأصل ، و لكي يكتمل الايمان لابد من الالتزام بقيادة الهية ، و لذلك قال رسول الله (ص: (

"من مات و لم يعرف امام زمانه ، فقد مات ميتة جاهلية "و صدق الامام علي (ع) اذ قال :

"هلك من لم يكن له حكيم يرشده"

و الذين ينكرون القيادة الالهية منحرفون ، و عليهم ان يشككوا في ايمانهم ، لانهم لو كانوا مؤمنين حقا لخضعوا لمن وضعه الله عليهم ، و لبرمجوا حياتهم حسب ما أمر الله ، لا حسب الالتزام بالماضي ، فالاصالة جيدة و لكن ليس على حساب الابداع في حدود موضوعية حقة.

] [26]قال رب انصرني بما كذبون[

ان اطمئنان الرسول بحتمية نصره ، و تأييده من قبل الله هو الذي يدفعه نحو هذا الدعاء ، و ان دل هذا على شيء فانما يدل على الايمان المطلق بالله لدى الرسل و الانبياء و الاولياء.

] [27]حينما احس نوح من قومه الكفر و الجحود ، طلب من الله النصر ليتبين لهم انه بالفعل يمثل الولاية الالهية ، فجاءه النصر ، و هذا يدل على انه كلما ازدادت الضغوط على الرسالي و هو يؤدي مسؤوليته في الاصلاح كلما قرب النصر ، و نصر الله قريب ممن لم تنصرهالعوامل الذاتية ، و المادية شرط ان يبذل قصارى جهده.

ان نصر الله لا يأتي دائما على هيئة صيحات و زلازل ، بل يجري قسم منه على يد المؤمنين ، أو لم يكن الرب الذي أمر السماء و الارض ان تتفجر طوفانا هائلا في لحظات بقادر على ان يخلق لنوح سفينة ، ثم يأمره بالصعود ؟ بلى . و لكنه أراد ان يشارك هو في نجاة نفسهو من آمن معه .

و في الاحاديث انه بعد ان دعا نوح ربه جاءه جبرائيل بنواة تمر ، و قال له : نجاتك في هذه ، ازرعها ، فزرعها حتى صارت نخلا ، و بعد ثلاثن سنة أمره ان يأكل الثمر و يزرع النوى ، و هكذا مرة ثانية ، ثم أمره ان يقطع جذوع النخل و يصنع السفينة ، و عندما بدأ بصنعها كان الله يرعاه بعلمه ، و قدرته ، و كان قومه يستهزؤون به عندما يمرون عليه ، لانه كان يصنع السفينة في بلاد لا بحر فيها.

]فأوحينا إليه إن اصنع الفلك بأعيننا و وحينا[

نحن قريبون منك ننظر اليك ، و نساعدك.

و أما قولنا : تحت عين الله فيعني تحت رعايته و ظله ، أما الوحي : فاشارة الى العلم و المعرفة التي زود الله بها نوحا (ع. (

]فإذا جاء أمرنا و فار التنور[

روي في نور الثقلين " انه قيل لنوح : اذا رايت الماء يفور من التنور ، فاركب انت ومن معك في السفينة ، فلما نبع الماء أخبرته امرأته فركب " . (١)و لعل التنور كان يوضع في مكان مرتفع ، فاذا فار ماء دل على ان أمرا خارقا للقوانين الطبيعية قد وقع ، و لذلك جعل ذلك علامة لنوح (ع) ببدء الطوفان.

]فاسلك فيها من كل زوجين اثنين و أهلك الا من سبق عليه(١) نور الثقلين / ج ٣ -ص ٥٤٣

القول منهم[

فانهم سيغرقون.

]و لا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون[

و هذه اشارة لحب نوح الى قومه ، و كيف انه كان يأمل هدايتهم ، و لكن الله نهاه ان يخاطبه في الظالمين.

] [28]فإذا استويت أنت و من معك على الفلك[

أي السفينة.

]فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين[

حينما يأتي نصر الله يجب ان نشكره ، و نذكر ان النصر ليست من ذواتنا ، و ذلك حتى لا نصاب بالغرور ، و قد امر الله نوحا ان يحمده حتى لا يتصور قومه انه إله ، و انه هو الذي أنقذهم.

] [29]و قل رب أنزلني منزلا مباركا و أنت خير المنزلين ]فلا تفكر ان حاجتك الى الله قد انتهت ، فانت تحتاجه في كل لحظة ، فقد ترسوا هذه السفينة في منطقة قاحلة ، لا زرع فيها ، و لا ضرع ، و كلمة البركة تدل عى ما تدل عليه كلمتي التكامل و التنامي باضافة مفاهيم و ايحاءات أخرى ، و حينما ندعوا الله ان يبارك لنافي شيء ، و يكمل حياتنا به ، فلندعه ان يعطينا التكامل في أبعاد الحياة.

و سؤال نوح ربه بالمنزل المبارك دعاء بان لا يجعل نزوله على الارض نهاية لنعم الله عليــه ، بل بداية لذلك ، و بالفعل حينما نزلوا الى الارض شرعوا في بناء حضارة ،لا ليأكلوا على حساب ميراث السابقين ، و المؤمنون حينما ينتصرون ، و يسقطون الطاغوت يعرفون بأنها نقطة البداية ، و آنئذ تبدا مسؤوليتهم الاصعب في البناء الحضاري و التكامل.

] [30]إن في ذلك لأيات و ان كنا لمبتلين[

الدنيا ليست على شاكلة واحدة ، فهي مليئة بالمصاعب و المشاكل ، و مسؤوليتنا الاستعداد لهذه الحياة، لا ان نفقد عزيمتنا ، أو تخور ارادتنا امام الشدائد.

وقوله : " وان كنا لمبتلين " فيه تأكيدات على البلاء.

] [31]ثم أنشأنا من بعدهم قرنا ءاخرين[

القرن في تعبير القرآن هو الجيل أو الامة . اذ يعاصر بعضهم بعضا ، و يقرن اليه ، و لا ندري من هم هؤلاء ، فلعلهم كانوا قوم ثمود ، فهم الذين اهلكوا بالصيحة ، و لعلهم قوم عاد ، اذ هم اقرب تاريخيا الى عصر نوح.

و لعل اخفاء اسمهم كان بهدف جعلهم اقرب الى واقعنا ، و ان عذاب المكذبين سنة الهية ، لا تختص بقوم دون قوم ، و لا عصر دون عصر ، لذلك قال أمير المؤمنين - عليه السلام - و هو ينصح قومه:

"ايهــا الناس : ان الله قد أعاذكم من ان يجور عليكم ، و لم يعــذكم من ان يبتليكم ، و قد قال

جل من قائل : ان في ذلك لآيات و ان كنا لمبتلين " . (١)فالله لا يجور علينا ، و لكنه يبتلينا ، و علينا ان نخشاه أبدا ، لانه لا يخص قوما دون قوم في الابتلاء.

(1)المصدر / ص ٥٤٤

] [32]فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون "و نؤكد مرة بعد مرة : ان دعوة الانبياء لم تكن مجردة أو ناقصة ، بل كانت دعوة ذات وجهين : الاول : اسقاط الطغاة ، و الثاني : اقامة حكم الله ، تحت ولاية اوليائه ، و يدل على ذلك جواب قومهم..

] [33]و قال الملأ من قومه [

الاشراف الذين كانت سلطتهم على الناس مهددة ، و الذين يسميهم القرآن بالملا ، هم الذين كانوا يعارضون الرسل قبل غيرهم ، و لماذا كانوا يعارضون ؟ يقول القرآن:

]الذين كفروا و كذبوا بلقاء الآخرة و أترفناهم في الحياة الدنيا ]فالاسباب ثلاثة:

- 1كفرهم ، و حجبهم انفسهم عن الحقيقة.

- 2تكذيبهم بالآخرة.

- 3ترفهم في الحياة الدنيا ، و بطرهم ، و غرورهم بنعمها . حيث كان ترفهم مهددا بهـذه الدعوة ، لانه قائم على الظلم ، و الابتزاز ، و الاستغلال و الرسالات تعارض كل ذلـك.

]ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه و يشرب مما تشربون ]اي ان هذا من طبقتكم ، و طبيعتكم ، فلا تطيعوه ، و اذا عرفنا ان اكثر الطغاة كانوا يضللون الناس البسطاء بأن عنصرهم افضل من عنصر الناس ، و أنهم متميزون عنهم ذاتيـا و وراثيا ، و لانهم الأقوى و الأغنى . إذن عرفنا بعدا من أبعاد مثل هذه الآية ، و كان الملأ يقولون للناس : بانهم اولى بالطاعة من الأنبياء ، لان الانبياء من طبقة المحرومين ، يأكلون مثلهم ، و يشربون مثلهم ، فهم لا يستحقون القيادة ، بينما هم - اي الطغاة - يتميزون عن الناس في مأكلهم و مشربهم.

] [34]و لئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون[

عندما ندرس حياة الانبياء قد نتصور أنهم رجال ضخام ، و نتخيلهم ضمن هالة من القيم المادية ، اما اذا تصورناهم رعاة للغنم ، ثيابهم خلقة .. و يأتي أحدهم الى فرعون و هو جالس في قصره ، تحيط به الجنود ، و شهرته طبقت الافاق ، و يطلب منه ان يطيعه ، و يسلم الأمر اليه ، فاننا نعرف مدى صعوبة الايمان بهم.

] [35]أيعدكم أنكم إذا متم و كنتم ترابا و عظاما أنكم مخرجون ]هل من الممكن ان يعود الرميم ، و تصير العظام البالية بشرا ؟!

] [36]هيهات هيهات لما توعدون[

اي بعيد ان يتحقق ما يعده الرسل ، و ان يعود الانسان ثانية بعد الموت ، و هنا احتمال آخر لهذه الكلمة هو : ان الكفار كانوا يسوفون ، فحتى لو كان البعث حقا ، فانه سيكون في زمان بعيد جدا ، و هكذا يسوف أهل المعاصي ، و جاء في الدعاء : " فاعني بالبكاءعلى نفسي ، فقد افنيت بالتسويف و الآمال عمري " و جاء في الحديث ان اكثر ما يشكو منه أهل النار " سوف. "

] [37]إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت و نحيا و ما نحن بمبعوثين ]و هذه الفكرة منبعها الكفر بالله و

التشكيك في قدرته تعالى.

[38]ثم وجهوا التهمة لشخص الرسول ، ففي البداية قالوا انه رجل مثلكم ، ثم ادعوا ان افكاره خاطئة ، و الآن ينسبون اليه الافتراء.

]إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا و ما نحن له بمؤمنين ]الايمان حق ، و يوم الآخرة حق ، و لكن ماذا ينفع كل هذا ، من دون ان يتجسد عملا صالحا ، و نظاما اجتماعيا في الحياة الدنيا ؟!

هؤلاء بخبثهم ، و مكرهم شأنهم شأن كل المضللين عبر التاريخ ، حاولوا أن يفصلوا الدين عن الدنيا ، بين الايمان بالله من جهة ، و بين تطبيق نظام ديني قائم على الارض من جهة ثانية ، فقالوا : ان الله حق ، و لكن هذا الرجل لا يمثله في الارض ، و لا يملك ولايته.

[39]و عندما يئس منهم نبيهم دعا ربه:

]قال رب انصرني بما كذبون[

و هي نفس الكلمة التي قالها نوح (ع) و قد تركت من الآثار ما هو آية للناس على مر الزمان ، و هكذا ينصر الله كل من يجسد قيمه على نفسه.

## بعدا للقوم الظالمين

### هدى من الآيات

لأن القرآن بذاته شفاء ، ولان سورة ( المؤمنون ) تعالج النفوس المريضة ، بذكر عبر الماضين لتصفي القلوب ، و تتصل بنور الايمان البهي ، و لان أمر التوحيد لا يخص قوما دون آخر ، فان السياق القرآني هنا يذكر بعاقبة اولئك الذين كذبوا الرسول ، فأنذرهم بانهم سيصبحون نادمين حين ينزل الله بهم العقاب ، و يعرفون انه جزاء افعالهم ، و هكذا أخذتهم الصيحة ، جزاءا عادلا لغفلتهم ، و جحودهم ، فاذا بهم غثاء كغثاء السيل ، تلاحقهم اللعنة ، فبعدا لهم لانهم كانوا ظالمين.

و خلق الله قوما غيرهم ، و مضت سنته تعالى فيهم ، كلما كذبوا امهلهم حتى ينتهي اجلهم ، اما اذا جاء أجلهم ، فلا يتقدم و لا يتأخر ، و الرسل يتعاقبون رسولا بعد رسول ، و لكنهم كانوا يكذبونهم ، فجعل الله بعضهم يتبع بعضا في الهلاك . حتى أصبحوا جميعا احاديثتروى ، و لا أثر لهم في الحياة الا ما تحمله ذاكرة التاريخ من عبرهم ، و أمثالهم ، و لعنات الله لهم ، فبعدا لهم لانهم لم يؤمنوا.

و يبدو ان حياة هؤلاء كانت متشابهة ، و لكنها تطورت عند فرعون و ملأه و لذلك افرد بالذكر ، فهذا موسى و أخوه هارون ، يرسلهما الرب اليهم ، فيستكبرون و يعلون في الارض طغيانا و يقولون : عجبا ! كيف يأمراننا بالايمان ، و الطاعة لهما ، و قومهما يعبدوننا ؟!
و هذا التكبر أرداهم ، حيث أنهم كذبوهما ، فجرت عليهم سنة الله في هلاك المكذبين.

و لكن الله لم يرد هلاكهم انما أراد هدايتهم . اذ بعث فيهم رسولا ، و آتاه كتابا.

### بينات من الآيات

[40]بعد ان دعا احدهما ) هودا أو صالحا ) قومه ، و استكبروا عليه ، سال الله ان ينصره عليهم ، فجاء الخطاب الالهي:

]قال عما قليل ليصبحن نادمين[

فنهايتهم قريبة ، و سيعرفون انها نتيجة لعملهم ، و سيندمون ، و قال الله " عما قليل "لانهم

استبعدوا الجزاء بقولهم " هيهات هيهات. "

] [41]فأخذتهم الصيحة بالحق [

كثيرا ما تتكرر كلمة " بالحق " في القرآن ، قال تعالى:

"انا ارسلنا رسلنا بالحق. "

"انا ارسلناك بالحق بشيرا و نذيرا. "

و هكذا .. و توحي كلمة "بالحق " بعدة أفكار:

- 1ان الحياة قائمة على أساس سنن ، و قوانين لا تحيد عنها ، و ان علينا ان نكيف انفسنا معها ، و الا فان ارادة الله اقتضت ان نتكيف معها ، كالكافر الذي لا يسجد لله ، و لكن ظلاله رغما عنه يسجد له.

- 2ان هذه القوانين و الانظمة ليست عبثا ، و بلا حكمة ، و انها لن تتساهل ، فاذا خالفها الانسان هلك.

- 3ان قدرة الله و تدبيره غير محدودين ، و لكنه - تعالى - لا يعمل شيئا دون تلك القوانين و السنن التي وضعها الا في حالات خاصة لانه فوق كل ذلك ، فمن الناحية النظرية قدرة الله فوق كل قدرة ، و لكنه عمليا أبى ان يجري العدالة في الكون الا برحمته و حكمته، فاذا اراد العذاب لانسان ما أنزله بقدر ذنبه ، و بالطريقة المتناسبة معه.

فالذي كان يعبد الماء يغرقه بالنيل ، و الذي كان يفتخر بالقوة تقتلعه الرياح ، و المتكبر تأتيه الصيحة من فوقه ، و الصيحة التي يتحدث عنها هذا الدرس كانت حقا ، و جاءت لتطبق الحق.

]فجعلناهم غثاء[

الغثاء هو ما يجتمع حين السيول ، أو وراء حواجز الانهار . من أوساخ لا ينتفع بها الانسان ، و هكذا تكون نهاية المتكبرين ، و لن يقرر هلاكهم عطف احد ، لانهم ظالمون ، بل تلاحقهم اللعنة ليل نهار.

]فبعدا للقوم الظالمين[

[42]و اللـــه حين يهلك هؤلاء فانه لا يعبأ بهم ، لانهم لم يكونوا يزيدون في ملكه شيئا ، و لم يحدثوا فراغا بهلاكهم ، لأن " أمره إذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون "لذلك فقد خلق غيرهم.

]ثم أنشأنا من بعدهم قرونا ءاخرين[

[43]و لكل امة من هذه القرون أجل محدود.

]ما تسبق من أمة أجلها و ما يستأخرون[

ان يقين الانسان بأن فرصته في الدنيا محدودة و انه حين يأتي أجله لا يقدر على تأخيره ، يجعله يخشى ربه و يتقيه ، علما بان نهاية الأجل غير معروفة له ، فقد يعاجله العذاب في اية لحظة.

و الآيات القرآنية عادة ما تشير الى الجماعة ( الامة - الشعوب - الطائفة ، ... ) لان الانسان

يتحمل مسؤولية امام الآخرين . شاء أم رفض.

[44]و سنة الله في الحياة انه يرسل الى كل امة هاديا و رسولا.

]ثم أرسلنا رسلنا تترا[

يؤيد بعضهم بعضا في ذات النهج ، و بالذات الهدف.

]كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا ]كما ان الله يرسل الرسل واحدا بعد الآخر ، كذلك يهلك الامم المكذبة الواحدة تلو الأخرى.

]و جعلناهم أحاديث[

و الاحاديث جمع أحدوثة ، و ليس جمع حديث ، و الاحدوثة هي الحادثة النكراء التي تتناقلها الالسن ، و هي عبرة لهم.

]فبعدا لقوم لا يؤمنون[

تعسا لهم و ابعادا عن الرحمة و الحق.

[45]و من الامم التي بعث الله اليها الرسل فكذبوهم امة فرعون:

]ثم أرسلنا موسى و أخاه هارون باياتنا و سلطان مبين ]الآيات هي التوراة ، اما سلطان الله عند موسى فهو الثعبان ، و سائر الآيات.

] [46]إلى فرعون و ملإيه[

و هنا مقابلة ، ففي طرف يقف موسى و هارون ، و في الطرف الآخر فرعون و ملأه ، و هكذا ارسل كل الانبياء الى طواغيت زمانهم ، و من يلف لفهم من المرتزقة و اصحاب المصالح.

و الذي يتدبر في قصة موسى و فرعون يهتدي الى ان القضية كانت كبيرة جدا . حيث يرسل الله اثنين ( موسى و هارون ) و ذلك لعظم المسؤولية . حيث انها نقلة حضارية من ذلك المستنقع الآسن الذي تردى اليه فرعون و جماعته ، الى القمة السامقة من التوحيد و الايمان ، وموسى من اعظم انبياء الله ، و قصص موسى قريبة من واقع الامة الاسلامية ، فلا تزال البشرية تعيش ظروفا مشابهة لتلك التي عاشها قوم موسى ، حيث لا يزال المستكبرون من ملأ فراعنة الارض يستضعفون سائر الناس ، و يجعلونهم شيعا ، و يعلون في الارض بغير الحق ، فنحن بحاجة الى التدبر في هذه القصة لنزداد وعيا ، و عزما ، و جهادا حتى يأذن الله لنا بالنصر ، و لذلك يذكر القرآن هذه القصص زهاء سبعين مرة.

و لكن هل استجاب فرعون و ملأه لرسول الله موسى و لاخيه هارون (ع) ؟ كلا..

]فاستكبروا و كانوا قوما عالين[

الانسان ربما يستكبر و لكنه لا يملك شيئا من مقومات الاستكبار ، فنراه فقيرا ، و ذليلا .. الخ ، و حينا آخر يستكبر الانسان و هو يمتلك المقومات الظاهرية لذلك ، كفرعون الذي كانت تجري الانهار من تحت قصره ، و الذي يسيطر على شعب مصر.

[47]لذلك لما جاءهم موسى و اخوه كذبوهما:

]فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا و قومهما لنا عابدون ]و لم يقل و هما لنا عابدان ؟

لعلــه لانهما في الواقع ما عبدوا ، و ما خضعوا للطاغوت ، و انما قومهما ( بنو اسرائيل ) هم الذين خضعوا لفرعون و ملأه.

] [48]فكذبوهما فكانوا من المهلكين[

بالإغراق.

] [49]و لقد ءاتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون[

الكتــاب الذي ارسل اليهم عبر موسى كان يهدف هدايتهم الى الصراط المستقيم ، و لكنهم لم ينتفعوا بهذا الكتاب .

ان الله لم يخلق الناس ، ليهلكهم ، بل ليرحمهم بالفلاح ، و الهدى في الدنيا ، و الجنة في الآخرة ، و لكن الناس هم الذين يرفضون ذلك.

و كل هذه الآيات دعوة لنا للتفكير فيها و تطبيقها على أنفسنا و مجتمعاتنا . فبامكاننا ان نصير موسى ، و بامكاننا ان نصير فرعون ، و ذلك اذا حملنا رسالة موسىفي الحياة ، أو سلكنا مسلك فرعون ، جاء في الحديث:

"طوبى لمن عصى فرعون هواه ، و اطاع موسى تقواه "و مهما اختلفت طرق العذاب ، و الانتقام الإلهي فان الحقيقة واحدة ، و يجب ان لا نستبعد العذاب عن أنفسنا اذا انحرفنا عن هدى الله.

## من هم المؤمنون

## هدى من الآيات

لان ســـورة ( المؤمنــون ) تذكرنا بواقع الايمان ، فان هذا الدرس فيها - كما يبدو - قد خصص لبيان المقياس الحق للمؤمن ، بعد ان ذكرت الدروس الماضية بعاقبة الانكار و الجحود.

فهـــذه مريم و ابنها آيتان ، حيث آواهما الرب الى مرتفع من الارض فيه القرار و الماء ، و هذا دليل على ان الله سبحانه - انما ارسل الانبياء لراحة البشر ، لذلك أمرهم بان يأكلوا من الطيبات و يعملوا صالحا.

و منهج الرسل واحد ، و انما اختلف أهل الكتاب ، و تفرقوا أحزابا لفرحهم بما أوتوا من أموال و بنين ، و زعموا ان الله يسارع لهم في الخيرات ، و هم لا يشعرون ، فلعله استدراج لهم حتى يأخذهم عندما يحين أجلهم.

أمــا قدرة الايمان فنجدها في الذين يشفقون ، وجلين من خشية الله ، و يستجيبون لآياته ، و لا يشركون بربهم ، و حتى عطاؤهم في الله لا يطمئنون اليه ، بل لا يزالونوجلين لايمانهم بأنهم الى ربهم راجعون . فهم لذلك يسارعون في الخيرات و يتسابقون اليها.

و لا يعني ذلك ان الله ينهكهم بالمسؤوليات ، بل ربنا الرحيم لا يكلف نفسا الا ما تقدر عليه ، و تطيقه ، و ان الله يكتب لهم اعمالهم كلها و هم لا يظلمون.

هذا هدى المؤمنين . دعنا نقتدي به.

و نجد في آيات هذا الدرس : مقاييس لا تخطئ للايمان.

**بينات من الآيات**

[50]ان الهدف من التجمع المؤمن ليس اشقاء الناس ، بل تزكيتهم ، و جعلهم صالحين لينتفعوا اكثر ، بنعم الله ، و بالتالي ليرحمهم الله ، و ذلك بأن يجسد افراده حياة عيسى و امه مريم (ع) ، اللذين جعل الله ربوة تحتضنهم ، و تسقيهم من معين سائغ شرابه ، و كذلكيريد الله للرسل و من يشكل امتدادا لخطهم من المؤمنين ، ان يأكلوا الطيبات ، و يعملوا الصالحات ، و يشكروا الله.

و حرام على انسان يأكل نعم الله ان يعصيه بعمل الخبائث ، كما لا يستطيع أكل الحرام ان يعمل الصالحات بصورة كاملة ، أو لم يقل ربنا سبحانه:

"و الذي خبث لا يخرج الا نكدا " ؟!

]و جعلنا ابن مريم و أمه ءاية[

فمريم ولدت عيسى من غير زوج ، كما ان عيسى كلم الناس و هو في المهد صبيا.

]وءاويناهما الى ربوة ذات قرار و معين[

بعد ان كانا يفتقران الى المسكن ، وفر الله لهما الربوة ، و هي المرتفع من الارض ، و لها ميزات : انها بعيدة عن الهوام و الاسقام ، و هكذا عندما يأمر ربنا بالتيمم يقول:

"فتيمموا صعيدا طيبا . "

و من معاني الصعيد المرتفع من الارض ، و في علم طبقات الارض ان المرتفعات التي فيها الماء هي افضل المواقع . أمنيا و زراعيا و صحيا.

و يتساءل المفسرون : اين كانت هذه الربوة ؟ هل كانت مدينة الناصرة في فلسطين . حيث التجأت اليها مريم - عليها السلام - خشية اعداء ابنها عيسى - عليه السلام -من اليهود ؟

ام كــانت منطقة خاصة في مصر . حيث عاشت مريم و ابنها هناك ردحا من الزمن ؟

ام انها كانت في ( دمشق ) ام مدينة ( رملة ) حيث عاشا فيهما ايضا فترة من الوقت ؟

ام انها لم تكن سوى ذلك الموقع الذي وضعت مريم ابنها فيه ، في اطراف بيت المقدس ذاته . (١)و في رواية مأثورة عن الامامين الباقر و الصادق - عليهما السلام: -

"ان الربوة : حيرة الكوفة ، و سوادها ، و القرار مسجد الكوفة ، و المعين الفرات " . (٢)(١) راجع تفسير ) نمونه ) ص ٢٥٢ - ج ١٤

(2)نور الثقلين / ج ٣ -ص ٥٤٤

و على اي حال : فان في الآية درسا في اختيار الموقع المناسب للمسكن ، كما ان الآية التالية تذكرنا : بضرورة اختيار الطيبات للطعام.

[51]و لم تكن هذه النعم الا لكي تقيم اود الانسان ، و لكن الهدف الابعد منها ان يستخدم جسده في خير نفسه و الناس ، من خلال الصالحات.

و قد كان هذا نداء الله لكل الرسل ، و من بعدهم للمؤمنين ، أن يأكلوا لا ليعيشوا أو يتلذذوا بالنعم - فحسب - بل ليعملوا الصالحات.

]يا أيها الرسل كلوا من الطيبات و اعملوا صالحا إني بما تعملون عليم ]كما ان المهم في العمل ان يكون خالصا لوجه الله حتى يأتي بثماره - دنيا و آخرة -و هل يخلص لله الا الذين يتحسسون برقابته ، و علمه بهم ؟! و يجب على المؤمنين ان يعملوا بما يمليه عليهم الشرع و العقل دون ان ينتظروا رضى الناس.

و يبدو ان الاسلام يرجع الناس الى عقولهم . البعيدة عن الهوى و الضغوط ، و التي جعلها الله حجة بينه و بين العباد ، فتكون الطيبات التي تدعونا اليها هذه الآية هي التي يحكم بها العقل ، و هكذا العمل الصالح ، و انما الشرع يثير العقل و يبلوره . جاء في الحديث:

"العقل رسول باطن و الرسول عقل ظاهر"

[52]ان المقاييس الايمانية التي وضعها الله سبحانه ، هي التي تكشف حقيقة الكثير ممن يدعون الايمان ، اذ ان مقياس الايمان و حقيقته ليس ما يدعيه البشر أو يعتقد به ، بل ما يضعه الله سنة ، و ما يعلمه من واقع كل انسان و مجتمع.

و المشكلة ان الانسان الذي يغمره احساس ساذج بالايمان الصادق لا يكتشف خطا ادعائه الا بعـد فوات الاوان . حيث ينقله الموت من دار البلاء و العمل ، الى دار الحساب و الجزاء ، فلا يستطيع ان يغير من أمره شيئا.

اذن لابد ان نضع مقاييسنا الذاتية جانبا ، و نبحث عن الموازين الحق الالهية لتكون حجة بيننا و بين الله سبحانه ، عند الحساب و الجزاء . لا لكي نقنع الآخرين باننا مؤمنون ، لانهم يقتنعون منا ، بما يقتنعون من أنفسهم من ممارسة الشعائر الظاهرة ، ثم ماذا تجدي الانسان قناعة الناس سوى بعض المصالح المحدودة في الدنيا ؟ و لعله يظهر على حقيقته يوما عند الناس ايضا ان المهم هو ان يكون الله راضيا عنا.

و في هذه الآية يضع القرآن الحكيم المقياس الاجتماعي الذي يميز المنافق عن المؤمن ، و هو مقياس الوحدة الايمانية ، فلو ادعى جماعة انهم مؤمنون ، ثم تفرقوا أحزابا و شيعا . انطلاقا من أهوائهم و مصالحهم ، فان ادعاءهم سيكون باطلا و سخيفا ، لان المؤمنين تجمعهم كلمة واحدة هي كلمة التوحيد ، و ان التقوى هي محور نشاطهم ، و صبغة اعمالهم و حياتهم.

]و إن هذه أمتكم أمة واحدة و أنا ربك فاتقون[

] [53]فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا[

لكي نعرف المؤمنين ، لابد ان نعرف المنافقين الذين يتناقضون معهم ، فبينما يتجه المؤمنون للوحدة على أساس القيم و القيادة الرسالية . نرى هؤلاء في سعي حثيث للنيل من الوحدة بتمام معنى الكلمة ، و كلمة " فتقطعوا " مبالغة في التقطيع ، فهؤلاء يسيرون في نفق التقسيم ، و الفرقة . بحيث تنقسم كل جماعة على نفسها باستمرار.

]كل حزب بما لديهم فرحون[

ان الاساس في هذه الفرقة ، و هذا الانقسام هو اغترار كل بما لديه من رجال ، و مال ، و افكار ، بينما نجد المؤمنين مشفقين من خشية ربهم ، و الفرح هو آية الغرور ، و يبدو انه يعكس حالة الرضا عن النفس.

و ان الفرح هو السبب المباشر للتحزب . حيث ان قصر نظر الفرد ، و حرج صدره ، و ضيقه ، و تفاهة اهدافه ، و تحقيره لنفسه ، و لقدراتها . كل ذلك يجعله معجبا بنفسه ، و بما يملك ، و

يزعم انه و ما يتصل به افضل مما سواه ، فيتقوقع على ذاته ، ولا يعترف للآخرين بفضل ، و لا يرى الأهداف العظيمة التي تحتاج الى الوحدة ، و تراكم الجهود.

[54]و يشبه القرآن هؤلاء حينما يطغى عليهم الاعجاب ، و الفرح بالغريق الذي يغمره الماء من كل ناحية.

]فذرهم في غمرتهم حتى حين[

فلا توقظهم الا صاعقة العذاب .تأتيهم بغتة.

[56 - 55]و السؤال لماذا يفرح هؤلاء ؟

لأن غاية ما يطمحون له ان يصبحوا اصحاب مال وبنين ، ولفرط حبهم لذاتهم ، و لما يتعلق بهم خاصة من مال و بنين تراهم يجعلونهما مقياسا للخير و الصلاح ، و يزعمون بأنه لو لم تكن افكارهم صائبة ، و لم يكن الله راضيا عنهم اذا لم يكونوا يحصلون على المال و البنين ، وبالتالي ان حصولهم عليهما في الدنيا دليل صلاحهم ، و حصولهم على الفلاح في الآخرة ، كما قال قائل منهم:

"و لئن رددت الى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا. "

و لا يزال العالم المادي اليوم يعتبر ميزان التقدم الدخل القومي ، و يزعم بعضهم ان الله معه ، لانه أصبح أشد بطشا و ارهابا في الارض ، و يكتب على دولاراته - بالاعتماد على الله ، ثم يتلاعب بمصير الشعوب بتلك الاموال - حاشا لله - انه لا يسلط الظالمين علىالبشرية ، و يرضى عنهم.

]أيحسبون أنما نمدهم به من مال و بنين * نسارع لهم في الخيرات ]هل يتصور هؤلاء ان الخير و الكمال هو المال و الرجال ؟ و اننا حين نعطيهم ذلك يعتبر حبا منا لهم او رضى بهم ؟!

]بل لا يشعرون[

لان الخير الحقيقي هو فيما يقوله القرآن ، لا ما يملكون ، و هو أيضا ما يجسده الذين تتحدث عنهم الآيات التالية:

] [57]إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون[

فالمؤمنون يعملون ، و لكنهم لا يغترون بعطائهم ، بل يشفقون على أنفسهم ، لأنهم يعرفون أن هذه الأجساد لا تحتمل لهب النار ، فيبقى همهم و شغلهم الشاغل هو انقاذ أنفسهم من جهنم ، و تتكرر في الدعاء هذه العبارة : " و قنا عذاب النار " و في الآيةالقرآنية:

"فمن زحزح عن النار و أدخل الجنة فقد فاز. "

و تؤكد هذه الآية و ما بعدها على الفروق بين التجمع المؤمن ، و الآخر المصلحي٨ + ١٩٥

القائم على أساس المال و الرجال ، و هي:

الف /الاشفاق من العمل ، فدائما ما يستقل المؤمنون اعمالهم ، و يساورهم هاجس التقصير ، بما يحسسهم انها قد لا تبلغ مرضاة الله ، مما يزيدهم عزيمة و اصرارا على العطاء الاكثر ، و الاخلاص الانقى ، أما المنافقون فانهم يفرحون بأعمالهم و يكبرونها ، فلا يقبلون الانتقاد بما يرونه في ذواتهم من كمال و عصمة ، بينما يرحب اولئك بكل انتقاد بناء . حيث أنهم يتهمون أنفسهم

بالتقصير ، فلعلهم اخطأوا أو غفلوا ، و محور هذه المقارنة هو الخشية عند فريق دون الفريق الآخر ، فكلما عمل المؤمنون لا تزال فيهم بقية ارادة ، و عزيمة خشية التقصير ، و انهم لما يفكوا رقابهم من النار.

جاء في نهج البلاغة عن الامام علي - عليه السلام - و هو يصف المؤمنين:

"فلو رخص الله في الكبر لأحد ، لرخص فيه لخاصة انبيائه ، و اوليائه ، و رسله ، و لكنه سبحانه كره لهم التكابر ، و رضي لهم التواضع ، فالصقوا بالارض خدودهم ، و عفروا في التراب وجوههم ، و خفضوا اجنحتهم للمؤمنين و كانوا قوما مستضعفين قد اختبرهم الله بالمخمصة ، و ابتلاهم بالمجهدة ، و امتحنهم بالمخاوف ، و محصهم بالمكاره ، فلا تعتبروا الرضا و السخط بالمال و الولد . جهلا بمواقع الفتنة ، و الاختبار في موضع الغنى و الاقتصار(1) . " و قد نصح لقمان ابنه فقال له فيما قال:

"خف الله - جل و عز - خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك ، و ارج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك (1)(2) . "المصدر / ص ٥٤٥

(2)المصدر / ص ٥٤٧

و نحن نقرأ في سيرة اولياء الله ما يجعلنا نتصاغر في أنفسنا . اين نحن من واجبنا ، و الى متى نغفل عن مصيرنا ، و نحن لا نعلم هل خلقنا للجنة ، ام ان عاقبتنا النار ؟!

فهذا زيد بن علي بن الحسين - عليه السلام - يقص علينا سيرته سعيد بن جبير قال:

قلت لمحمد بن خالد : كيف زيد بن علي في قلوب أهل العراق ؟ فقال : لا أحدثك عن أهل العراق ، و لكن احدثك عن رجل يقال له النازلي بالمدينة قال : صحبت زيدا ما بين مكة و المدينة ، و كان يصلي الفريضة ثم يصلي ما بين الصلاة الى الصلاة ، و يصلي الليل كله ، و يكثر التسبيح ، و يردد:

"و جاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد " (١)فصلى بنا ليلة ، ثم ردد هذه الآية الى قريب من نصف الليل ، فانتبهت وهو رافع يده الى السماء و يقول : الهي عذاب الدنيا ايسر من عذاب الآخرة ، ثم انتحب ، فقمت اليه ، و قلت : يا ابن رسول الله لقد جزعت في ليلتك هذه جزعا ما كنت اعرفه ؟ قال : و يحك يا نازلي اني رأيت الليلة و انا في سجودي اذ رفع لي زمرة من الناس عليهم ثياب ما رأته الأبصار ، حتى احاطوا بي و انا ساجد ، فقال كبيرهم الذي يسمعون منه : اهو ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : أبشر يا زيد فانك مقتول في الله ، و مصلوب و محروق بالنار ، و لا تمسك النار بعدها أبدا فانتبهت و انا فزع ، و الله يا نازلي لوددت اني احرقت بالنار ، ثم احرقت بالنار ، و ان الله اصلح لهذه الامة أمرها " . (٢)(١) سورة ق / آية ١٩

(2)بحار الانوار / ج - 46ص ٣٠٨

باء /الاستجابة للحق ، فلو كانوا على خطأ سرعان ما يتذكرون و يعودون عنه ، لانهم يجعلون الحق - و ليس ذواتهم - محور حياتهم ، لأنهم يعرفون خشوع الايمان ، و التسليم للحق في الدنيا خير من خشوع الذل في نار جهنم.

] [58]و الذين هم بايات ربهم يؤمنون[

فهم منفتحون على الحقائق التي يجدونها في آيات الله ، ولا يمنعون انفسهم خيرات الحق بالعصبيات و التقاليد و التحزب ، بل يبحثون عن الحق انى كان ، حتى لو خالف مصالحهم أو تقاليدهم أو عزة أنفسهم.

] [59]و الذين هم بربهم لا يشركون[

جيم /و تـوحيدهـــم لله يتجلى في سائر جوانب الحياة ، السياسية و الاجتماعية و .. و .. ، فاذا اختاروا قيادة فانما يختارونها بدافع ايمانهم لا بعامل الهوى ، فليس لان فلان من بلده ، أو حزبه ، او طائفته فاذن هو قائده ، كلا ..انما المقياس الوحيد عندهمهو ما يقوله الله و ما يرتضيه.

**خوف التقصير**

] [60]و الذين يؤتون ما ءاتوا و قلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون[

دال /و بينما المنافقون يفرحون بقليل ما يصدر عنهم ، تجد هؤلاء في حالة عطاء دائم مصحوب بوجل ، و خوف من التقصيل ، لان المسألة لو كانت متوقفة على رضى الناس عنهم لنالـوه بعطائهم الظاهر ، و لكنهم يبحثون عن رضى الله ، الذي لا ينال الا بالاخلاص ، و انلهم اليقين بقبول الله لأعمالهم و هو القائل عز و جل:

"انما يتقبل الله من المتقين. "

و يدفعهم خوف التقصير الى المزيد من العطاء ، ذلك ان الشعور بالكمال يمنع مسيرة التقدم ، و الاستمرار في العطاء ، و حينما يسأل رجل الامام الصادق عن سبب خوف هؤلاء ، و وجلهم يجيبه " انهم يخشون ان لا تقبل حسناتهم ، وان لا تغفر سيئاتهم " و ما اكثر الثغرات في الحسنات التي نعملها ، و قد يكون بعضها سبب في عدم قبولها.

فنحن لا نستطيع ان نتأكد من اننا قد فزنا . اذن دعنا لا نقف عند حد في عطائنا و انفاقنا ، ولا نفرح ، لان الفرح من جنود الشيطان.

[61]ان خوف هؤلاء من التقصير يدفعهم نحو العمل ، بل المبادرة اليه.

هاء / [ أولئك يسارعون في الخيرات[

التسابق بين هؤلاء ليس في الشهرة ، بل في عمل الخير ، و هذه صفة نقيضة لما يعيشه التجمع المنافق ، فبينما يلهي أولئك التكاثر في الاموال و الاولاد ، ترى هؤلاء يتسابقون الى الخيرات.

]و هم لها سابقون[

و هذه الآية تحتمل معنيين:

الاول :ان انفسهم مجبولة على الخير ، و العطاء ، و العمل ، و هذه الصفات ليست وليـدة ظرف معين ، بل وليدة صفة راسخة في النفس ، فمع أنهم يتصدقون الآن مثلا ، و لكن أنفسهم قبل هذه الصدقة كانت تحمل هذا المعنى الخير ( مساعدة الضعيف. (

الثاني : المبادرة فهم دائما يسبقون غيرهم للخير ، اذ يكتشفون مجالات و وسائل جديدة للعمل الرسالي ، و هذا ناتج عن الهم الذي يحملونه لتطوير مسيرتهمو تحركهم ، مما يدفعهم باتجاه البحث عن المجالات و الابعاد الجديدة للتقدم بمسيرة العمل ، أو لمواجهة العقبات و المشاكل التي تعترضه.

ان هؤلاء يسعون دائما لنيل رضى الله ، فيفكرون في أساليب جديدة للعمل و يطبقونها.

] [62]ولا نكلف نفسا الا وسعها[

الله هو الذي خلق الانسان ، و هو أعرف بقدرته و طاقته ، فلا يكلفه إلا بقدرها ، و على الانسان أن يسعى في طريق الخير قدر جهده و تمكنه ، فإذا فعل ذلك سقط عنه التكليف ، و الا فما دامت به بقية مقدرة فهو مسؤول.

فما دام الانسان قادرا يجب ان يعمل ، و بقدر الاستطاعة يجب ان يعطي ، و بقدر وسعه يجب ان يسعى ، فلا يقل أحدنا : اني عملت ، و انجزت المهمة الكذائية و كفى ، و انما ينجز مهمة لينتقل الى غيرها ، كما قال الله تعالى:

"فإذا فرغت فانصب . "

فاذا انتهيت من عمل فانصب الـى غيره . و لا يقل أحدنا انه انتهى الواجب فقد قال تعالـى:

"و اعبد ربك حتى يأتيك اليقين. "

فالعمل واجب حتى الموت.

و نستفيد من الآية الكريمة ان مسؤولية كل انسان حسب قدرته ، فالقوي تختلف مسؤوليته عن الضعيف ، و العالم عن الجاهل ، و المسؤول عن الفرد العادي و ..و .. ولعل الآية تشير أيضا الى الرفق بالنفس في العمل ، فلا يهلكن أحدنا نفسه ، و لايحملها فوق طاقتها ، فقد قال أمير المؤمنين لولده الحسن -عليهما السلام- وقد وجده يجتهد في العبادة:

"يا بني ! ان هذا الدين متين ، فاوغل فيه برفق "و البعد الآخر للآية : الواقعية في الطموحات الرسالية . اذ ينبغي ان تكون اهداف المسلم بقدر طاقاته ، فلا يتكلف مالم يكلفه الرب به.

]و لدينا كتاب ينطق بالحق[

فلو ادعى شخص انه تعب ، فان الله يحتج عليه : بأنه اعطاه القدرة التي لم يستغلها كلها حتى يدعي ذلك ، و يحتج عليه بالآخرين الذين يمتلكون مثله من القدرات ، و لكنهم لا يزالون يعطون و يعملون دون تراجع ، و في مقابل هذا التشدد في المسؤولية هناك رحمة الهيةتتمثل في عدل الله ، و فضله.

]و هم لا يظلمون[

فالله يجزي الانسان على كل خير . صغيرا كان أو كبيرا ، جزاء مضاعفا . حيث تتحول الحسنة الى عشر امثالها.

## و اكثرهم للحق كارهون

## هدى من الآيات

في سياق حديث سورة ( المؤمنون ) عن محورية الحق في الحياة ، يذكرنا القرآن بأن اولئك الكفار يعيشون في غمرات الشهوات و الضلالة ، بعيدين عن الحق ، يمارسون أعمالا إجراميـــة ، و يستمرون عليها حتى يأخذ الله مترفيهم ( و هم قياداتهم المفسدون ) بالعذاب ، فإذ بهم يتضرعون من هول العذاب ، و لكن من الذي يعذب في الدنيا ؟ انهم المترفون ، الذين يأتيهم الخطاب : لا تتضرعوا ، فإن الضراعة عند نزول العذاب لا تنفع ، و لا ينصرهم الله . أفلم يكونوا يتولون هاربين كلما تليت عليهم آيات الله و هم يستكبرون بها ، و عندمايسهرون بالليالي يقولون : كلاما تافها ضدها ؟!

ولماذا الاستكبار على الحق ، و لماذا لا يتدبرون في القرآن ليجدوا انه يهديهم الى الحق الذي دعا اليه كل الرسل و الصالحين ( ممن تعترف البشر بفضلهم ) و هذا الرسول يعرفونه بإخلاصه ، و صدقه ، و امانته ، فلماذا ينكرونه ، و هل يعقل ان يكونبه جنة ؟! كلا .. إنما سبب جحودهم له

دعوته الى الحق ، و الحــق يكــرهــه اكثـر الناس ( بجهالتهم و اتباعهم للشـهوات. (

ثــم إن الكون قد خلق وفق سـنن و انظمة ، بعضها نعرفها نسـميها القوانين الطبيعية . كجاذبية الارض ، و انسياب النور ، و انفلاق الحبة من التربة الصالحة ، و بعضها الآخر قوانين غيبية مثل غفران الله للمذنبين التائبين ، أو تعذيبه للمجرمين.

و سواء هذا او ذاك ، فان هذه القوانين هي الحق . الذي خلق الله وفقه السمــاوات و الارض ، و الذي لو زال و حـل مكانه الهوى و الباطل لفسـد الكون في لحظــة.

و على الانسـان ان يسـتجيب للحق الذي قامت به السـموات و الأرض ، و يكفينا دليلا على ذلك حياة الانسـان ، فهو يعيش ضمن سـنن لا يحيد عنها كالجوع ، و العطش ، و النوم ، الا سـنة واحدة اعطى الاختيار فيها بين آلاف السـنن و القوانين ، بعد أن بين الله له أبعادها ،و مع ذلك فانه قد يحطم نفسـه و الارض بهذا الاختيار.

و انت أيها الانسـان اعتبر بهذه الحقيقة ، فانك لو أعرضت عن الحق ، و اتبعت الباطل و الهوى فإن حياتك سـتفسـد ، و سـتفسـد الآخرين.

**بينات من الآيات**

] [63]بل قلوبهم في غمرة من هذا[

تلفها الشـهوات ، من كل جانب ، كما لو انها رسـبت في لجة آسـنة.

]و لهم اعمال من دون ذلك هم لها عاملون[

أعمال الانسـان تنطلق من فكره و قلبه ، و ما دامت قلوب هؤلاء مغمورة فيالشـهوات فانها لا يصدر عنها الا السـيئات ، و لعل كلمة " من دون ذلك " تشـير الى هذه الحقيقة ، أو الى ان الاعمال الاجرامية التي يمارسـونها على فضاعتها تعتبر دون أفكارهم الضالة ، فإن خبث العقائد الفاسـدة أشـد من خبث الافعال المنكرة .

] [64]حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجئرون ]و لم يقل الله ( حتى اذا أخذناهم بالعذاب ) و هذا التحويل في لحن السـياق القرآني لعله يدل على فكرة معينة هي ان الله لا يأخذ كل المغمورة قلوبهم بالعذاب ، بل يأخذ المترفين منهم ، و الآيات التي تلي هذه الآية تفسـرها ، و هذه من خصائص السـياق القرآني أنه يفسـر بعضه بعضا.

و الجأر هو : نهاية حالة الضراعة ، و الطلب الملح.

[65]و لكن ليس ينفع المترف دعاؤه حين يحل به العذاب.

]لا تجئروا اليوم إنكم منا لا تنصرون[

[66]و الآية التالية ، جواب على سؤال يفترض أنه يصدر عن المترفين ، حين يجدون انفسـهم بين يدي العذاب ، إذ يتسـاءلون عن سـبب رد الله لاسـتجارتهم و تضرعهم ، فيأتيهم الجواب:

]قد كانت ءاياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ]ان الآيات القرآنية و هي وقود الإنطلاق و التقدم ، يفترض انها تدفع الانسـان نحو الأمام ، اما إذا كان قلبه مطبوعا بالتخلف و الإنحراف فهي لا تنفع معه ابدا ، بل تزيده طغيانا و كفرا ، و النكوص على الأعقاب ، كناية عن المشـي القهقرى.

[67]لذلك يقول القرآن:

]مستكبرين به[

اي بالقرآن.

]سامرا تهجرون[

ان تكبر الانسان على القرآن شيء ، و تكبره بالقرآن شيء آخر - و هو أعظم - حيث تتحول هذه الرسالة الإلهية العظيمة الى أداة للإستكبار ، و هذا نقيض أهداف القرآن في تحرير الانسان من عبودية الجبت و الطاغوت ، و قد فسر بعضهم كلمة "به " هنا بالكعبة، حيث ان المشركين اتخذوها وسيلة استكبارهم في الارض ، بينما فسره البعض بالقرآن الذي يشير اليه كلمة " آيات " و تدل عليه كلمة " القول " في هذا السياق.

و كانوا إذا جن عليهم الليل و اختلط ظلامه بنور القمر الهادئ ، و هيئت لهم ظروف السمـر ، تحلقوا حول الكعبة ، و أخذوا يتداولون كلاما هجرا ، كأنه هذيان المرضى ، لا يقصدون به معنى حقيقيا.

ذلك الكلام الفارغ الذي كان يكشف عن مدى غفلتهم و خوضهم في غمرات - اللهو ، و الهوى ، و اللاهدفية - ارداهم الى هذا الحضيض السافل من العذاب ، الذي لا خلاص لهم منه . تدبروا في حالتي - الجأر و الهجر..

] [68]أفلم يدبروا القول[

في مقابل هؤلاء نرى المؤمنين الذين يتدبرون القرآن ، و التدبر من كلمة الدبر ، اي النهاية فمن القرآن يبدأ المؤمنن فيسير بعقله ، و على ضوء الآية ، الى الحقائق ، فيرى ماذا تريد الآية و أين هو واقعها الخارجي ، و تطبيقها الحي.

إن القرآن لم يكن بدعة ، فهو امتداد لرسالات الله لبني البشر ،عبر الزمان و لاحجة لأولئك الذين يتنصلون عن تطبيقه أو يتكبرون عليه ، و يفرغونه من معانيه.

]أم جاءهم مالم يأت ءاباءهم الأولين[

ان البشر يقدر - عادة - السلف الصالح ، و تزخر ذاكرته بقصص الأتقياء و المصلحين و في طليعتهم الرسل و لكنه - في ذات الوقت - يكفر بالرسول الذي يأتيه بآيات الله ، و يتساءل عن صحة رسالته ، و انما هي تكميل للرسالات السابقة.

] [69]أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون[

كلا ..فالناس كانوا يعرفون رسول الله بصدقه و أمانته و أخلاقه ، و الرسالة التي جاءهم بها هي عينها التي تدعوا إليها عقولهم ، و الله الذي يبعث بقرآن من السماء قد أنشأ عقلا في داخل الانسان يصدقه ، فيعرف الانسان ان الذي جاء به هو الحق ، و هكذا يستطيع كل انسان بشيء من التعقل ان يهتدي الى رسول الله ، و ان الذي ينصحه هل هو رسول الله أم داعي الشيطان ؟ و لكن بشرط ان يخرج من سجن الشهوات التي تغمره ، و عند ذلك فقط سوف يرى الحقائق بوضوح.

] [70]أم يقولون به جنة[

و هل هذا قول مجنون ، و فيه من ينابيع الحكمة ، و خزائن المعرفة ، و برامج الحياة ، ما يعجز عن اكتناهه أولوا الالباب ؟!

و هل المجنون يفعل ما قام به الرسول من تنظيم لحياة الناس ، ثم قيادة المجتمع على أفضل وجه ؟!

]بل جاءهم بالحق و أكثرهم للحق كارهون[

كلا ..انهم يكرهون الحق و لذلك يجادلون فيه ، و ينكرون الرسول الداعياليه ، و لا يتدبرون في القول الذي يحتويه و لماذا يكره الحق أكثرهم ؟ لانهم يعيشون في غمرة منه تحيط بهم شهواتهم ، و هذا هو الفرق بين المؤمنين و الكافرين.

] [71]و لو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات و الأرض و من فيهن ]ليس فقط من الناحية الغيبية الإلهية فقط ، بل من الناحية الواقعية أيضا لان الحق الذي تنزل به القرآن تعبير عن حقائق الانسان و الحياة ، فالعدل يقيم الحياة ، بينما الظلم يؤدي بها إلى الدمار ، و الصدق يعود على الناس بالنفع بينما الكذب يعود عليهم بالضرر، و هكذا سائر القيم السلبية و الايجابية.

]بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون[

البعض يفسر هذه الآية بان : القرآن جاء شرفا للناس ، و لكنهم معرضون عن شرفهم ، و هذا صحيح ، اما التفسير الآخر - حسبما ارى انه اقرب - فهو ان القرآن جاء مذكرا لهم بما نسوه ، و غفلوا عنه ، و لكي ينورهم فلماذا يعرضون عنه ؟!

و هذا التفسير تأكيد للفكرة السابقة و هي : ان الله الذي يرسل رسالة على يد رسول ، اودع رسالة اخرى في قلب الانسان ، و انطباق هاتين الرسالتين دليل على صدق الرسول.

## هكذا نتحدى عقبات الايمان

## هدى من الآيات

جاءت سورة ( المؤمنون ) لبث روح الايمان في القلوب ، و لكن القلوب المريضة لا تستقبل هذه الروح ، إذ لابد من شفائها أولا ، في الدرس الماضي قرأنا كيف ان كراهة الحق الناشئة من غمرات الضلالة ، أفرزت الجحود بالرسالة ، و هنا يساعدنا السياق لتجاوز العقبات التي تعترض طريق الايمان ، و بالتالي يحبب الينا ( الحق ) و يطهر القلب من وساوس الشيطان التي تصدنا عنه.

الأول :الخوف على الثروة ، و يقول القرآن : انك لا تسألهم خرجا ، بل الله خير الرازقين ، و انه سوف يبارك لهم في ثرواتهم لو اتبعوا الحق الذي جاء به الرسول.

الثاني : المحافظة على التقاليد ، و يقول الذكر : ان سبيلهم ضال ، و انك - يا رسول الله - تدعوهم الى الصراط المستقيم ، و سبب ضلالتهم أنهم لا يؤمنون بالآخرة ، و في آخر الدرس نقرأ تأكيدا على هذا السبب.

الثالث : لو كانت الرسالة حقا ، لكشف الله بها الضر ، و لكن مقدارا من الضر يحافظ على توازن البشر الذي يطغى لو كشف الله عنه ضره ، و بالرغم من العذاب الذي أخذهم اللـه به تراهم لا يسلمون لربهم ، و لا يتضرعون اليه . حتى ينزل عليهم عذابا شديا ، فإذا بهمفي ورطة و إبلاس .

بعد تطهير القلب من هذه الوساوس ، يذكرنا الرب بنعمه التي لا تحصى . أو ليس قد أنشأ لنا السمع ، و الابصار ، و الأفئدة . أفلا نشكره ؟!

و هو الذي جعل البشر يتناسل في الارض ، و بعد الموت يحشر من جديد ، و بيده الحياة و الموت ، و تدبير الليل و النهار ، افلا يكفي ذلك حجة لو انتفعنا بعقولنا ؟!

كلا ..إنهم يقولون - كما قال آباؤهم الضالون - كيف يبعث الله من يموت و يصبح ترابا و عظاما ؟! انها أساطير الأولين . حيث قد وعدوا كما وعدنا نحن ايضا بذلك!

هكـــذا أصبح إنكارهـــم للبعث سببـــا لجحودهم برسالات الله ، و هكـذا الإنكار - بدوره - نشأ من حالة الجهل ، و استبعاد حياة الانسان من بعد الموت . و كلمة أخيرة : اننا نجد السياق ينتقل من الحديث عن العقبات في طريق الايمان ، و كيفية التغلب عليها، الى الحديث عن آيات الله التي تهدينا اليه ، و هذه هي الطريقة القرآنية في توجيه الانسان الى ربه ، و هي تختلف عن الطرق البشرية ، فالطريقة القرآنية تعتمد على مرتكزات من بينها و أهمها الأسلوب الوجداني ، فالانسان خلق على فطرة الايمان ، و الله هو أجلى و أظهر حقيقة في هذا الكون ، و فطرة الانسان تدعوه الى الله:

"فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم. "

و لكن لماذا لا يؤمن البشر ؟

لأن بينهـــم و بين الله حجبا . كحجاب الغفلة ، و حجاب الشهوة ، و حجاب التقليد ، و حجاب الخوف ، أو الرجاء في الامور الدنيوية ، و حجاب الشك في الآخرة . و يجب على الانسان ان يتحدى هذه الحجب بإرادته ، و بتذكير الله - عبر رسله - لكي يصل الى معدن الايمان، و نور الله البهي.

و هذه النظرة القرآنية نجدها موزعة في كتاب الله ، و المتدبر في القرآن يجد هذا الأسلوب في توجيه الانسان الى الله واضحا في آيات الذكر الحكيم ، و الذي اسميه بالاسلوب الوجداني الذي يبدأ بتزكية القلب ، و إجلاء الدرن و الصدأ عنه ، و يكشف عن الحجب ليتصل بنور معرفة الله بصورة مباشرة ، و آنئذ نعرف معنى قول الامام علي (ع) : حين يسأله رجل قائلا : يا أمير المؤمنين او رأيت ربك ؟ قال : " ويحك ! و كيف أعبد ربا لا أراه ؟! " قال السائل : كيف رأيته ؟ قال : " لا تدركه الأبصار بملاحظة العيون ، و إنما تدركه القلوب بحقيقة الايمان. "

**بينات من الآيات**

[72]من العقبات التي تعترض طريق البشر الى الايمان هو زعمه : بأن ايمانه سيكلفه التضحية بالمال ، دون ان يعلم بان الايمان يدفع المجتمع لانتهاج شريعة متكاملة توفر له التعاون ، و العدالة ، و النشاط ، و في مثل هذا المجتمع يستطيع الانسان كسب المزيد من الثروة ، و المزيد من السعادة ، و لو أنه حسب ما ينفقه في سبيل الله خمسا ، أو زكاة ، أو نشاطا ، خسارة و مغرما ، فلأنه لا يعلم بأن تدوير الثروة و توزيعها بالعدل يساعد على نشاط المجتمع ، و بالتالي على نموه الاقتصادي.

إن نظرة الانسان للحياة من خلال معرفته بربه ، تعرفه بأن عطاءه و إنفاقه في سبيل الله لا ينقصه شيئا ، بل يزيده مالا و سعادة ، ذلك انه سيكتشف عبر هذهالمعرفة بـأن الله لا يحتاج الى ماله و لا نشاطه ، وانما ينفق ذلك لنفسه ، و لتدوير الثروة ، و توزيعها العادل ، و لتطهير قلبه من درن البخل ، و المجتمع من آفة الطبقية.

]أم تسألهم خرجا[

شيئا ينفقونه و كأنه يخرج من أموالهم ، و هو يقابل ( الدخل. (

]فخراج ربك خير[

كيف يطلب النبي المشمول ببركة الله ، و فيض عطائه من البشر الضعيف الفقير شيئا ، بل ماذا تعني ثروة الدنيا عند نبي تضاءلت الشمس و القمر أمامه.

]و هو خير الرازقين[

فالله الرزاق ، الذي لا حد لعطائه ، و لا ذلة ، و هو الغني الحميد.

] [73]و إنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم[

انك ايها الرسول تدعوهم الى انتهاج برامج صائبة لحياتهم . تتمثل في الصراط المستقيم الذي يصل بهم لو اتبعوه الى أهدافهم ، و مشكلة الانسان في كثير من الأحيان انه يعرف هدفه ، و لكنه يفتقر الى الطريق و الوسيلة الصائبة في بلوغه ، و رسالات الله تهديه الى السبيل الأقوم الى اهدافه الفاضلة.

و اظهـــر مصاديق - الصراط المستقيم - بل و ميزان الصراط المستقيم . القيادة الرشيدة ، و الامام العادل الذي نصبه الله للناس علما ، يميزون الحق به عن الباطل ، و هو متمثل في شخص الرسول ، و الائمة المعصومين من بعده (ع) و العلماء بالله . الامناء على حلاله و حرامه من بعدهم ، و قد جاء في حديث مأثور عن النبي - صلى الله عليه و آله - انه قال لعلي - عليه السلام: -

"من أحبك لدينك ، و أخذ بسبيلك ، فهو ممن هدي الى صراط مستقيم ، و من رغب عن هداك ، و أبغضك و انجلاك ، لقي الله يوم القيامة لا خلاق له " (١)[٧٤] [ و إن الذين لا يؤمنون بالأخرة عن الصراط لناكبون ]ذلك أن الايمان بالآخرة يشكل حجر الزاوية في كيان الانسان العلمي ، أو ليست معرفة النهاية تســاهم في معرفة حقائق الحياة ، و من لا يعرف حقيقة الدنيا ، يزغم انها دار راحة ، و جزاء ، و حين لا يجدهما فيها يزداد شقاء ، و من لا يؤمن بالآخرة لا يعرف هــدفالحياة ، فيهدف فيها ما يضره و لا ينفعه ، او يهبط الى مستوى العتو ، و قد ينتحر ، لأنه لا يجد طعما لحياته ، و من لا يعتقد بالآخرة يتوغل في عبادة الشهوات ، و يحتجب بها عن معرفة الله ، و لا يلتزم بشرائعه و لا يهتدي برسالاته ، فهو في ضلال بعيد ، و لعله لذلك لم يقل الرب : ان الذين لا يؤمنون بالله ، بل قال : " و ان الذين لا يؤمنون بالآخرة. "

[75]و ماذا يفعل الله بالانسان حين يتنكب عن الصراط ؟

هل يرزقه النعم و يرحمه ، فاذا به يتوغل في الطغيان ؟!

ام ينزل عليه النقمة فاذا به لا يرتدع و لا يتضرع الى الله ؟!

]و لو رحمناهم و كشفنا ما بهم من ضر[

كالفقر ، و المرض ، و الخوف .

]للجوا في طغيانهم يعمهون[

(1)المصدر / ص ٥٤٨

انجلاك : ترك سبيلك ، أي انجلى عنك.

لجو بمعنى : دخلوا و توغلوا ، و الله يشبه الطغيان في هذه الآية كما النفق الموحش ، و هؤلاء بدل ان يرجعوا عن المسيــر فيه ، كلما رحمهم الله تراهم يتوغلون فيه أكثر فاكثر ، فيفقدون بصرهم و بصيرتهم.

و الواقع ان من العقبات التي تعترض طريق الايمان هو موقف الانسان من النعم ، فاذا رزقه الله

نعمة طغى ، و زعم : ان طغيانه هو السبب فيها ، كما تزعم الدول الاشتراكيــة المتقدمة ، ان نظامها الاقتصادي ، و ايدلوجيتها المنحرفة هي السبب في تقدمها ، أو كما تزعم الاخرى الرأسمالية : ان نظامها سبب تقدمها و حضارتها ، و قد ملأوا الدنيا ضجيجا بان الاقتصاد الحر هو سبب التقدم.

بينما نجد الرأسمالية حين زرعوها في العالم الثالث ، لم تنبت الا مزيدا من التخلف ، و كذلك الاشتراكية حين حقنوا بها العالم النامي ، لم تلد سوى الدمار ، و هكذا عرفنا بانه لا الاشتراكية و لا الرأسمالية هما سببا تقدم هذه الدولة أو تلك.

و العمه هو : العمى الذي يصيب الشخص منذ ولادته ، فلا يستطيع ان يميز شيئا أبدا ، بينما الذي يدركه العمى بعد أن يكون بصيرا مدة من الزمن ، فانه قد يستطيع ان يميز بعض الاشياء ، اعتمادا على ذاكرته و حواسه.

[77 - 76]و كذلك لو أخذهم الله بألوان العذاب ، فانهم لا يرجعون عن إنحرافهم ، و لا يتضرعون اليه ، بل تجدهم يعتمدون على هذا و ذاك من دون الله ، فالمجاعة يكون حلها عندهم بالاعتماد على معونات الانظمة الكافرة . بدل ان يكون علاجها بالعودة الى الله ، والتضرع اليه ، و تغيير الذات ، و السعي ، و التعاون ، و العلم ، و العدالة.

]ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ]جاء في رواية عن الامام الباقر - عليه السلام: -

"الاستكانة هو الخضوع ، و التضرع هو رفع اليدين ، و التضرع بهما " . (١)هناك نوعان من العذاب :

- 1عذاب الابتلاء : و هدفه تغيير الانسان " و لقد اخذناهم بالباساء و الضراء لعلهم يتضرعون " و عادة لا ينتفع البشر بهذا النوع من العذاب.

- 2عذاب الانتقام : و هو اذا انزل فلا مرد له ، كالعذاب الذي حل بفرعون و قومه ، لأنه آمن متأخرا ، و من دون فائدة . و هذا النوع من العذاب يهز الانسان من الأعماق الى درجة انه يبلس ، اي تختلط مشاعره ، و يبقى في حيرة ، ولا يعرف كيف يتصرف.

]حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ][٧٨] و بعد ان ذكرنا القرآن بالعقبات التي تعترض طريق الايمان ، يذكرنا الآن بالله و آياتــه ، فالانسان إذا عرف العقبات و الحجب التي تمنعه من الايمان ، و تحداها بقوة الإرادة ، و بتذكرة الله ، فانه يكون آنئذ مستعدا للتذكرة بالله ، و يفهم القرآن ، ويزداد به إيمانا.

]و هو الذي أنشأ لكم السمع و الأبصار[

و هما نافذتا العقل على المعرفة.

]و الأفئدة[

(1)المصدر / ص ٥٤٩

و هي أهم من السمع و الأبصار ، لانه لو عطب عن العمل فلن ينفعا أبدا ، الا اننا قلما نشكر الله على هذه النعم.

]قليلا ما تشكرون[

] [79]و هو الذي ذرأكم في الأرض و إليه تحشرون[

ذرأ بمعنى : خلق و أظهر ، و لعل كلمة " في الأرض " للدلالة على أن التراب كان أصل خلقة البشر ، و أن اليه يعود ، و منه ينتشر ، و يحشر تأرة اخرى.

] [80]و هو الذي يحي و يميت [

ان العالم مع ما فيه من تقدم تكنلوجي ، عاجز باسره ان يضيف الى الانسان لحظة واحدة من الحياة ، لأن هذا الأمر بيد الله وحده ، و هو الذي يميت ايضا ، و ليس الانسان وحده الذي يخضع لإرادة الله ، بل لا تجد ظاهرة في هذا الكون إلا و هي تنتهي اليه.

]و له اختلاف الليل و النهار أفلا تعقلون[

فالليل و النهار يتعاقبان ، ليس فقط في التناوب الزمني ، و انما ايضا في القصر و الطول ، و من أوتي البصيرة ، و نظر بعين قلبه الى اتقان تدبير الله في الليل و النهار تبصر أيضا بمعنى الحياة و الموت ، و قدرة الله المهيمنة عليهما.

[81]الانسان يهتدي لهذه الحقائق حينما يستفيد من عقله ، اما حين يعطله بالاسباب المختلفة ، كتقليد الآباء ، فانه أبعد ما يكون عن استيعاب هذه الحقائق الواضحة و القريبة منه.

]بل قالوا مثل ما قال الأولون[

[82]ماذا قال الاولون ؟

يرجعنا القرآن هنا الى السبب الجذري لعدم إيمان هؤلاء ، و هو الكفر بالآخرة ، و الذي سببه التشكيك أو الكفر بقدرة الله ، وإرادته اللامحدودة.

]قالوا أءذا متنا و كنا ترابا و عظاما أءنا لمبعوثون [يتعجبون كيف أن العظام الرميم تصير بشرا سويا ؟!

] [83]لقد وعدنا نحن وءاباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ]لقد زعموا بأن هذه الحقيقة أفكار رجعية متخلفة ، و نسوا ان مبدأهم كان من التراب ، و ان الذي خلقهم أول مرة لقادر على بعثهم من التراب مرة أخرى.

## سيقولون لله قل افلا تذكرون

## هدى من الآيات

لقد مهد السياق القرآني في سورة ( المؤمنون ) للتذكرة بالله سبحانه ببيان العقبات النفسية التي تعترض سبيل الايمان ، و بعدها جاءت الآيات تستثير أعمق مشاعر الانسان الفطرية . تلك التي تهديه لربه و خالقه . عبر تساؤلات فطرية . تفرض نفسها على وجدان الانسانفرضا ، فمن الذي خلق السموات و الارض ؟ و من بيده حاكمية هذه السماء المترامية الاطراف ، و الكون الذي لا نعلم حدوده ؟ و من هو صاحب القدرة العليا علينا ، فاليه يلتجئ الناس عند الشدائد ؟

و تجيب الآيات على هذه التساؤلات بوضوح : انه ( الله ( القاهر فوق كل شيء ، و ليس كمثله شيء ، و تتوجه اليه قلوب الناس بفطرتهم التي خلقهم الله عليها ، و كما قال الرضا (ع: (

"بالفطرة تثبت حجته (1) . "

(1)بحار الانوار / ج - 4ص ٢٣٣

اذن فما العائق امام ذكر الله ؟ و ما هي العقبة التي تقف أمام التقوى ، و تجعلنا غافلين مرة ، و مسحورين أخرى ، قد فقدنا الإرادة نتيجة لضغوط مختلفة داخلية و خارجية ، بل قد نهوى الى حضيض التكذيب و الشرك.

هذا التسلسل الباطل يتدرج عبره الانسان خلال مراحل هي:

- 1الغفلة : فعندما يغفل الانسان فانه يضع لبنة الاساس للحاجز الذي يحول بينه وبين كنه الحقيقة المنشودة ، فينسيه أبرز حقيقة في هذا الكون الواسع ، التي يقول عنها تبارك و تعالى :

"قالت رسلهم افي الله شك فاطر السموات و الأرض " ؟! . (١)مما يمهد للهوى و الشهوة ان يسدلا ستارهما امام نور العقل ، و ضياء الفطرة.

- 2و الذي يجعلنا لا نتقي عذاب الله و سخطه بالتقوى ، هي حجب الغفلة و الشهوة التي تجعل الانسان يتخبط في ظلام الجهل و العناد مخالفا أوامر عقله ، و وخزات ضميره ، و صرخات وجدانه.

- 3السحر : و هي مرحلة فقدان الإرادة الانسانية ، و الوعي البشري ، حيث أن الضالين يحاولون تضليل الآخرين ، فيؤثرون على فئة من الناس بمعتقداتهم ، التي ضلوا بها عن الله ، فيجعلونهم يرتكسون في بؤرة الغفلة و الشهوة ، لتسلب عنهم مشاعرهم ، فألاعين عمياء لا تبصر الحقيقة ، و الأذان صماء لا تسمع وحي الله - سبحانه - و حقائق الحياة ، و الألسن بكماء لا تتكلم ، الا في مجال اللهو و العبث ، و الاهتمامات الشخصية ، و المشاعر الأنانية ، فيدفعهم كل ذلك للمرحلة الاخيرة من مسيرة التسافل و السقوط.

(1)سورة ابراهيم / ١٠

- 4التكذيب : و نسأل أنفسنا لماذا نكذب بهذه الحقيقة الواضحة ، و نكفر ، و نسخر بهذه العقيدة الراسخـــة فـي اعماق النفس البشرية و نحن على وعي و ادراك بهذه المسألة ؟!

و لكن الخالق البارئ يرجع المسألة لعواملها الأولية ، و يلقي بمسؤولية الإنحراف على نفس الانسان فيقول:

"قــد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه و من عمي فعليها و ما انا عليكم بحفيـظ " . (١)٥ - و تبقى هناك عقبة كأداء و هي عقبة الاعتماد على الآلهة المزيفة ، التي خلقتها شهوات النفس ، و ظلام الجهل لتبرير واقعها المعاش ، و الإعتقاد بأن لله ولدا ، أو وسائل أخرى توصل اليه - سبحانه - غير التي بينها لهم ، و بأن هناك آلهة صغارا يمكن ان يشفعواللانسان من دون الله ، و يحجهم - سبحانه - بقوله : انه لا يتخذ ولدا ، و انتم تعلمون أيها البشر بفطرتكم ، و بهـدي عقولكم بأن الله هو مالك السموات و الأرض ، و صاحب العرش العظيم ، و عالم الغيب و الشهادة ، و الظاهر ، و الباطن . فكيف لا يعلم بوجود ولد لهأو شريك ؟! و انكم انما تخدعون أنفسكم ، و تتوهمون ، و تزعمون بوجود شركاء لله أو اولاد ، لتخلصوا انفسكم ، تنقذوها من غضب الله.

هذه هــي الحجب الخمس و المتدرجة التي لابد ان يخرقها المؤمن بإرادته - بعد ذكر الله - ذلك مما نستوحيه من السياق في هذا الدرس حيث يقول ربنا : " افلا تذكرون " اشارة الى حجاب الغفلة ، و يشير الى حجاب الشهوات بقوله : " افلا تتقون " والى حجاب التضليل و الإسحار

بقوله " : فأنى تسحرون " و حجاب(١) سورة الانعام / ١٠٤

التكذيب : " و انهم لكاذبون " و بالتالي الى اكبر الحجب و اخطرها و هو الشرك فيقول سبحانه : "فتعالى عما يشركون. "

ان هذه الوساوس من همزات الشياطين ، و الهمزة مفرد همزات ، و هي : الدفعة القوية ، و الشيطان يدفع بالانسان نحو الكفر ، و الشرك بالله دفعا قويا ، فعلى الانسان - الضعيف ، الغافل ، الظلوم ، الكفار - ان يتوسل بقوة الله و قدرته ، ليقيه شر هذه الهمزات لأنه لا حول له ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، و من دون التوكل على الله ، و الإعتماد عليه و الإستعاذة بقوته و الإعتصام بكلمته العليا ، فإنه سينهار أمام هذه الدفعات النفسية الشهوانية للشيطان - و صدق الله العلي العظيم - حينما يقول:

"و قل رب إعوذ بك من همزات الشياطين * و أعوذ بك رب ان يحضرون " . (١)و يلعب الشيطان دورين في حياة الانسان:

الاول : دفعه نحو الاعتقادات الخاطئة ، و الممارسات المنحرفة ، و لو بشكل تدريجي.

الثاني :الحضور الدائم له في النفس البشرية ، و دور المراقبة و المرافقة . حيثما تحرك و تفكر ، و على الانسان ان يستعيذ دائما بالله من الشيطان ، و الوسواس الخناس ، و اللجوء الى حصن الله ، و التمسك بحبله ، و عروته الوثقى.

و لكن كيف يستعيذ الانسان بالله من الشيطان ؟

و كيف يتجاوز عقبة الشرك و الاعتقاد بأن هناك قوة اخرى في هذا الكون تطاول(١) سورة المؤمنون98 - 97 /

قدرة الله سبحانه و تعالى ؟

ان العلاج النفسي لهذه العقبة هو تذكر الآخرة ، و عذاب القبر و البرزخ.

ومن كلام لأمير المؤمنين - عليه السلام - لمحمد بن ابي بكر ( رض ) عن الموت و عذاب القبر:

"يا عباد الله ما بعد الموت - لمن لا يغفر له - أشد من الموت و القبر ، فاحذروا ضيقه ، و ضنكه ، و ظلمته ، و غربته ، فان القبر يقول كل يوم : انا بيت الغربة ، انا بيت التراب . انا بيت الدود و الهوام ، و القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار. "

و في مقطع آخر يقول:

"يا عباد الله إن أنفسكم الضعيفة ، و أجسادكم الناعمة الرقيقة . التي يكفيها اليسير تضعف عن هذا ، فان استطعتم ان تجزعوا لأجسادكم و أنفسكم بما لا طاقة لكم به ، و لا صبر لكم عليه فاعملوا بما أحب الله ، و اتركوا ما كره الله. "

و يصور لنا القرآن مشاهد كثيرة من مشاهد الآخرة ، اذ يصور الانسان عندما تحضره الملائكة لقبض روحه ، فيصيح و يقول:

"رب ارجعوني لعلي اعمل صالحا فيما تركت. "

فهو يتمنى ان يعود للدنيا أياما معدودات ، يصرف فيها جميع طاقاته ، و ممتلكاته ، و قدراته في

سبيل الله ، فيصرف أمواله صدقة ، و قوة جسمه للعمل الصالح ، و فصاحة لسانه للدعوة و ذكر الله ، و عينه للإعتبار بخلق الله ، و البكاء على ذنوبه التي اقترفها، لكن الجواب صارم ، صاعق . لو نزل على جبل لهده . انها كلمة كلا .. ، و ان الفرصة قد انتهت ، و سنين حياتك قد انصرمت دون عودة.

اما كم يعيش الانسان ؟ و متى تكون الساعة ؟ فالله وحده هو العالم و لا عالم غيره ، و هذه الحقيقة تكشف لنا ان هذه الآلهة المزيفة التي يعتقد الانسان بأنها شريكة ، و امتداد لقدرة الله و قوته ، يجب ان تسقط من أعيننا ، و تتحطم في داخل نفوسنا ، لنعبد اللهمخلصين ، له الدين ، و لو كره المشركون.

**بينات من الآيات**

] [84]قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون[

ان كنتم تستفيدون من علمكم - و الإستفادة هي معيار الجهل و العلم - فالعلم يعطيه الله لمعظم الناس - و لو بقدر محدود - و لكن متى يكون الانسان عالما فقط ؟ عندما يستفيد من علمه و الا فهو جاهل ، و لو سألتهم من خالقكم و مالككم - و ما تحويه هذه السموات و الارضون - و من بيده الحاكمية العليا ؟

انه الله حيث يقول:

"ان الحكم الا لله يقص الحق و هو خير الفاصلين " . (١)و الذي عنده القدرة التنفيذية المطلقة في الكون الواسع ، لا يملك الانسان امامه الا التسليم و الخضوع.

] [85]سيقولون لله قل افلا تذكرون[

اذن فلمـــاذا يحجـزكم حجاب الغفلة عن هذا الرب العظيم ، الذي يملك الارض و من فيهـا ؟!

و هذه الكلمة لا تختص بالآخرين ، بل بنا جميعا ، لأننا لا نزال نخلد الى أرض(١) سورة الانعام / ٥٧

الغفلة ، و قد نتذكر ما دمنا في أجواء التذكرة ، و لكن عندما تواجهنا شهوة أو يصادفنا غضب اين يصبح ذكر الله ؟!

حينها تلتجئ النفس البشرية في خلق الأعذار و التبريرات لتلقي عن كاهلها نبعة المسؤولية ، و لذلك جعل الله سبحانه ذكره مستحبا شرعا ، و جعل من ذكره - من المؤمنين - حين قال:

"الذين يذكرون الله قياما و قعودا و على جنوبهم " . (١)ففي جميع الحالات المادية ، و الظروف النفسية ، يجعل الله ذكره ضروريا.

و نسال : ما هو الذكر الذي تعنيه الآيات ؟

ان الذكر هو تذكر الله حين تهم بالمعصية ، أو تشرع في ارتكاب الخطيئة . حينما تجد من يعاتبك داخل وجدانك على ما تفعل ، فلابد ان تذكر الله لتحسم صراع النفس لصالحها ، اما حين تفقد الذكر يموت الوجدان ، و ينتهي الإحساس ، فتميل الكفة لصالح الارادة الشريرةفي نفس الانسان.

] [86]قل من رب السموات السبع و رب العرش العظيم ]الله رب السموات السبع ، لأنه خلقها ، و اكمل خلقها ، طورا فطورا ، و اجرى الخلق كما الطفل عندما ينمو ، و يكبر ، فهو الذي خلقها ، و هو المسيطر عليها ، و المهيمن الذي يجري عليها سلطانه ، و قوانينه ، و انظمته ، و العرش

يعني : السلطة الفعلية على الكون ،و بهذا التساؤل تكمل مسيرة الاستدلال المنطقية على وجود الله مخاطبا بها العقل البشري ، و الفطرة الانسانية.

(1)سورة آل عمران191 /

] [87]سيقولون لله قل أفلا تتقون[

يجب ان يخشـــى الانسان من بيده السلطة ، فلماذا لا تخلع حجب التحدي و العناد و التكبـر ؟!

و الخشية هي الحجاب الفاصل بين التقوى و الانحراف ، و الايمان و الكفر.

] [88]قل من بيده ملكوت كل شيء[

الملكوت مبالغة في الملك ، كما الجبروت مبالغة في التجبر ، و الطاغوت مبالغة في الطغيان ، و ملك الله يشمل ما يظهر و ما يخفى ، لا كسائر الملوك و السلاطين الذين يهيمنون على ظاهر الناس دون باطنهم.

]و هو يجير و لا يجار عليه إن كنتم تعلمون[

ان الله قادر ان يمنع الآخرين عنك فيجيرك ، و لكن لا يستطيع احد ان يمنع عذاب الله و انتقامه عنك . لو اراد ذلك ، و هناك فكرة تنقل عن افلاطون و هي : اذا كانت السماء قوسا ، و البلاء سهما ، و الرامي هو الله فاين المفر ؟! و قد نقلت هذه الفكرة الى رسول الله (ص) فنزلت الآية " ففروا الى الله " و فرق بين الفكرة الاولى السلبية ، و الثانية الايجابية التي تدعونا ان لا نقف مكتوفي الأيدي حيـــن نرى البلاء ، بل نلجأ الى الله ، فنفر من الرامي اليه ، و من غضبه الى رحمته ، فنقرأ في الدعاء المأثور : " من أين لي الخير و لا يوجد إلا من عندك ؟! و من أين لي النجاة و لا تستطاع الا بك ؟ !الا الذي أحسن استغنى عن عونك و رحمتك ، و لا الذي أساء و اجتـرأ عليك خرج عن قدرتـك. "

[89]انك لو سألتهم عن كل ذلك:

]سيقولون لله[

بفطرتهم.

]قل فأنى تسحرون[

تخدعون من قبل الآخرين ، و تسلب منكم مشاعركم ، و إرادتكم.

] [90]بل أتيناهم بالحق و إنهم لكاذبون[

و الكذب مرحلة خطيرة من الكفر و الجحود ، حيث ينكر البشر الحق لا عن جهل به ، و انما عن وعي بانه الحق.

[91]و من أكبر كذبهم ادعاؤهم بأن لله ولدا أو شريكا ، و القرآن ينفي هذه الكذبة اذ يقول:

]ما اتخذ الله من ولد و ما كان معه من إله[

"من " تفيد الحصر ، و الآية رد على الذين يزعمون بان : الله منح قدرته و سلطانه لبعض الناس دون بعض ، و لو افترضنا ان مع الله آلهة أخرى:

]إذا لذهب كل إله بما خلق[

و جعل لخلقه نظاما خاصا به ، و لكنا نجد ان النظام الذي يحكم الذرة هو الذي يحكم المجرة ، و لو صح ما يزعمون لحدث التناقض بين هذه الالهة.

]و لعلا بعضهم على بعض[

و ما دمنا نلمس وحدة النظام و الخلق . اذن فالاله واحد لا شريك له ، و نجد فكرة تعدد الآلهة منتشرة في الأساطير اليونانية بكثرة ، و الفكرة العميقة في هذا المقطع من الآية هي : انه لو كانت توجد آلهة غير الله لكان لكل إله قدرة ذاتية ،و لسعى لمد قدرته و سيطرته من أجل الهيمنة على غيره ، و لاستحالت الحياة ، و لأدى ذلك الى فساد الكون.

"لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا. "

]سبحان الله عما يصفون[

و هو انزه و اقدس مما يصفه هؤلاء.

] [92]عالم الغيب و الشهادة فتعالى عما يشركون[

و لو كان ثمة آلهة غيره لكان أدرى بها ، لانه ذو العلم بما غاب و ما حضر.

] [93]قل رب إما تريني ما يوعدون[

حيث وعد الكفار و المشركين بالهزيمة و الدمار.

] [94]رب فلا تجعلني في القوم الظالمين[

فالبلاء اذا نزل عم ، و لا سبيل للتخلص من عذاب الله النازل على الظالمين و المشركين ، الا الانفصال عنهم ، و نكران أعمالهم . لا السكوت عنها لان الله يقول:

"و اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة. "

] [95]و إنا على ان نريك ما نعدهم[

من العذاب و الانتقام.

]لقادرون[

[96]و لكي تتخلص من العذاب ، و لا تشرك مع الظالمين ، يجب ان تواجه انحرافهم بالاستقامة على الحق ، و ذنوبهم بالطاعة لله . و لعل الآية تعتبر صورة جلية للتحدي ، و آية واضحة لعزة الله و قدرته ، و عزة المؤمنين به ، و قدرتهم في مواجهة أعداء الدين.

]ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون[

صحيح ان الله قادر على دفع عادية الكفار ، و صحيح انه يفعل ذلك متى ما اقتضت حكمته البالغة

، و لكن ينبغي الا يسبب ذلك في إساءة خلق المؤمنين ، و تجبرهم في الارض ، بل لابد ان يتمتعوا بأخلاقية سامية في التعامل مع الآخرين ، و الصبر على أذاهم و تحمل الصعاب الشخصية دون تبليغ الدعوة.

] [97]و قل رب أعوذ بك من همزات الشياطين[

و الهمزات هي الدفعات ، التي يقوم بها الشيطان لتضليل الناس و اغوائهم ، و ليس ضروريا ان يكون الشيطان ذلك الموجود الخفي الذي نتصوره ، بل قد يتجسد في صورة شهوة عارضة ، أو انسان منحرف يحاول التأثير عليك سلبيا.

] [98]و أعوذ بك رب أن يحضرون[

يجب علــى المؤمن ان يفر من مجالس الشياطين - الانس ، و الجن - كمجالس المعصية ، و الحديث على الناس.

[99]ان الانسان الذي لا يستعيذ بالله من الشيطان في الدنيا ، و لا يتقي الله . يدركه الندم حين لا ينفع الندم ، لذلك بعد ان حذر الله من الشيطان يتعرض لحال الانسان المنحرف حين الموت قائلا:

]حتى أذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون[

بصيغة الجمع تعظيما لله لعله يعبده مرة اخرى لكي يبني له مستقبلا جديدا بما يملك من طاقات.

] [100]لعلي أعمل صالحا فيما تركت[

و لكن يا للحسرة و الندامة ، إذ يأتيه الجواب:

]كلا إنها كلمة هو قائلها[

و لــو اعيد لما تغير ، و كان حري به ان ينتفع برسالة الله ، و بفرصة الدنيا لينقذ نفســه.

]و من ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون[

## إنه لا يفلح الكافرون

### هدى من الآيات

موقف السخرية من رسل الله أشد المواقف خطورة ، و هو نابع من حالة اللامبالاة و الزعم بان الخلق عبث لا هدف له ، و يبدو ان هذا الدرس الاخير من سورة المؤمنون ، يعالج هذا الموقف ، بتذكير البشر بالحساب الدقيق ثم الجزاء الأوفى الذي ينتظره بعد الموت.

و يبين السياق:

أولا : ان تلك العلاقات التي كانت سببا للجحود و الابتعاد عن الله ، سوف تنتهي يوم القيامة ( فلا انساب بينهم ) ، اذن يجب على الانسان ان لا توقفه هذه العقبة عن الايمان.

ثانيا : ان المقياس الحق لتقييم الانسان نفسه ، هو الميزان الذي يجسد القيم الحقيقة التي فطرت عليها العقول ، و تذكر بها رسالات الله ، و هو الذي نعرف عنطريقه هل إننا بخير أم على شر ، فاذا ثقلت موازين الانسان ، و كانت صالحاته اكثر من سيئاته كان من اصحاب الجنة ، و الا فانه من اصحاب النار ، و الآية التي تحمل هذا المضمون (١٠٢ - ١٠٣ (هي أكثر الآيات تحذيرا في

القرآن كما يبدو لي ، اذ من الذي يستطيع ان يطمئنولو نسبيا الى أن حسناته أكثر من سيئاته ؟! لهذا فان المؤمنين لا يتركون وقتا الا و استغلوه للعمل الصالح.

ثم يصف لنا القرآن بعض المشاهد من يوم القيامة ، يوم تلفح النار وجوه الكافرين و الظالمين ، حتى تنكمش اسنانهم و تحترق وجوههم فتظهر اسنانهم كلها ، و عندما يطلبون من الله العودة لاستئناف العمل يأتيهم الجواب ان اخسأوا ، و هي كلمة لا تقال الا للكلب ، فقد كنتم تهزؤون و تسخرون من عبادي يوم كانوا يدعونكم الى عبادتي ، و ها قد جزيتهم بالجنة و انتم في النار.

و يستمر السياق يبين لهؤلاء اخطاءهم ، و التي من أهمها انهم اعتقدوا بان لا رجعة بعد الموت ، و بالتالي لا مسؤولية ، فتمادوا في غيهم و انحرافهم ، و فاتت عليهم فرصة الدنيا التي يفترض ان يزرعها الانسان عملا صالحا ينفعه في الآخرة ، و ذلك لن يكون دونماايمان خالص بالله.

و حتى لا تكون هذه الشدة سببا لليأس يفتح الله بآخر آية من هذه السورة بابا للامل ، حينما يذكرنا بانه أرحم الراحمين ، و كم هو شقي ذلك الانسان الذي يسد على نفسه ابواب رحمة الله التي وسعت كل شيء.

**بينات من الآيات**

] [101]فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ[

حيث تتلاشى العلاقات النسبية ، فلا يعرف أحد أحدا ، و كل ينادي نفسي نفسي الا المؤمنين قال تعالى:

"الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين " ( الزخرف / ٦٧ )[ و لا يتساءلون[

عن انساب بعضهم ، لهول الموقف ، و لعدم فائدة ذلك ، اذ يكون لكل منهم شأن يغنيه عن شؤون الآخرين.

لقد كان ائمة الهدى عليهم السلام يجهدون أنفسهم بالعبادة بالرغم من صلتهم القريبة الى رسول الله (ص) ، و اذا سالهم احد عن ذلك تلو عليه هذه الآية ، يقول طاووس الفقيه : " رأيته - أي زين العابدين (ع) يطوف من العشاء الى سحر و يتعبد ، فلما لم ير أحدا رمق السماء بطرفه ، و قال : " الهي غارت تجوم سماواتك ، و هجعت عيون أنامك ، و أبوابك مفتحات للسائلين ، جئتك لتغفر لي و ترحمني و تريني وجه جدي محمد (ص) في عرصات القيامة ، ثم بكى و قال : و عزتك و جلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك ، و ما عصيتك اذ عصيتك و انا بك شاك ، و لا بنكالك جاهل ، ولا لعقوبتك متعرض ، و لكن سولت لي نفسي ، و اعانني على ذلك ستترك المرخى به علي ، فالآن من عذابك من يستنقذني ؟! و بحبل من اعتصم ان قطعت حبلك عني ؟! فواسوأتاه غدا من الوقوف بين يديك ، اذا قيل للمخفين جوزوا و للمثقلينحطوا ، أمع المخفين اجوز ؟! ام مع المثقلين أحط ؟! و يلي كلما طال عمري كثرت خطاياي و لم أتب ، اما آن لي ان استحي من ربي ؟! ثم بكى و انشأ يقول:

اتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي ثم اين محبتيأتيت باعمال قباح رزية و ما في الورى خلق جنى كجنايتيثم بكى وقال : سبحانك تعصى كأنك لا ترى ، و تحلم كأنك لم تعص ، تتوددالى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجة اليهم ، و انت يا سيدي الغني عنهم ، ثم خر الى الارض ساجدا ، قال : فدنوت منه ، و شلت برأسه و وضعته على ركبتي ، و بكيت حتى جرت دموعي على خده ، فاستوى جالسا ، و قال : من الذي اشغلني عن ذكر ربي ؟! فقلت : انا طاووس يا ابن رسول الله . ما هذا الجزع و الفزع ؟! و نحن يلزمنا ان نفعل مثل هذا و نحن عاصون جانون ، ابوك الحسين بن علي و امك فاطمة الزهراء ، و جدك رسول الله )ص) ؟! قال : فالتفت اليه و قال : هيهات هيهات يا طاووس دع عني حديث ابي و امي و جدي ، خلق الله الجنة لمن أطاعه و أحسن ، و لو كان عبدا حبشيا ، و خلق النار لمن عصاه و لو كان ولدا قرشيا ، أما سمعت قوله تعالى : " فاذا نفخ في الصور فلا انساب بينهم يومئذ و لا يتساءلون " ؟! و الله

لا ينفعك غدا الا تقدمة تقدمها من عمل صالح " . (١)[١٠٢] الجميع يقف امام الميزان و يده على قلبه ينتظر النتيجة ، اما الى الجنة و اما الى النار ، و لعل أصدق الموازين و انفذها حجج الله على خلقه ، الذين يجسدون في الدنيا قيم الرسالة و هم الرسل و الائمة.

]فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون[

اذ يصيرون الى نعيم الجنة ، و أهم من ذلك يصيرون الى رضوان الله.

] [103]و من خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ]و لعل معنى خسروا أنفسهم انهم خسروا فرصتهم الوحيدة في الدنيا.

[104]و أي عذاب يناله هؤلاء ؟

(1)بحار الانوار / ج - 46ص ٨١

]تلفح وجوههم النار[

و اللفــح هو ضربة السيف الشديدة ، ففي الآخرة تضرب النار وجوههم كأنها حد السيف.

]و هم فيها كالحون[

اي مكشرين عن أسنانهم بسبب احتراق شفاههم و انكماشها باللفح.

[105]و يأتي النداء لاصحاب النار حينما يستغيثون من النار:

]ألم تكن ءاياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون[

] [106]قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا و كنا قوما ضالين ]لقد شقوا بأعمالهم و لا يخلق الله شخصا شقيا بطبعه.

[107]و يضيفون:

]ربنا أخرجنا منها فان عدنا فإنا ظالمون[

إعطنا فرصة أخرى ، و جربنا مرة ثانية ، فاذا عدنا فاننا ظالمون فعلا.

] [108]قال اخسئوا فيها و لا تكلمون[

اخسأوا :بمعنى عودوا ، و هي كلمة يقولها للكلب صاحبه ، حينما يتبع أحدا ليؤذيه أو غير ذلك ، و يقولها الله لهم إهانة و تحقيرا ، و الواقع إن تحقيرهم أنفسهم في الدنيا هو الذي أهانهم في الآخرة ، اذ لم يرتفعوا الى مستوى تطبيق آيات الله ، و هبطوا الى حضيضاتباع الشيطان الرجيم المطرود من رحمة الله.

] [109]إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا ءامنا فاغفر لنا و ارحمنا و انت خير الراحمين ]لقد كانت جماعة منكم ، و بين ظهرانيكم ، يدعون ربهم و يؤمنون به ، لقد آمنوا ثم اعترفوا بالتقصير ، و سعوا نحو مرضاة الرب.

] [110]فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري و كنتم منهم تضحكون ]ان الاستهزاء من المؤمنين يحمل في طياته السخرية من مبادئهم ، و لكنه يحول الصراع الى صراع شخصي ، حيث يعادي الكفار اشخاص المؤمنين و يسقطون هيبتهم من أنفسهم ، و يحقرون كل أفعالهم و تصرفاتهم ، و بالتالي ، يصبح حاجزا نفسيا دون التفكير في المبادئ التي يدعون اليها ، و لعل ذلك هو ما اشار اليه القرآن هنا بقوله : " حتى انسوكم ذكري. "

اما قوله : " و كنتم منهم تضحكون " فهو الجانب السلوكي و العملي لحالتهم النفسية حيث كانوا يتخذونهم سخريا.

[111]لقد كان المؤمنون في الدنيا عرضة لالوان البلاء و المشاكل ، من السخرية و الضحك و .. و لكنهم استقاموا و صبروا فكان جزاؤهم الجنة.

]إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون[

و يبدو من الآية ان من أعظم الصبر الصبر على تجريح الشخصية ، و لذلك نجد ابرز صفات المؤمنين حقا انهم لا يأبهون باللوم و لا يخافونه.

[112]ثم يسألهم الله:

]قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين[

لنرى كيف كانت الدنيا التي بعتم الآخرة بها ؟!

[113]فيأتي الجواب:

]قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فسئل العادين[

و هذا التقدير يأتي نتيجة الفرق بين الآخرة و الدنيا من زاوية الزمان.

] [114]قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ]لو كنتم تعرفون بأن الحياة الحقيقية و الخالدة تبدأ بعد الدنيا.

أن وعـــي الزمن و امتداد نظر الانسان الى أبعد نقطة في المستقبل شرط أساسي للتكامل ، و لأن أسمى التكامل الايمان فان المؤمن يقدر الزمن في الدنيا بميزان الخلود الأبدي في الآخرة ، و لذلك يفوز بالصبر لأنه سبق و أن احسن التقدير.

ويبدو ان النظر الى الزمن و مقدار وعيه يشكل أساس الايمان بالآخرة ، و القرآن الحكيم يعالج هذه الناحية من نفسية البشر ، فلو كانوا يعلمون لعرفوا ان كل الفترة التي يقضونها في الدنيا قليلة في حساب الآخرة ، فلماذا خسارة الآخرة بهذه الفترة القليلة ؟!!

] [115]أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا و أنكم إلينا لا ترجعون ]هل كانت حياتكم الدنيا بلا هدف ؟!

أم هل من الحكمة ان يخلق الانسان للأكل و الشرب ثم يموت ؟!

] [116]فتعالى الله الملك الحق[

ان الله أنزه من ان يخلق الانسان بلا هدف . ثم اذا كان كل جزء في الانسان يؤدي هدفا معينا

فالعين تبصر ، و الاذن تسمع ، و الجوارح تقوم بأدوارها المحددة ، و الاعضاء الداخلية تقوم بمهامها ، و الغدد و الاجهزة و كل خلية تؤدي وظيفة خلقت لها ، و حتى الزائدةالدودية التي سماها كذلك الطب في أيام طفولتهم تقوم بدور محدد ، فهل من المعقول ان يكون خلق الانسان عبثا و بلا هدف محدد ؟! و نحن حين ننظر الى ما حولنا من اشعة الشمس و ضوء القمر و حركة الارض و نشاط الاحياء فيها ، و انظمة سائر الموجودات نجدها جميعا تخدموجود البشر ، و كذلك خلقت بهدف محدد ، فهل خلق الانسان نفسه لغير هدف ؟! سبحان الله !! و من هنا يسال أحدهم الامام الصادق (ع) : لم خلــق الله الخلق ؟ فيقول : " ان الله تبارك و تعالى لم يخلق خلقه عبثا ، و لم يتركهم سدى ، بل خلقهم لاخطار قدرته و ليكلفهم طاعته. "

]لا إله الا هو رب العرش الكريم[

فالله هو رب السلطة ، و لكنه السلطة الكريمة و الحكيمة و ليست العبثية حتى يخلقنا بلا هدف .

] [117]و من يدع مع الله إلها ءاخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ]فحتى لو عبد غير الله فانه لن يخرج بذلك عن سلطته و هيمنته و سيكون حسابه و جزاؤه عنده.

]إنه لا يفلح الكافرون[

ذلك الجزاء من الآية يتحدث عن الحساب ، بينما يتحدث هذا المقطع عن الجزاء ، و هنا نجد المعادلة بين اول السورة الذي يقول ( قد افلح المؤمنون ) و بين آخرها الذي ينفي الفلاح عن الكافرين.

و الشرك ليس بالضرورة ان يتصور الانسان وجود خالق غير الله ، بل قد يكون بطاعة الأشخاص ، من اصحاب المال و السلطة من دون حجة من الله.

[118]ان الانسان بطبيعته الترابية ، ينجذب الى أرض الشرك ، و التفكير بأن من يرزقه هو أبوه و أمه ، و بأن من يحكمه هو السلطة السياسية القائمة في بلده ، و بأن من يهديه هو الإذاعة و التلفزيون ، و لكن الانسان بعقله و إرادته و إيمانه يستطيع ان يقتلع نفسهعن هذه الطبيعة اقتلاعا ، و يحلق بها عاليا في سماء التوحيد ، حتى يرى كل الأمور بيد الله الذي يسلم هو له.

و من مشاكل الانسان ان هذه الطبيعة تبقى معه حتى اذا صار مؤمنا ، فتارة يستجيب لها و تارة أخرى يتحداها و يتغلب عليها ، و الشرك الذي يصيب البشر قد يكون خفيا فلا يخلو قلب من الشرك ، و لكن الله يعطي الانسان المؤمن برنامجا لمواجهة هذه المشكلة فيقول:

]و قل رب اغفر و ارحم و أنت خير الراحمين[

ان وقود الانسان المؤمن هو الاستغفار و قرن الاستغفار بالرحمة - في الآية - لكي لا نيأس فنترك الاستغفار و التوبة حين الذنب كبيرا كان او صغيرا.

و نحن بدورنا نسأله ان يرحمنا و يجعلنا من المؤمنين الفائزين بالفلاح.

## سورة النور

بسم الله الرحمن الرحيم

**فضل السورة**

جاء في رواية عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام:

"حصنوا اموالكم و فروجكم بتلاوة سورة النور ، و حصنوا نساءكم ، فان أدمن قراءتها في كل يوم أو في كل ليلة ، لم يزن احد من أهل بيته أبدا حتى يموت ، فاذا مات شيعه الى قبره سبعون الف ملك ، كلهم يدعون و يستغفرون له حتى يدخل في قبره " (١)(١) نور الثقلين / ج ٣ - ص ٥٧٠

**الإطار العام**

كمـــا السور الرفيع يصون بيت الانسان ، شرفه و قيمه و شرائع الرب في المجتمع.

و الاسرة كمشكاة ، تحفظ ضياء الفطرة و نور الوحي عن عواصف الشهوة ، و ادران الهوى.

و نور الله الذي هبط من السماء استقر في بيوت رفعها الرب بذكره.

حول هذا المحور تدور موضوعات سورة النور المباركة ، و لكن كيف ؟

نقرأ في فاتحة السورة اشارة الى السورة التي فرضها الرب ، و أنزل فيها آيات بينات ، بهدف تذكر الناس و تلك السورة التي فرضها الرب ، تصون بآياتها التي تفيض حزما فطرة البشر ، و ذلك :

اولا : بفرض حد الزانية و الزاني ، و تهديد مبطن بان المؤمنة و المؤمن لا يمارسان الزنا.

ثانيا : بتحصين البيت من عبث الفاسقين ، و فرض حد القذف على من رمى محصنا بالزنا ، من دون ان يأتي باربعة شهداء .

ثالثا : بتشريع حكم اللعان بين الزوجة و الزوج ، الذي يرميها بالفاحشة ، فعليهما القسم أربعا ، ثم التلاعن في الخامسة.

و يعالج القرآن مرض الشائعة ، التي تدور تاريخيا حول قصة الافك بينما تجري في كل اشاعة باطلة.

وهكذا يزكي القرآن الاجواء ، فلا قذف و لا شائعة ( و هي قذف جماعي. (

و يشير الى التطابق الاجتماعي ، بين الخبيثات و الخبيثين كما بين الطيبات و الطيبين (٢٦. (

و بعد ان تزكي الدروس الاولى اجواء المجتمع من لوث الزنـا و القذف و الاشاعة ، ينتقل السياق الى تقرير " حرمة البيت " و " حرية الانسان في بيته " فينهى عن دخول البيت الا بعـــد الإستيناس و السلام على أهله ، و الرجوع عنه عند افتقادالإذن لانه الازكى ، الا البيوت العامة و غير المسكونة.

و فـي إطار صيانة الاسرة يأمر القرآن بتنظيف الطرق و المراكز العامة من سهام إبليـس ، حيث يأمـر الرجال ، بغض الأبصار ، كما يأمر النساء بذلك و أيضا بالحجاب (٣١. (

و حين يسد الشرع الحنيف ابواب الفساد ، يفتح باب النكاح و يشجع عليه ، و يأمر بالعفة لمن لا يجد سبيلا الى النكاح ، و يعالج وضع العبيد و الاماء فيأمر بمكاتبة من علم منه الخير من العبيد و عدم إكراه الفتيات على البغاء ان اردن تحصنا (٣٣. (

علـــى أي أساس متين ، ترتفع قواعد البيت الطاهر ؟ أوليس على الوحي الذي يهبط اليه ، و ذكر الله الذي يصعد منه ؟! بلى . و لذلك كانت سورة القرآن هي سور الاسرة ، و من نور الوحي ضياء البيت ، و كانت الأسرة مشكاة ، فيها من نور الوحي مصباح تحيط به زجاجة شفافة ، من اولي الأبصار - الرجال الاتقياء حفظة الاسرة - يتقد شعاعا من شجرة المعرفة .. و كانت تلك البيوت التي اذن الله لها ان ترفع حصونا منيعة للوحي على مستوى الامة ، كما البيت حصن القيم على مستوى الاسرة (٣٨. (

و الامة التي لا تكرم بيت النبوة ، كما الأسرة التي لا تابه بالقيم تتساقط اطرافها و تغدو قيمها شديدة الظلام (٤٠. (

و نور المجتمع من بيت النبوة ، و نور الاسرة من ضياء القيم ، و يشرق هذا النور و ذاك بنور الله.

واشرقت السموات و الأرض بنور ربها ، ألم تر ان الله يسبح له من في السموات و الارض ، و لـــه الملـــك ، و هو الذي يزجي السحاب و يبعث بالبرق ، و يقلب الليل و النهار ، و انه خلق كل دابة من ماء ؟! بلى . انه الرب الذي أنزل آيات مبينات ، و هو يهدي من يشاءالى صراط مستقيم (٤٦ ( .

و هكذا يحيط السياق بالنواحي المعنوية للبيت الرفيع ، ثم يعالج موضوع الطاعة التي تعتبر من أهم ركائز التربية ، و يقول : لابد من التسليم لحكم الله و الرسول ، و الرضا بالحق كان له ام عليه ، و بعد ان ينعت المؤمنين بفضيلة الطاعة ، يلوم البعض ممن يدعونهاو يحلفون عليها ، و لكنهم حين يجد الجد يخشون (٥٣. (

و يأمرهم بالطاعة لله و للرسول ، ليهتدوا . و يذكر بان الله قد وعد المؤمنين الصالحين أعمالا باستخلافهم في الارض ، و يأمرهم بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاةو طاعة الرسول ، و عدم اليأس من روح الله ، و الا يحسبوا الكفار معجزين في الارض (٥٧. (

و يعود القرآن الى حرمة البيت ، و يأمرنا بالاحتشام امام الاطفال و الخدم ، فلا يدخلوا البيت - الذي هو عورة - اوقات الراحة الا بعد الاستئذان (٥٩. (

و يضع عن القواعد من النساء فريضة الحجاب ، كما يرفع عن الاعمى و الاعرج و المريض الحرج ( لعله للتساهل معهم ) ، كما يرفع الحرج عن الأكل في بيوت الأقارب و الأصدقاء ، و يأمر بالسلام عند دخول البيوت . و بعد ان يبين بعض آداب المجتمع ، و عدم التسلل الى البيت عند و جود الاستنفار للحرب أو ما أشبه ، الا بعد اذن القيادة ، ينهى عن دعاء الرسول كدعاء بعضهم بعضا ، و يحذر المتسللين لواذا من فتنة او عذاب أليم . و يختم القرآن الحديث مذكرا بأن الله محيط علما بالناس و انه ينبئهم بما عملوا.

## الاسرة سور الفضيلة

## هدى من الآيات

تبدأ هذه السورة المباركة بكلمتين:

الأولى : كلمة ( سورة ) و هي ما يعبر بها ، عن المجموعة المتكاملة ، من الآيات القرآنية.

فالسورة من جهة تشبه السور الذي يحيط بالبيت ، فيجعله مستقلا عن غيره ، و من جهة أخرى تشبه السوار الذي يحيط بالمعصم فيعطيه زينة و جمالا ، و كما ان لكل مجموعـــة بشرية سورا يحيط بهم ، و هو الاسرة التي تمثل الحجر الأساس في بناء المجتمـع.

الثانية : كلمة ( فرضناها ) فالسورة القرآنية جاءت لتكون ثابتة و مستقرة و مفروضة في المجتمع البشري ، و ليكون الاخذ بها و تطبيق آياتها فرضا على جميع عباد الله.

عندما ينزل الماء من السماء تذهب كل قطرة منه ، في اتجاه يختلف عما ذهبت اليه القطرات الاخرى ، اما الآيات القرآنية فلم تتنزل لكي تتناثر هنا و هناك ، بل قدر الله لها ان تكون وحدة متراصة ، ضمن سور واحد هو القرآن الكريم ، تطبق كمجموع فلا تتبعض ، بل لا يمكن الاخذ بقسم منها و ترك الآخر جانبا . هكذا فرض الله السورة.

و كما فرض الله السورة القرآنية ، فانه فرض الاسرة التي هي بمثابة سور الانسان و حصنه ، الذي يلجأ اليه في الحياة الاجتماعية ، و هذا ما تؤكده آيات هذا الدرس من سورة النور.

و حيث انه لا يمكن فرض شيء الا بالقوة ، فقد فرض الله حرمة الاسرة بقوة العقوبات ، التي أوجبها بحق من يعتدي على نظامها في المجتمع الاسلامي ، حتى اننا لنلاحظ شدة العقوبة عليه ، اذ يجلد كل من الزانية و الزاني مائة جلدة دونما رأفة.

و كما يفرض الاسلام عقوبة صارمة على الناكح بفاحشة ، كذلك يفرض على من يزني بلسانه ، فيرمي الابرياء و البريئات بتهمة الزنا . اذ يعتبر ذلك نوعا من الاعتداء على سلامة البيت الاسري ، الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بسمعته النظيفة ، فالبيت الذي تلوكه الالسنة ليس محلا آمنا للحياة المستقيمة.

و بقدر ما يؤكد القرآن الحكيم على حرمة الزنا ، فهو يؤكد على حرمة الاتهام ، إذ يطالب المتهم باثباتات كافية ، لان الاتهام ذاته قد يكون وسيلة لاشاعة الفاحشة ، و المجتمع الذي تسقط فيه قيمة الشرف العائلي يسهل عليه الهبوط الى حضيض الفواحش.

و بالرغم من الغلظة التي لابد ان نقضي بها على الانحرافات الخلقية فيالمجتمع ، يؤكد القرآن على ان للتوبة بابا و اسعا فتحه الله امام الناس كي يصلحوا ما افسدوه ، لان الله سبحانه و تعالى - و هو خالق الانسان - يعلم بما اودعه في هذا الكائن من شحنات غريزية تبرر الزلل و السقوط لديه ، فلو لا فتح ابواب التوبة له ، فانه لن يتمكنمن النهوض بعد السقوط.

**بينات من الآيات**

] [1]سورة أنزلناها و فرضناها و أنزلنا فيها ءايات بينات لعلكم تذكرون[

أنـــزل الله السورة فاوجبها ، و حافظ عليها ، برغم كل الاهواء ، و الشهوات و الضغوط ، التي تحاول سلب القرآن قدسيته و محتواه . و الآيات الواضحة التي جاءت في السورة ، هي التي تذكر الانسان . لأن قلبه مفطور على الحقائق ، و انما يحتاج الى مذكر يثير فيه كوامن الفطرة و دفائن العقل.

**الحدود الشرعية حصانة المجتمع**

[2]بالرغم من ان الاسرة تبدأ عمليا بالزواج ، الا ان القرآن لا يبدأ بذكره ، بل يذكر عقوبة الزنا أولا ، و السبب أنه من دون قانون يحصن الاسرة و يحفظها من الانحراف و الاعتداء ، تسقط كل القوانين الاخرى ، فما فائدة الحصن الذي لا يحميه جدار رفيع ؟

و ما هي فائدة الزواج في البلاد الغربية ، التي يجد فيها قطبا الاسرة الطريق مفتوحا لاشباع الغريزة الجنسية خارج البيت ؟

إذن تبدأ الاسرة في الواقع عندما تعطى لها حصانة ، بفرض العقوبة على من يخترقها.

]الزانية و الزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ]الجلدة هي الضربة التي تلامس جلد الانسان ، و لان ما تلذذ به الزاني كان عن طريق جلده ، الذي لامس جلد الجنس الآخر ، فعليه ان يتذوق الالم عقابا له على هذه اللذة المحرمة . صحيح ان النفس البشرية تتألم لمنظر انسان

عار يجلد مائة جلدة ولكن يجب ان لا ننسى انه انتهك حرمة دين الله . فاذا سمحنا له بالهرب من طائلة العقوبة ، فذلك يعني ان نعرض المجتمع كله للفساد ، لذا ينهانا القرآن ان نرأف بالزناة لأن التشديد عليهم يصلحهم من جهة ، و يكون رادعا للآخرين عن التورط في هذه الجريمة البشعة من جهة أخرى.

]و لا تأخذكم بهما رأفة في دين الله[

و لعله لذلك أكد القرآن هذا الحكم بقوله سبحانه:

]إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر[

ان الحدود الشرعية ذات قيمة أساسية في المجتمع ، و كثير من الناس تأخذهم الرأفة حينما يعدم قاتل أمام أعينهم ، أو يجلد الزاني ، او تقطع يد السارق ، دون ان يعرفوا خلفية هذا العمل العظيم ، فاعدام القاتل - مثلا - يمنع القتل عن الكثيرين ، و بالتالي يمنح الحياة للمجتمـــع ، و هكذا جلد الزاني يحصن الاسرة ، و قطع يد السارق يحافظ على ثروات النــاس.

وهكذا اذا انتشر الزنا في المجتمع فان بيوتا و أسرا ستتدمر ، و ان اطفالا ابرياء سيضيعون ، او سوف يتربون على العقد المتراكمة ، التي تتحول الى جرائم بشعة .أوليس اكثر الذين دمروا الحضارات كانوا من ابناء البيوت الفاسدة التي لم تعرف شرفا للأسرة ؟

و لان هذا القسم من الناس لا يعرفون كل هذه الحقائق ، تأخذهم الرأفة السلبية على حساب الدين ، فقد يعطلون الحدود . و لكن من يؤمن بالله ، و يعلم بانه أرأف بعباده منه ، و انه عندما يأمر بجلد الزاني ، فان في ذلك مصلحة لكل الناس بل للزاني نفسه ، لا تأخذهذه الرأفة .

ثم يقول ربنا:

]و ليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين[

لابد ان يكون الجلد في محضر من المؤمنين ، لان قيمة العقوبة لا تكمن في أثرها على الجاني فحسب ، بل لابد ان تنعكس على المجتمع . و الواقع ان حد الزنا ليس واحدا ، بل هناك ظروف مختلفة ، تختلف العقوبة بموجبها ، و فيما يلي حديث شريف يجمع بين مختلف الحدود:

جاء في تفسير علي بن ابراهيم : " انه احضر عمر بن الخطاب ، ستة نفر أخذوا بالزنا ، فأمــر ان يقام على كل واحد منهم الحد ، و كان أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - جالسا عند عمر ، فقال : يا عمر ليس هذا حكمهم ، قال : فأقم أنت عليهم الحد ، فقدم واحدا منهم فضرب عنقه ، و قدم الثاني فرجمه ، و قدم الثالث فضربه الحد ، و قدم الرابع فضربه نصف الحد ، و قد الخامس فعزره ، و أطلق السادس ، فتعجب عمر و تحير الناس . فقال عمر : يا ابا الحسن ستة نفر في قضية واحدة أقمت عليهم خمس عقوبات و اطلقت واحدا ليس منها حكميشبه الآخر ؟ !فقال : نعم اما الاول فكان ذميا زنى بمسلمة فخرج عن ذمته فالحكم فيه بالسيف ، و اما الثاني فرجل محصن زنى فرجمناه ، و اما الثالث ، فغير محصن حددناه ، واما الرابع ، فرق زنى ضربناه نصف الحد ، و اما الخامس فكان منه ذلك الفعل بالشبهة فعزرناهو أدبناه ، و اما السادس مجنون مغلوب على عقله سقط

منه التكليف(1) . "

**العفة سور المجتمع**

] [3]الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة و الزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك[

من طبيعة الحياة الاجتماعية ان الشرفاء من الرجال او النساء - لا فرق - ، لا يبحثون الا عن نظائرهم ، بينما نجد عكس ذلك لدى الهابطين خلقيا من الناس ، الذين يبحثون عن امثالهم ، لذا و لخطورة الاختلاط ، فان الله يريد فصل مجموعة الزناة و الزانيات عن المجتمع ، ليحصنه بسور العفة و الشرف . و لعل في ربط كلمة الشرك بالزنا ، اشارة الى ان الزنا نوع من الشرك الخفي ، أو ليس ينطوي على عبادة الشهوات و الهوى ؟

]و حرم ذلك على المؤمنين[

لقد جاءت في هذه العبارة القرآنية رواية مأثورة عن الائمة (ع) ، في أنه يحرم نكاح الزانية أو الزاني و لذلك يجب على المؤمنين الابتعاد عن مجاميع الزناة ، نعم اذا تاب الزاني أو تابت الزانية جاز نكاحهما.

فقــد روى محمــد ابن مسلم عن الامام ابي جعفر عليه السلام في قول الله عز و جل " : الزاني لا ينكــح إلا زانية أو مشركة " قال : هم رجال و النساء كانوا على عهد رسول الله ، مشهورين بالزنا ، فنهى الله عن اولئك الرجال و النساء ، و الناس اليوم على تلك المنزلة ، من شهر شيئا من ذلك أو أقيم عليه الحد فلا تزوجوه حتى(١) نور الثقلين / ج ٣ - ص ٥٧٠

تعرف توبته . (١(

و لعل معنى كلامه (ع) و الناس اليوم على تلك المنزلة ، ان سيرة الرسول تجري على الناس اليوم ايضا.

**القذف بين الحد و التوبة**

] [4]و الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة و لا تقبلوا لهم شهادة أبدا و أولئك هم الفاسقون ]هنا يفرض الله عقوبة شديدة على من يرمي المحصنات ، بتهمة الزنا دون ان يأتي بأربعة شهداء عدول على ذلك ، ممن شهدوا الحادثة بأم أعينهم.

و لا يكتفي بذكر هذه العقوبة الشرعية ، بل يذكر عقوبة قضائية رديفة لها ، اذ يجب نبذ مثل هذا الانسان بعد اجراء حد القذف عليه ، باسقاط اعتباره في المجتمع ، لانه بعمله هذا يكون قد فقد عدالته ، فلا شهادة له بعد ذلك ، ليس فقط في قضية الزنا ، بل و ايضا فيسائر القضايا الاجتماعية ، كالعقود المالية ، و اثبات الهلال ، و سائر الموضوعات . و في ذلك تأديب معنوي له ، بالاضافة الى التأديب البدني بالجلد.

و لا نجد كالقذف ، عقوبة صارمة على اللسان في التشريعات الاسلامية ، فلو قال شخص : ان فلانة زنت . عليه ان يحضر العدد الشرعي من الشهود العدول ، و لو شهد أثنان بالزنا ثم قالا ان هناك شخصين آخرين رأيا ما رأينــاه ، و هما في الطريق لا يمهلان ، انما يجلد كل منهما ثمانين جلدة على الفور ، اذ لا تثبت شهادتهما الا اذا(١) المصدر /ص ٥٧٢

دخل أربعتهم دفعة واحدة ، ليشهدوا لدى الحاكم على عملية الزنا . و الاسلام الذي فرض عقوبة الجلد أو الرجم على مرتكب الزنا ، هو الذي منع قبول الشهادة لأقل من أربعة ، و هل تقع عملية الزنا علانية حتى يتمكن هذا العدد من الشهادة عليها ؟

ان الجرائم الاخرى كالقتل و السطو يمكن ان تحدث أمام الناس ، أما الزنا فان الحياء البشري الذي أودعه الله في فطرة كل انسان يمنع وقوع هذه العملية جهارا أمام الآخرين ، فكيف يرى هذه العملية أربعة و بكل وضوح ؟ انه لا يقع الا في حالات نادرة جدا مما يدل على ان هذه العقوبة الشديدة سوف تختص واقعيا بالذين يستهترون الحدود الشرعيــة ، و بآداب العرف العام ، دعنا نقرأ النصوص التي تبين أحكام الشهادة على الزنــا:

عن ابي بصير عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام:

"لا يرجم الرجل و المرأة حتى يشهد عليهما أربعة شهداء على الجماع و الايلاج و الادخال كالميل في المكحلة " . (١)وعن حكمة اشتراط الشهود الاربعة ، يروي ابو حنيفة امام المذهب الحنفي عن الامام الصادق عليه السلام ، فيقول قلت له : ايهما أشد الزنا أو القتل ، قال : فقال : " القتـــل " ، قـال ) ابو حنيفة ) فقلت : فما بال القتل جاز فيه شاهدان ، و لا يجوز في الزنا الا أربعة ؟ فقال لي : " ما عندكم فيه يا ابا حنيفة ؟ " قال : قلت ، ما عندنا فيه الا حديث عمر : ان الله اجرى في الشهادة كلمتين على العباد ، قال : " ليس كذلك يا ابا حنيفة ، و لكن الزنا فيه حـدان و لا يجوز ان يشهد كل اثنين على واحد . لأن الرجل و المرأة جميعا عليهما الحد ، و القتل انما يقام الحد على القاتل ، و يدفع عن المقتول " . (٢)(١) المصدر / ص ٥٦٩

(2)المصدر / ص ٥٧٤

و انما يقصد الاسلام من هذا التشدد في مسألة الشهادة على الزنا ، المحافظة على الحياة الاسرية في المجتمع من التفتت ، و الانهيار . و كما ان الزنا من أشد عوامل انهيار الاسرة فان الاتهام به يؤدي الى ذات النتيجة تقريبا ، إذ انه من الجرائم التي يمكن الاتهام بها سريعا ، و هي تدغدغ غرائز الناس خصوصا المعقدين جنسيا ، و ليست مثل جريمة القتل و غيرهـا ، لذلك شدد الاسلام على العقوبة من جهة ، و على الشهادة من جهة أخرى ، و كلا الامرين يهدفان الى شيء واحد هو صيانة الاسرة ، و المحافظة على العفة و الشرف في الحياة الاجتماعية.

وقد اعتبر القرآن من يقذفون المحصنات بالزنا ، دون الاتيان باربعة شهود بأنهم فاسقون ، لانهم بعملهم هذا يوجهون أكبر ضربة لشرف المجتمع ، الذي جاءت الاديان السماوية لاصلاحه ، و احكام بنائه.

] [5]إلا الذين تابوا من بعد ذلك و أصلحوا فإن الله غفور رحيم ]ليس جديدا على من يقرأ القرآن ، ان يلحظ لحوق كلمة الاصلاح بالتوبة ، فكثيرا ما تكرر ذلك في مواضع مختلفة من القرآن الكريم ذاته ، ذلك لان شرط قبول التوبة ان يصلح الانسان ما أفسده بذنوبه ، و الله سبحانه يؤكد لفئة التائبين ، بأن مغفرته و رحمته سوف تشملهم ان هم رجعوا الى طريق الحق بعد الانحراف ، و تداركوا ما فاتهم بالجهد المخلص و العمل البناء ، و اصلاح ما أفسدوه بذنوبهم ، فاذا اتهموا المحصنات بالفاحشة و سقط شرفهن بذلك ، و جب عليهم الاعلان عن كذبهم ، و الاستعداد لأجراء الحد عليهم ، لإعادة الاعتبار اليهن ، فقد قال سماعة : سألته عن شهود الزور ؟ قال : فقال : يجلدون حدا ليس له وقت ، و ذلك الى الأمام و يطاف بهم حتى يعرفهم الناس ، و اما قول الله عز و جل " : ولا تقبلـوا لهـم شهادة أبدا الا الذين تابوا " قال : قلت : كيف تعرف توبته ؟ قال : يكذب نفسه

على رؤوس الخلائق حتى يضرب و يستغفر ربه ، و اذا فعل ذلك فقد ظهرت توبته . (١)فمن يتوب بعد الزنا يوفر الله له اسباب الزواج ، كما يرزق من تاب عن السرقة و اعاد الحقوق للناس رزقا حلالا ، و كذلك من تاب من بعد ان استسلم لضغوط السلطة التي تعرض لها ، يوفر له مكانا آمنا يأوي اليه و يرفع عنه الضغوط.

و هكذا يشجع الله عباده على التوبة ، و الرجوع اليه ، حينما يعدهم بالمغفرة و الرحمة اذا ما تابوا و اصلحوا.

(1)المصدر / ص ٥٧٥

**كيف يواجه المسلمون افك المنافقين ؟**
**هدى من الآيات**

في اطار فرض قانون الاسرة في المجتمع - و هو ما بينه القرآن في الدرس السابق -بعدما مر من بيان العلاقة بين الروح الايمانية ، و بين الاسرة المؤمنة في جانب عقوبة الزنا ، و عقوبة القدف به ، تبين الآيات الكريمة العلاقة السليمة بين الزوج و زوجته في هذه المسألة الحساسة ، حيث شرع الاسلام اللعان حلا للذين يقذفون ازواجهم بتهمة الزنا ، كبديل للشهود ، و اللعان هو ان يشهد الزوج اربع شهادات بزنا زوجته ، تحتسب كل واحدة منها بمثابة شاهد ، ثم يستنزل في المرة الخامسة لعنة الله عليه ان كان كاذبا هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تشهد الزوجة أربع شهادات بالبراءة ، و في المرة الخامسة تقول ان غضب الله عليها ان كان زوجها صادقا في إتهامه لها بالزنا.

و لماذا تختلف تهمة الزوجة بالزنا عن تهمة غيرها ؟ انما للعلاقة الخاصة بين الزوج و زوجته . فقد يكتشف الزوج من زوجته مالا يمكن اكتشافه من قبل الآخرين ، و لولم يضع الاسلام قانونا خاصا لهذه العلاقة ، لانهارت اسر بكاملها ، لعدم وجود ما ينظم علاقة الزوج بزوجته في حالة التهمة و القذف.

بعدئذ يتعرض السياق القرآني لقضية هامة وهي مسألة ( الافك ) و مع ان مورد النزول في هذا المقطع القرآني ، يختص بتهمة الزنا التي الصقها البعض بزوجة الرسول )ص) ( مارية القبطية ) على احد الاقوال ، الا ان السياق يؤكد على ضرورة وقف امثال هذه التهمة ، التيتشيع في المجتمع ، و الوقوف في وجه من يختلقونها أو يروجون لها ، و توحي الآيات هذه ، بالحقائق التالية:

أولا : ان انطلاق التهم ، عادة ما يكون ، من مجموعة يلتفون حول بعضهم ، و يسمي القرآن هؤلاء ( بالعصبة. (

و تشكل هذه العصبة تجمعا طاغوتيا ، لا يعتمد على القيم الاسلامية في علاقاتهم ، لانهم يختلقون التهم الباطلة ، و يفترون الاخبار الكاذبة ، و يبثونها في المجتمع ، كما تنفث الافعى السم في ضحيتها.

ثانيا : ان المجتمع الصالح هو المجتمع المحصن ضد التهم و القادر على اكتشاف كذب التهمة ، و ردها الى صاحبها بسرعة فائقة ، اما المجتمع الهزيل الذي تتلاقف أبناءه التهم الباطلة ، لنشرها دون العلم بما ورائها من هدف خبيث ، يهدد سلامة المجتمع فانه يتحطم سريعا . إن حرمات ابناء المجتمع و اعراضهم مهددة بعبث المعتدين.

وهكذا يعرف المجتمع الفاضل الرشيد منذ البدء خطورة التهم الباطلة ، فيسعى لردها حفاظا على سلامة كل فرد من ابنائه.

ثالثا :يؤكد القرآن الحكيم على نفع هذه الشائعات بالنسبة الى المجتمع المؤمنلانها تكشف طبيعة بعض افراد المجتمع ، اذ يكشف مثيري التهم ، و مدى ضحالة انتمائهم للمجتمع الايماني ، كما يكشف المسرعين لاستماعها منهم ، مما يعطي فرصة كبيرة لاصلاحهم من قبل الموجهين.

**بينات من الآيات**

**حكمة اللعان في الاسلام**

] [6]و الذين يرمون أزواجهم و لم يكن لهم شهداء إلا انفسهم[

من الصعب جدا ان يعيش شخص يتهم زوجته بتهمة كالزنا بسعادة و اطمئنان ، و لكي لا تكون الاسرة محلا للصراع بين الزوجين فتفرز ابناء معقدين ، حاقدين على المجتمع ، لنشأتهم في جو موبوء ، بل تكون الاسرة بيتا للوداعة ، و دارا للأمان ، لذلك شرع الاسلام اللعانالذي ينهي العلاقة بين الزوجين ابديا و يذكر الرواة قصة طريفة لنزول هذه الآية تبين بعض أحكام اللعان.

كما تعكس كيفية معالجة الاسلام للمشاكل الاجتماعية . تقول الرواية التي ينقلها المفسر

المعروف علي بن ابراهيم ان الآية نزلت في اللعان ، و كان سبب ذلك أنه لما رجع رسول الله (ص) من غزوة تبوك جاء اليه عويمر بن ساعدة العجلاني و كان من الانصار ، فقال : يارسول الله ان امرأتي زنى بها شريك بن السمحاء و هي منه حامل ، فأعرض عنه رسول الله (ص) فاعاد عليه القول ، فاعرض عنه ، حتى فعل ذلك أربع مرات ، فدخل رسول الله (ص) منزله ، فنزل عليه آية اللعان ، فخرج رسول الله (ص) بالناس العصر و قال لعويمر : ايتني بأهلك فقد أنزل الله عز و جل فيكما قرآنا ، فجاء اليها فقال لها : رسول الله يدعوك ، و كانت في شرف من قومها فجاء معها جماعة ، فلما دخلت المسجد قال رسول الله )ص) لعويمر : تقدم الى المنبر و التعنا فقال : كيف اصنع ؟ فقال : تقدم و قل : اشهد بالله اني لمن الصادقين فيما

رميتها به ، فتقدم و قالها ، فقال رسول الله (ص) : اعدها ، فاعادها حتى فعل ذلك أربع مرات ، فقال له في الخامسة : عليك لعنة الله ان كنت من الكاذبين فيما رميتها به ، فقال له في الخامسة : ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين فيما رماها به (1)ثم قال رسول الله (ص) : ان اللعنة موجبة ان كنت كاذبا.

ثم قال له : تنح ، ثم قال لزوجته : تشهدين كما شهد و إلا اقمت عليك حد الله ، فنظرت في وجوه قومها فقالت : لا اسود هذه الوجوه في هذه العشية ، فتقدمت الى المنبر و قالت : اشهد بالله ان عويمر بن ساعدة من الكاذبين فيما رماني ، فقال لها رسول الله : اعيديها ، فاعادتها حتى اعادتها أربع مرات فقال لها رسول الله (ص) : العني نفسك في الخامسة ان كان من الصادقين فيما رماك به . فقالت في الخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين فيما رماني به ، فقال رسول الله (ص) : ويلك انها موجبة ان كنت كاذبة ، ثم قال رسول الله (ص) لزوجها : اذهب فلا تحل لك أبدا . قال : يا رسول الله فمالي الذي اعطيتها ؟ قال : ان كنت كاذبا فهو أبعد لك منه ، و ان كنت صادقا فهو لها بما استحللت من فرجها . (٢)و معنى الآية ان من يتهم زوجته و لم يستطيع احضار الشهود الشرعيين في مثل هذا المورد ، فعليه ان يحلف بالله أربعة ايمان ، بانه صادق في نسبة الزنا الى زوجته.

]فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ][٧] [ و الخامسة أن لعنت الله عليه ان كان من الكاذبين ]عند اللعان يقول الشخص : لعنة الله علي ان كنت من الكاذبين ، و لكن الله(١) المصدر / ص ٥٨٠

(2)المصدر / ص ٥٨٠

269 + 8

سبحانه و تعالى يقول " : ان لعنة الله عليه " بضمير هو لكي لا تظهر و كأن اللعنة على من يقرأ القرآن.

] [8]و يدرؤا عنها العذاب ان تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ]فاذا اقسمت بالله أربع مرات على كذب زوجها أرتفع عنها الحد ، فلا جلد و لا رجم ، و ان لم تفعل ذلك فكأنما صادقت على تهمة زوجها لها بالزنا.

] [9]و الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ]في الذي يدعيه في حقها ، و هكذا تلعن نفسها ان هي ارتكبت الزنا ، و كان بالتالي اتهام زوجها لها صحيحا.

] [10]و لولا فضل الله عليكم و رحمته و أن الله تواب حكيم [اذ لولا فضل الله و توبته لعذب من يقذفون ازواجهم ، لان القذف تهمة عظيمة عند الله ، و لا يجوز لاحد اتهمام الآخرين لمجرد الظن أو حب الانتقام ، و جواب " لولا " معروف من خلال السياق ، و لعل الآية (١٤) تشير اليه أيضا حيث يقول ربنا سبحانه : " ولو لا فضل الله عليكم و رحمته في الدنيا و الآخرة لمسكم فيما افضتم فيه عذاب عظيم. "

## الحلف في القانون الاسلامي

ومما يثير التفكير هنا ، مدى اعتماد الاسلام على روح " الايمان " في الانظمة الاجتماعية التي يشرعها ، اذ يشكل الحلف مثلا أحد اعمدة النظام الاسلامي في القضاء ، و عندما يفقد المجتمع روح الايمان ، و يفقد الالتزام بما يقول ، وما يحلف بهاذن لا يقدر على تنفيذ قيم الرسالة ، ولا يمكن ان يكون بالتالي نظامه نظاما اسلاميا باي حال.

و بالرغم من ان المجتمعات البشرية اليوم ، وصلت الى حد من التقدم التكنولوجي يبهر الانسان ، الا انها مازالت فاشلة في الانظمة الاجتماعية و الانسانية ، فلا يجد الفرد في المجتمع غير المؤمن وازعا من الحلف بالله كذبا من أجل بضع دنانير ، بينما ميزة المجتمعالمؤمن تخرج ابناءه من الحلف كاذبا.

و لو راجعنا تاريخ الرعيل الأول من المسلمين ، لعرفنا الى أي حد كان النظام القضائي ناجحا آنذاك ، فلقد كان المجتمع الاسلامي يسير من قبل الحكومة الاسلامية ، و تحل جميع مشاكله دونما اي صعوبة ، ذلك لان المؤمنين يتحرجون من جعل الله عرضة لايمانهم حتى ولوكانوا صادقين ، و كان البعض منهم مستعدا للتنازل عن حقه ، و دفع مبلغ كبير من المال ، و لم يكن مستعدا للحلف بالله العظيم.

و ننقل قصة الامام زين العابدين ، كشاهد على ذلك ، فقد رفعت احد مطلقاته دعوى ضده عند القاضي ، مطالبة أياه بالمهر الذي كان يبلغ اربعمائة دينار ذهبا ، فلما ترافعا عند القاضي ، و انكر الامام انها تطلبه شيئا ، طالبه القاضي بالحلف فرفض فحكم عليه ، و دفعالامام المهر كاملا فلما خرج من عند القاضي سأله ابنه الامام الباقر (ع) قائلا : لماذا لم تحلف بالله يا أبتاه ؟ أو لم تكن على الحق ؟!

فقال الامام (ع) : بلى . و لكن الله اكبر من ان احلف به على اربعمائة دينار.

هكذا كانوا يتحرجون ، و على هذا قامت قواعد المجتمع الاسلامي.

## الأفاكون و مسؤولية المجتمع المسلم

] [11]إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم[

من الذين اتهموا زوجة الرسول ؟

سؤال لا تهمنا الاجابة عليه بالاسماء ، بل تهمنا طبيعة هذه العصبة و هدفهم من التهمة ، فقد كان هدفها التنقيص من كرامة الرسول (ص) و العصبة هم الذين يتعصبون لبعضهم ، على أساس المصالح المادية ، لا على أساس القيم ، و لاحتمال ان يعتري المؤمنين تصور خاطئحول الامر ، فان القرآن يوجههم قائلا:

]لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم[

لان العاقبة سوف تنتهي الى خير ، باعتبارها امتحان للمجتمع المؤمن ، فاذا تغلب المؤمنون على هذا الامر و أمثاله ، فانه سيكون مجتمعهم فاضلا و قادرا على مقاومة الضغوط و المشاكل المختلفة.

]لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم[

كما يكون الانسان مسؤولا عن سلوكياته و تصرفاته ، فان مختلقي التهمة ضد الرسول )ص) سوف يتحملون مسؤولية كلامهم في الدار الدنيا ، بكشفهمم و تعرية اشاعاتهم الباطلة ، وفي الآخرة بالعذاب الأليم.

]و الذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم[

و يبدو ان السياق يشير الى امام هذه العصبة ، الذي يتحمل وزرها ، بان له عذابا عظيما ، فالعادة تقضي بوجود كبير لهذه العصبة ، يكون مصدر تلفيق التهمة ، او لا اقل يعطي الشرعية لها ، و يبدو ان كبار السن الذين تنزوي عنهم الحياة ،و يشعرون بان شمس عمرهم تجنح للافول ، هم المبادرون لبث هذه التهم ، لانهم اكثر سلبية و حسدا ، و لعل المراد منه هنا هو شيخ المنافقين في عهد الرسول (ص. (

الــى هنا يكون الامر مقتصرا على ( التهمة ( اما الحديث الآتي فانه ينتقل الى جانب آخر ، حيث يحدد الله فيه المسؤولية ، التي تقع على كاهل المجتمع ، تجاه مثل هذا الامر فيقول:

] [12]لــولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون و المؤمنات بأنفسهم خيرا و قالوا هذا إفك مبيــن ]يجب على المجتمع المؤمن قبل اتخاذ اي موقف ، ان يعرف خلفيات التهمة بالإفك ، حيث انها لا تقتصر على شخص الرسول فحسب ، بل تعنيهم ايضا ، و تهدد سلامة مجتمعهم ، فهؤلاء لا يهدفون التنقيص من كرامة الرسول فحسب ، بل يريدون ايضا التنقيص من شرف الامة الاسلامية، عن طريق بث التهم الباطلة ضد قيادتها ، و عندما يتجاوب المؤمنون مع ما يصبو اليه هؤلاء ، فيظنون بزوجة الرسول (ص) سوءا ، فهل يبقى بعد ذلك شرف سليم في الامة ، لا تناله ألسنة هؤلاء المنافقين ؟!

اذن لابد للذين يستمعون هذه التهم من التعرف على طبيعتها ، و كشف الدوائر التي تقف وراءها ، و على المجتمع ان يكون رشيدا فاضلا ، يقيم الافكار و الشخصيات.

فما يدور من صراع جاد اليوم بين الاستعمار و الحركات الرسالية - التي تهدف تقويض الكيان الاستعماري الجاهلي ، و اقامة حكومة اسلامية عادلة - صورة حية لما دار بالامس بين المنافقين الذين كانوا يختلقون التهم ، و بين المجتمع المؤمن بقيادة الرسول.

اذ يسعى الاستعمار بكل ما يملك من قوى شيطانية ، للمس من كرامة الامة الاسلامية عبر بث التهم ضد الحركات الرسالية ، و واجب الامة الاسلامية اليوم هو بالذات مسؤولية المؤمنين بالامس ، بأن تعتبر نفسها طرفا في الصراع ، و ان تكشف الدوائر الاستعمارية الواقفةخلف الاباطيل و التهم المختلقة ضد البررة من ابنائهما.

فالله سبحانه و تعالى يقول : ان هذه التهم تستهدف قبل كل شيء سلامة المجتمع المعنوية ، و على المجتمع ان يظن بنفسه خير ، و يتوجه جديا لمواجهة هذه التهم " لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون و المؤمنان بأنفسهم خيرا و قالوا هذا إفك مبين " و يطالب المتهمين بالادلة الدامغة ، فلو أتهم شخص آخر بأنه جاسوس دون أدلة ، فان المتهم هو الجاسوس حقا ، لان الجاسوس هو الذي يخدم المصالح الاستعمارية التي تستهدف الحركات التحررية الرسالية ، و الاسلام يأمرنا بمواجهة هؤلاء الاشخاص أمرا وجوبيا معتبرا كفريضة اسلامية حيث يقول :

] [13]لولا جاءو عليه بأربعة شهداء[

لاثبات ما اختلقوه ضد سلامة المجتمع و قيادته.

]فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ]لان كلامهم في الواقع عار عن أي دليل حتى ولو كانوا صادقين ، و ان نشر الفكرة التي لا دليل عليها ولو كان عن سذاجة أو حسن ظن خطأ كبير.

"وكفى بالمرء جهلا ان يقول مالا يعلم ، بل كفى به جهلا ان يقول كل ما يعلم " (١)(١) هذا محتوى حديث مأثور عن الامام الحسن بن علي عليهما السلام.

فنشر تهمة لا دليل عليها يؤدي الى نفس العاقبة التي يسعى اليها الكاذب.

ان الدوائر الاستعمارية اليوم تختلق التهم المختلفة ، و تقذف بها في المجتمع لتتلقفها الالسن ، و تنتشر كما ينتشر الوباء ، و ان المجتمع الفاضل هو الذي يتهم المتهمين ، ويعتقد انهم كاذبون و لو كانوا صادقين ، لان الكذب كله في مجمل نقل القضية ، فالحط من قيمة الانسان الفاضل - الذي خلقه الله كريما ، و أراد له العيش بكرامة ، و ان يخلف وراءه سمعة حسنة - هو الكذب بعينه.

فقد يكون الانسان صادقا فيما يقول ، و لكنه يصبح كاذبا ، حينما يخطئ في تحديد موقع الكلمة التي يلفظها ، و قد جاء في محتوى حديث مأثور:

"الكذب في الاصلاح صدق عند الله[

و كلمة " عنـد اللــه " في الآية تدل على انهم و لو كانوا صادقين في قرارة أنفسهم ، فانهم كاذبون عند الله ينالون جزاء الكاذب ، و لعل ذلك لانهم لم يراعوا الظروف المحيطة بكلامهم.

[14]و يؤكد القرآن ضخامة هذا الخطا ، فالكلمة البسيطة التي تطلقها افواه الكثير من الناس دون علم أو تثبت تكون وراءها مخاطر كبيرة جدا ، و لو لا ان الله رحيم بهم لاخذهم بعذاب عظيم .

]ولولا فضل الله عليكم و رحمته في الدنيا و الأخرة لمسكم في ما افضتم فيه عذاب عظيم ]بسبب ما تورطتم فيه من الكلام السيء.

] [15]إذ تلقونه بألسنتكم و تقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علمو تحسبونه هينا و هو عند الله عظيم[

لان الانسان يصبح خادما و بوقا للاستعمار دونما شعور ، و كم تمسنا هذه الآية الكريمة في الصميم ، فاكثرنا يقول ما يسمع ، و لا يعلم انه ضد نفسه أو دينه أو مجتمعه أم لا ، فيجب ان يكون الانسان ناطقا عن علمه و تثبته ، لا عن نقله من الآخرين كل ما يقولون.

و اذا إتخذنا مقياس التجمع الايماني من طبيعة تعاملهم مع التهم ، فان كثيرا من المجتمعات القائمة اليوم تخرج عن حد التجمع الايماي ، لانها تتلقف التهم كما يتلقف الصبيان الكرة ، و ينشرونها بينهم ، كما ينشر المجذوم وباء المرض.

## البعد الاجتماعي للاشاعة الباطلة

## هدى من الآيات

ان من خصائص القرآن الكريم في تناول الموضوعات المختلفة انه لا ينكفئ عن أحدها دونما بيان لشتى أبعاده ، و ما يرتبط به من قضايا أخرى.

فبالرغم من ان مناسبة الحديث عن الإفك و الاشاعة الباطلة في المجتمع كانت موضوع الاسرة ، التي يجب ان تحاط بسور منيع من السلامة المعنوية ، فان القرآن الحكيم يشبع هذا الحديث بحثا ليعطينا علما بأكثر أبعاده ، و من بين الأبعاد المختلفة الذي تبحثه السورة في هذا الدرس البعد الاجتماعي للاشاعة الباطلة ، و كيف يجب ان يكون موقف المجتمع الفاضل من الاشاعات ، وممن يبثها.

**نقاط مضيئة**

أولا :من الضروري ان يمتلك المجتمع مواقف ثابتة و محددة سلفا من الشائعات ، فقد أودع الله في كل انسان عقلا يستطيع من خلاله التعرف على صحةأو خطأ الافكار التي تنشر في المجتمع ، اذ لكل صواب نورا ، فيدرك اهداف الشائعة و مصدرها.

ثانيا : على المؤمنين الصادقين الالتفاف أكثر فأكثر حول القيادة الرشيدة ، ليعرفوا الاساليب الصحيحة و الصالحة ، لمقاومة الشائعات حينما تنتشر في المجتمع.

ثالثا : على ابناء المجتمع المؤمن ان لا يتبعوا خطوات الشيطان ، لان الخطوة الاولى تجرهم الى آخر خطوة حتى ينهار المجتمع تماما.

وكمثال على ذلك عندما يسمع الفرد كلاما باطلا و ينشره ، فانه يدافع عنه بسبب العزة بالإثم ، مما يدفعه الى الانتماء للمجموعة التي اشاعت هذا الكلام ، و هكذا يقع في شرك العدو ، من هنا يؤكد الاسلام بأن على الانسان المؤمن ان لا يتبع خطوات الشيطان ، و ان يكون واعيا ، فيتجنب الخطوة الاولى الخاطئة حتى لا يصل الى آخر خطوة.

رابعا : ان الغاية لا تبرر الوسيلة في منطق الاسلامي ، فليس سليما ان يتبع المؤمنون السبل الملتوية في الوصول الى اهدافهم ، لانها ليس لا تؤدي الى الاهداف فحسب ، بل تصل بصاحبها الى الفحشاء و المنكر ايضا.

فلا يمكن ان يكون الباطل طريق الحق ، كما لا يمكن ان تنتصر الحركة الايمانية عن طريق بث الاكاذيب ، و محاولة التاثير على الناس بالخداع و التضليل و ليس ذلك من صفات الحركة الرسالية ، لان الدجل لا يولد الا دجلا مثله ، و الفحشاء انما هي وليدة مجموعة انحرافات بسيطة تتكاثف عند الانسان و في واقع المجتمع.

خامسا : ان الهدف من وراء الإفك و بث الشائعات الكاذبة هو النيل من وحدة المجتمع المؤمن ، لذا فان على افراده ان لا يسمحوا للشخص الذي يسبب نشرالشائعات بالتوسع ، و ذلك عن طريق الصفح و الاحسان ، و بالتالي المبادرة للملمة اطراف المجتمع التي تناثرت بسبب الإفك و الإفتراء.

**بينات من الآيات**

] [16]و لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا[

كموقف ثابت للمؤمنين ، يوجب الله عليهم ان لا يتناقلوا الشائعات ، أو يساعدوا على انتشارها بين صفوف المجتمع ، و ان لا يصدقوا اي كلام دونما تثبت ، و من دون توفر الاثباتات و الشواهد الكافية ، و قوله تعالى : " ولو لا اذ سمعتموه " يعني : فهلا انكم حين تسمعون كلاما فيه طعن و اتهام للآخرين تواجهونه بالصمت ؟

ثم يبين القرآن ضرورة تقييم الشائعات تقييما نابعا من العقل لا الهوى.

]سبحانك هذا بهتان عظيم[

ليس بسيطا ان ينسب الانسان للآخرين تهمة الإفك ، فهذا بهتان مالم يقم عليه دليل ، بلى . ان المتهم بريء حتى تثبت ادانته ، و كذلك القذف متهم حتى تثبت صحته.

و نتوقف قليلا عند كلمة " سبحانك " فاننا لا ننطقها الا حينما نرى شيئا كبيرا يبهرنا ، فلاننا نخشى الخضوع لشيء من دون الله ، يسلبنا فكرنا و استقلالنا و ارادتنا نقول : سبحان الله ، لكي نقاوم حالة الانبهار التي قد تؤدي الى الشرك الخفي ، فاللهو المنزه و هو الكبير .. الخ ، لا ما نراه او من نراه انى بدى عظيما في أعيننا ، فلماذا التسبيح هنا ؟

الواقع ان الآية الكريمة تشير الى ضرورة التوجه الى الله في حالة الخوف من التأثر بالاعلام المضاد ، لان النفس نزاعة الى تصديق كل كلام يشيع في المجتمع ، خصوصا اذا صدر من الكبار في العمر أو في الرتب الاجتماعية ، و علينـا ان نقاوم هذه النزعة بذكر الله، ذلك ان ذكر الله يزيد من مناعة المؤمن عن التأثر بالضغوط ، و الانبهار بالآخرين ، و الخضوع للتضليل ، أو بالتالي يعيد الانسان الى عقله ، و يعطيه فرصة للتفكر المنهجي ، وهو بالتالي يعطي الانسان استقلالا و قوة و اطمئنانا ، كما المرساة التي تبقي على استقرار السفينة بين يدي الموج.

] [17]يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ]اي لا تعودوا تتأثروا بالاعلام ان كنتم مؤمنين حقا ، و كأنه يخاطب الجميع مع ان الذي جاء بالإفك مجموعة صغيرة منهم ، و هذا ما يدل عليه قوله تعالى : " ان الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم " و ذلك ليشعر المجتمع المؤمن بأكمله انه المسؤول ، لانه سمحلهذه العصبة ، بالانتشار في وسطه و لم يردها من حيث أتت.

] [18]و يبين الله لكم الايات و الله عليم حكيم[

انه يعلم بمصالحكم ، فيرشدكم لما فيه سعادتكم بحكمته البالغة.

[19]و يبين السياق جزاء من ينشر الشائعات في المجتمع ، و هم عادة من ذوي النفوس المـــريضة ، كما تؤكد هذا البحوث العلمية الحديثة ، ذلك ان المبتلين بالعقد الجنسية ، هم الذين يسعون لبث الشائعات المختلفة عنها ، فلانهم يعانون من الاحباط الجنسي مثلا يثيرون الشائعات لينتقموا من المجتمع ، و كأنه المتسبب في احباط هذه الغريزة في ذواتهم ، او لا اقل يتسلون بهذه الكلمات ليعوضوا بها عما فقدوه ، و عما يشعرون به من عقدة الجنس ، قال تعالى :

]إن الذيــن يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين ءامنوا لهم عذاب أليم في الدنيا و الأخــرة ]ان للفاحشة هيبة تنبعث من الحياء و الشرف البشري ، جبل عليها ضمير الانسان و عندما تشيع الفاحشة في المجتمع تسقط هيبتها من أعين الناس ، فيتورطون فيها ، بل لا يتورعون عن ممارستها باستمرار.

و اشاعة الفاحشة تتحقق بمجرد نقل الانسان ما يسمعه من كلام خبيث الى الآخرين ، و هذا ما يحطم جدار الشرف و الحياء لدى ابناء المجتمع ، فلا هو يدعو الانسان المريض القلب للعمل الصالح ، و لا هو ينصح الناس لما فيه خيرهم ، بل يبحث عن الشائعة الباطلة لينشرها، و عن الفكرة الخبيثة الميتة ليحييها و يذيعها ، لانه من أهل الفاحشة و ان أنكرها بلسانه أو تظاهر بكراهته لها ، فلو بحثت عميقا في نفسه لوجدته يعبر بكلامه عن واقعه ، لا عن واقع الآخرين ، و يبدو ان التعبير القرآني بـ " يحبون ان تشيع الفاحشة "يدل على انعطاف نفسي عند هذا الفريق نحو اشاعة الفاحشة ، أما بسبب كراهية المجتمع ، او كراهية الفريق المتهم منه ، أو لانهم يرتكبون فعلا الفاحشة ، و يريدون ان تنتشر بين الناس جميعا حتى يرتاحوا من لوم الناس و وخز الضمير.

وعلى الانسان ان يقاوم هذا الحب في نفسه ، و لا يفيض في نقل التهم بدافع هذا الحب الشيطاني.

ثم يختم القرآن حديثه الصادق بان الله عليم بالحقائق.

]و الله يعلم و أنتم لا تعلمون[

فانتم لا تعلمون طبيعة الناس ، و الدوافع التي تدعوهم الى خلق الإفتراءات ضدهذا و ذاك ، فلا يجوز ان تثقوا باي فرد ، بل عليكم التثبت عما اذا كان نقيا عن حب اشاعة الفاحشة.

] [20]ولولا فضل الله عليكم و رحمته[

بان بعث لكم رسولا و وفر لكم فرصة الهداية - لولا ذلك - لما زكى أحد منكم ، اي تخلص من ورطة اتهام الآخرين بالزور و البهتان.

و يبدو ان المراد من الفضل هو الهدى ( القرآن و الرسالة ) و من الرحمة النعم المـادية ( الامن و السلامة و كل ما يمنع الانسان من التورط في الجرائم المختلفة. (

فلو لم تتوفر للانسان وسائل الهداية من جهة ، و الوسائل المادية كالحياة الاسرية الفاضلة ، و المكسب الحلال ، و ما الى ذلك من النعم من جهة أخرى ، لما تخلص من التورط في الجرائم.

]و أن الله رؤوف رحيم[

ويبدو ان جواب لولا ما يشار اليه في الآيات التالية من قوله تعالى : " ما زكى منكم من أحد أبدا " .

[21]الشيطان سواء الجني الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم ، او الانسي الذي تملأ أبواقه و شبكاته حياتنا اليوم ، انه لا يدعونا الى الفواحش الظاهرة مرة واحدة ، و انما يستدرجنا اليها خطوة فخطوة ، و علينا الحذر من اتباعه في الخطوات الاولى حتى لا يطمع فيناأكثر فأكثر.

]يا أيها الذين ءامنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان[

و مادام الله وفر للانسان فضله و رحمته فلماذا يتبع الشيطان ؟!

ان الذي يتبع خطوات الشيطان لا يحقق سعادة الناس و هدايتهم ، فكثير اولئك الذين حدثوا أنفسهم بالوصول الى الحكم ، و من ثم العدل و الحرية للمستضعفين ، و لكنهم تورطوا في جرائم الإرهاب و الذبح و إشاعة الفاحشة ، فما أفلحوا بل أصبحوا أفسد ممن سبقهم ، فقد خدع الشيطان من أنتموا الى حزب البعث في العراق بذلك ، و لكنهم بعدما وصلوا الى الحكم دمروا العراق و اصبحوا لعنة على الشعب.

ان السلطة التي تبنى على أساس الكذب و الافتراء ، لا و لن تكون في سبيل الله و المستضعفين لذا يقول القرآن :

]و من يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء و المنكر ]فلا يفكر الانسان أنه سينصحه يوما ، و لعل المقصود من " لا تتبعوا خطوات الشيطان " و سائله و سبله ، فالغاية لا تبرر الوسيلة ، بل تحدد الغاية الوسيلة المناسبة لها.

]و لولا فضل الله عليكم و رحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ]" لولا " حرف امتناع لامتناع ، و هي اداة شرط في هذا المقطع من الآية الكريمة " و فضل " مصدر ناب عن فعل الشرط ، اما جواب الشرط فقوله تعالى : " ما زكى. "

و لعل هذا الجواب هو نفسه جواب لولا في الآية السابقة " و لولا فضل الله عليكم و رحمته و ان الله رؤوف رحيم " و الآية تشير الى مدى صعوبة التخلص من شبكات الشيطان ، وعلينا اذا الا نرتاح الى ظل الغرور ، و نغفل عن خطر الاستدراج بل نتوكل على الله، و نكون دائمي الحذر ، شديدي اليقظة.

]و لكن الله يزكي من يشاء[

وذلك عن طريق الرسل و الهداية و التوفيق ، و بما يوفر لهم من نعم ، تغنيهم عن تمنيات الشيطان.

]و الله سميع عليم[

## الموقف السليم

] [22]و لا يأتل أولوا الفضل منكم و السعة أن يؤتوا أولي القربى و المساكين و المهاجرين في سبيل الله ]قيل : بعدما وقعت حادثة الإفك ، قرر المسلمون ان يقاطعوا كل المشتركين فيها مقاطعة شاملة ، فلا يزوجونهم ، و لا يعطونهم من المال شيئا ، و لا يدعونهم يحضرون مساجدهم ... الخ ، و هذا ما يطمح اليه الاعداء ان يروا المجتمع المؤمن و قد تمزق كل ممزق ، فيجبان ينتبه الواعون في المجتمع الاسلامي الى هذه الخطوة الشيطانية ، ويقفون قبالها ، لذلك نهى الله المؤمنين عن تطبيق قرار الجفاء و المقاطعة ، و معنى الآية الكريمة :انه لا يحلف اولوا الفضل بعدم العطاء و صلة الرحم.

و كما قلنا : ان المقصود " بالفضل " الدين و الهدى ، و " السعة " المال و النعم المادية ، فيصبح معنى الآية بهذا التفسير : انه على من أنعم الله عليهم بالهداية و المال ، ان يؤتوا اولي القربى و المساكين و المهاجرين من ذلك ، و لو كانوا متورطين في جريمة الافك.

]و ليعفوا و ليصفحوا[

على ما مضى ، و لعل المراد من العفو هو عدم المعاقبة على ما مضى اما الصفح فهو ما يسبب اعادة اللحمة الى المجتمع.

و وظيفة الامة الاسلامية بعد حوادث الافك و ما تسببه من فرقة و خلاف هو السعي نحو الوحدة لبناء كيان جديد يقوم على اساسها.

]الا تحبون أن يغفر الله لكم و الله غفور رحيم[

ربما يؤاخذ المؤمنون من اختلق الافك ضدهم ، و لكن هل ضمنوا لانفسهم البراءة الخالصة من ذلك ، و الكل معرض لارتكاب الخطأ بحق الآخرين ؟!

لذا ينبغي الصفح عن الآخرين حتى يغفر الله لمن يصفح ، و فعلا بادر المسلمون فور نزول هذه الآية الكريمة قائلين عفونا و صفحنا ، أملا في غفران الله.

## الوازع الديني و أثره في تحصين المجتمع

## هدى من الآيات

يركز السياق هنا حول قضيتين رئيسيتين:

الاولى :انذار شديد اللهجة ، يوجهه الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات ، و يحذرهم من نار جهنم ، يوم لا يمكنهم انكار افتراءاتهم ، و ذلك ليحيي الوازع الديني في ضمير الناس ، ليرتفع المجتمع عن حضيض المهاترات الرخيصة الى ذرى الاداب الرفيعة.

الثانية ، بعد ان حدثتنا الآيات السابقة ، عن ضرورة تحصين بيوت المسلمين معنويا ، تحدثنا آيات هذا الدرس ، عن ضرورة تحصينها ظاهرا عن دخول الغرباء ، لانه حرم الانسان ، ( كما يقول الرسول (ص) ) فلا يدخله من ليس بصاحبه ، الا ان يستأذن و يحصل على الموافقةمن أهله ، و قبل الدخول لابد ان يذكر الله مستأنسا ، رافعا صوته بذلك ، حتى يكون معروفا عند أهل البيت ، و بعد ذلك يبدأبالسلام ، فان لم يكن رد منهم فليعد من حيث أتى و لا يدخله عنوة ، مدفوعا

بالكبر ، و مأخوذا بعزة الاثم ، لان دخوله سيكون اعتداء ليس على هذا البيت فقط ، بل على المجتمع بأكمله.

**بينات من الآيات**

[ [23]إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا و الأخرة و لهم عذاب عظيم ]

قد تكون المرأة في احضان الفساد و مظان الفاحشة ، فلو اتهمت فانها تتحمل مسؤولية ذلك ، كما المتبرجة الخليعة ، التي تتنقل من بيت لآخر ، و تقوم بحركات مائعة مشبوهة ، فهي تضع نفسها في دائرة الاتهام ، و تستجلب كلام الناس عليها.

اما المرأة الغافلة عن التهمة ، البعيدة عن مظانها فينبغي ان تحترم اشد الاحترام ، و من يتهمها فانه ملعون في الدنيا ، اي مبعد عن الخير ، و منبوذ لدى المؤمنين ، و ملعون في الآخرة حيث يبعده الله عن رضوانه ، و يعذبه عذابا عظيما.

**الشهادة**

[ [24]يوم تشهد عليهم ألسنتهم و أيديهم و أرجلهم بما كانوا يعملون]

كل عضو من الاعضاء يشهد على الانسان يوم القيامة ، وفي مقدمة من يشهد على الذين يرمون المحصنات ، السنتهم التي ستنطق بفضحهم دون ارادتهم ، ثم ايديهم و هي التي يشيرون بها الى مواضع التهمة ( فعادة ما يستخدم المتحدث لسانه و يده للتعبير عن مقاصده ) ، ثم ارجلهم الساعية بالتهمة لتوزيعها على اكبر رقعة اجتماعية ممكنة ، كما المشاء بنميم ، ليفسد ما بين الناس و يقوض صرح العلاقاتالاجتماعية ، و قد وقف قدامى المفسرين على هذه الآية مستغربين ، ليس من شهادة اللسان - فذلك أمر طبيعي - و انما من شهادة الارجل و الايدي.

فقال بعضهم : ان الله يخلق ألسنة في كل جارحة تنطق بما عمله الانسان ، و قال البعض الآخر : ان الله هو الذي ينطق عن الجوارح كما كلم موسى تكليما ، و لكننا اليوم و مع وجود الاجهزة الالكترونية المتطورة ، لا نحتاج الى مزيد من التفكير ، لنعرف كيف تشهد الايدي و الارجل ، فقد اثبت العلم الحديث بالتجربة العملية ، ان اي كلام أو تصرف يصدر من الانسان ، ترتسم آثاره على الاشياء الموجودة حوله ، كالجدار و السقف و الهواء .... الخ.

إذا شعر الانسان بالرقابة الالهية عليه ، و نمى لديه الوازع الديني ، فانه لن يرتكب معصية عن علم.

[ [25]يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق]

عندما تنكشف لهم الحقيقة ، و يتضح بطلان ما يدعون ، و يعلمون بان الله كان يحصي عليهم كل شيء حتى مشاعرهم ، و نوايا قلوبهم ، ثم يعطي جزاء كل ذلك ذرة بذرة جزاء وفاقا . و دين الانسان هو ما يلتزم به ، فان التزم بالاسلام اعاده الله له يوم القيامة ، و كذلكلو التزم بالجريمة فانها تأتي له تسعى يوم الحساب فيجازى عليها.

]و يعلمون ان الله هو الحق المبين[

لأنه أنصح الحقائق و أوضحها ، اذ تتجلى هذه الحقيقة لفطرة الانسان السليمة بكل سهولة و يسر ، دونما حاجة للبحوث الفلسفية او البراهين المعقدة ، و لكن الناس باعمالهم الخاطئة ، يسدلون على قلوبهم أستار الغفلة ، فيجهلون ربهم و اسماءهالحسنى ، عن ارادة لا جبر ، و عندما تزاح عنهم هذه الاستار في يوم القيامة ، تتجلى لهم الحقيقة العظمى ( الله ) كمن يهتدي الى حقيقة لاول مرة.

] [26]الخبيثات للخبيثين و الخبيثون للخبيثات و الطيبات للطيبين و الطيبون للطيبات أولئك مبرؤون مما يقولون لهم مغفرة و رزق كريم [تعددت وجهات النظر في هذه الآية من قبل المفسرين ، فقال قسم : ان هذه الآية تشير الى ان الاقوال و الافعال الخبيثة للخبثاء ، و على العكس بالنسبة للاقوال و الافعال الطيبة ، و قال قسم آخر : ان الخبيثات من النساء للرجال الخبيثين ، و على العكس بالنسبةللنساء الطيبات.

و لكن يبدو ان الآية تؤكد حقيقة اجتماعية مبدئية هي : ان الانسان لا يمكنه تسجيل إسمه في قائمة المجرمين ثم يعيش مع الصالحين ، بل لابد ان تنتهي الحياة به الى من سجل إسمه في قائمتهم عمليا.

اما في شطرها الثاني ، فانها تؤكد قدرة المجتمع الفاضل على بناء كيان مستقل ، بعيدا عن الالسنة البذيئة ، و الافتراءات الكاذبة ، و هذا ما يمهد له الحصول على غفران الله و رزقه الكريم.

## حرمة البيت

] [27]يا أيها الذين ءامنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا و تسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ]تطرح لنا هذه الآية و ما يليها مجموعة تعاليم تتصل بحرمة البيت ، حيث ينبغي ان يحس المرء بالامن داخل منزله ، حيث يضع ثيابه و يتخلص من العادات الاجتماعية المرهقة ، و يستريح الى طبيعته ، و يتنفس عن مشاعره المكبوتة ، و حيثزوجته التي يجب ان يخلو بها ، و يبث اليها اسراره و عواطفه ، و لعله يريد ان يقضي منها وطرا . فقبل ان تطا قدماك بيتا غير بيتك ، لابد ان تراعي آداب الدخول و التي منها :الاستيناس و اعطاء اشارة لقصد الدخول أولا ، و في التعبير القرآني روعة و لطف ، فالاستيناس المتخذ من لفظة ( الانس ) يوحي بضرورة رعاية الجوانب العاطفية فلا كلمات نابية ، أو صياح عال أن طرق شديد للباب ، بل رقة و محبة و تلطف و تودد . و جاء في الاثر ان " الاستيناس هو وقع النعل و التسليم " (١) و عن ابي ايوب الانصاري قال : قلنا يا رسول الله ما الاستيناس ؟ قال : يتكلم الرجل بالتسبيحة و التحميدة و التكبيرة يتنحنح على أهل البيت (٢) و التسليم ثانيا اشعارا بحسن النية و سلامة القصد . و ليس هذا النظام شاذا عن الفطرة البشرية ، بل متوافقا معها ، و هكذا سائر الاحكام و الاداب في الاسلام تتوافق مع فطرة البشر و عقله ، و هذا ما تشير له الآية التي تحث الانسان على التذكرة فكثير من الحقائق ، معروفة لدى الناس ، و لكنهم نسوها فاحتاجوا الى التفكير ليتذكروها.

] [28]فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم و إن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ]ان لم يكن في البيت من يملك صلاحية الاذن بالدخول ، او وجد من يملكها ، و لكنه لم يعط اذنا بذلك فليرجع ، ففي ذلك زكاة للمجتمع ، اي نمو للاخلاقيات و العلاقـات الطيبة فيه ، و لقد شددت النصوص الاسلامية على الاستيذان و آدابه قبل دخول البيوت.

فهذا الرجل يستأذن على رسول الله (ص) بالتنحنح ، فيقول الرسول لامرأة يقال لها روضة : قومي الى هذا فعلميه و قولي له قل : السلام عليكم أأدخل ؟ فسمعها(١) نور الثقلين / ج ٣ - ص ٥٨٥

(2)المصدر

الرجل فقالها فقال : ادخل . (١(

و يسأله رجل عما اذا كان من الضروري الاستيذان على الام و يقول : انها ليس لها خادم غيري أفاستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال : أتحب أن تراها عريانـة ؟ قال الرجل لا .. قال : فاستأذن عليها . (٢)و هكذا كانت سيرة النبي (ص (فقد روى جابر بن عبد الله الانصاري قال : " خرج رسول الله يريد فاطمة عليها السلام ، و انا معه ، فلما انتهيت الى الباب وضع يده فدفعه ثم قال :السـلام عليكم فقالت فاطمة عليها السلام : عليك السلام يا رسول الله ، قال : أدخل ؟ قالت

ادخل يا رسول الله ، قال أدخل و من معي ؟ قالت يا رسول الله ليس علي قناع ، فقال يا فاطمة خذي فضل ملحفتك فقنعي به رأسك ، ففعلت ثم قال : السلام عليكم فقالت و عليك السلام يا رسول الله قال أدخل قالت نعم يا رسول الله قال انا و من معي ؟ قالت و منمعك " . (٣(

بهذه الرقة و التودد ، أدبنا الاسلام.

و يحسن بنا الانتباه الى نهاية الآيات ، فعادة ما تكون نهايتها مفاتيحها ، كما تكون الآيات الاخيرة في السورة مفاتيح لها ، و هنا يقول تعالى:

]و الله بما تعملون عليم[

بعد ان يطرح مجموعة من القوانين و الانظمة لماذا ؟ الجواب:

(1)المصدر / ص ٥٨٦

(2)المصدر

(3)المصدر / ص ٥٨٧

لعله لان للانســان قدرة التفاف هائلة على القانون ، و تحويله الى قشرة دون اي محتوى ، و لكي يحذر الله سبحانه الناس ، من الالتفاف حول النظام الاسلامي يحثهم على الالتزام به بدقة و اخلاص ، و يذكرهم بأنه يعلم حقيقة أعمالهم ، فلا مناص لهم من النصح في تطبيق الاحكام ، فقد يخادع الانسان اصحاب البيت فيوهمهم حين دخوله انه يقصد هدفا شريفا ، و واقعه خلاف ذلك ، و لكنه لا يستطيع ان يخدع الله لانه عليم بما يعمل الناس.

و دخول كهذا ، هو كما لو دخل بدون إذن لا فرق إذ لو علم اصحاب البيت بقصده السيء لما أذنوا له بالدخول.

و كثيرا ما يمتهن بعض المجرمين المهن التي تساعدهم على دخول البيوت ، بحجة القيام بخدمات معينة كاصلاح الكهرباء و الهاتف أو تركيب الستائر و الاثاث ، فيجدون بذلك فرصة سانحة للاطلاع على اعراض الناس ، و التجسس على المؤمنين ، و لا يعلمون انهم بذلك قد ارتكبوا جريمتين:

الاولى : جريمة الدخول بدون إذن ، لأن هدفه سيء.

الثاني : جريمة الافساد في الارض.

و لئن أفلت هؤلاء من علم أهل البيت أو السلطات الشرعية ، فلن يفلتوا من علم الله.

] [29]ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ]لانها وضعت لمنفعة عامة ، كالفنادق ، و الحمامات العامة ، أو المحال التجارية ، و مكاتب الخدمات المختلفة ، و ما الى ذلك ، و لكن لا يجوز الدخول فيهالغير الهدف المحدد ، وان جاز الدخول فيها بدو إذن.

]و الله يعلم ما تبدون و ما تكتمون[

من النوايا و الاهداف ، و هذه دعوة لتنمية الوازع الديني في ضمير الانسان ، انطلاقا من تحسيسه بالرقابة الالهية عليه.

فاولئك الذين يدخلون المحال التجارية مثلا لا ليشتروا مما يعرض فيها ، بل لكي يستريحوا من تعب المشيء و زحام السوق ، أو ليستفيدوا من تكييف المحل في صيف حار أو شتاء بارد ، أو يدخلوا في دائرة ما ، لا لكي ينجزوا معاملة لهم فيها ، و انما ليتحدثوا في شؤونخاصة مع زملائهم العاملين فيها .. و ما الى ذلك من الحالات الاخرى . ليعلم هؤلاء ان الاسلام لا يجوز لهم ذلك لما فيه من مضار اجتماعية ، قد لا يظهر أثرها الا مع مرور الزمن ، كما انها تناقض الاخلاق الفاضلة ، و السجايا العالية ، و لو وضع هؤلاء أنفسهم موضع أهل هذه المحلات و البيوت ، لما رضوا من غيرهم هذه الاعمال المخالفة.

**و انكحوا الأيامى منكم و الصالحين**

**هدى من الآيات**

استمرارا للحديث الماضي عن الحدود الشرعية للغريزة الجنسية ، و بعد ان بين القرآن حرمة الزنا و القتل ، و حرمة دخول البيوت الا بعد الاستئناس و السلام ، يبين هذا الدرس حدا آخر لها هو حرمة النظر و ضرورة الحجاب ، و ما يحويه هذا العنوان ، من موضوعات هامة.

و انما فرض الاسلام الحجاب ليحدد الاثارة الجنسية في القنوات الشرعية النافعة لها ، و ليحافظ على عفة المرأة و كرامتها ، و ليهبها موقعا مناسبا في المجتمع..

و يسمح الاسلام للمرأة بالحرية في أسرتها الصغيرة أو العائلة الكبيرة .. اي لدى زوجها او الاب و الابن و الاخ و ابناء الاخ و الاخت و اباء الزوج ، و بالتالي كل من يحرم عليها بالنسب أو السبب الزواج منها.

و لكن هل يجوز للمرأة باعتبارها ( امرأة ) التبرج أمام كل النساء ؟

كلا ..فقد حدد الاسلام بقوله " أو نسائهن " النساء اللاتي يجوز للمرأة التبرج امامهن ، فلا يجوز لها التبرج امام غير المؤمنات و هذا ما نصت عليه النصوص الاسلامية.

اما بالنسبة لغير ذوي الاربة من الرجال كالبله ، و المجانين ، فمن حق المرأة الا تلتزم بالحجاب امامهم ، لان الهدف منه كما تقدم تحديد ( الاثارة الجنسية ) في المجتمع ، وبما ان هؤلاء قد ماتت الغريزة فيهم تقريبا ، فلا باس بالتبرج أمامهم ، و كذلك بالنسبةللاطفال الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال و لما يميزوا.

و بعد ان حدد الاسلام الغريزة الجنسية ، صار يشجع على الزواج ، ولولا ان الغريزة الجنسية هي من اقوى الغرائز الدافعة للانسان ، لما تحمل أحد مسؤوليات الزواج ، اننا نرى الكثيرين يتحملون الكبت الجنسي هربا من القيام بمسؤولية الزواج ، فلو وجدت في المجتمع قنوات أخرى لتفريغ هذه الغريزة لم يقدم الكثير على تحمل مسؤولياته.

و حينما دعى الاسلام الى الزواج عالج المشاكل النفسية التي تعترضه ، و اهمها الخوف من المسؤوليات التي من أبرزها مسؤولية الانفاق ، و تأمين العيش للاسرة ، حيث يعد الله المتزوجين بان يبارك لهم ، و يبعث لهم بالرزق على قدر الحاجة ، و هذا ما تقتضيه سنته سبحانه و تعالى ، ذلك لأنه انما يتكاسل الانسان حينما لا يشعر بالحاجة . و لكنه عند الحاجة يفجر طاقاته ، ويرزقه الله تعالى.

**بينات من الآيات**

[ [30]و قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم و يحفظوا فروجهم]

بمطلق الحفظ و في كل مجال ، فلا يجوز للانسان ان يستثير شهوته بأي وسيلة مريبة - كما يسميها الفقهاء - فالنظر الى وجه المرأة الاجنبية أو حتى القريبة ، أوالنظر بريبة و بهدف الاثار الى الصور و الافلام كله حرام لانه يستثير الغريزة الجنسية ، و قد أمر الله بحفظها.

]ذلك أزكى لهم[

من ان يضعوا أيديهم في مستنقعات الفساد المليئة بالميكروبات الخطيرة التي يخشى ان تتسرب الى جسم الانسان ، وهل تتسرب الى جسم الانسان إذا حفظ نفسه منها ، و ابتعد عن مواضعها ؟!

ان الغريزة الجنسية من اقوى غرائز البشر ، فاذا اثيرت جرفت السدود أمامها ، و اندفعت في كل اتجاه ، و لربما حملت صاحبها على جرائم بشعة ، و عندما نطلع على أرقام الجرائم الجنسية في البلاد الغربية حيث الميوعة و الخلاعة نصاب بالذهول ، و اذا فتشنا في اوراقالمحاكم الجنائية عن خلفية الجرائم الكبيرة ، وجدنا الغريزة الجنسية وراء كثير منها.

و اذا ملأنا الاجواء اثارة ، و اشبعنا الغرائز ثورة و هياجا ، فان التوتر الجنسي العالي يضغط باستمرار على الاعصاب ، و يسبب امراضا خطيرة للرجال ، و الشبيبة منهم بالذات ، ذلك لان تفريغ الغريزة لا يكون مقدورا دائما ، ثم لا يقتنع الفتى الذي يستمر هيجان الغريزة في كيانه بشريكة حياته ، بل ولا بالجنس الثاني مهما كان فاتنا ، بل يهبط الى درك الشذوذ ، ثم يتجاوزه الى المخدرات ، ذلك المهوى السافل الذي يهدد مستقبل الحضارة البشرية.

ولا تتوقف اثار التهييج الجنسي عند مفاسدها المباشرة . اذ هناك آثار اخطر .. أوليست الاثارة الجنسية اعظم معول يهدم الشيطان به صرح الاسرة ، و يسبب في شيوع الخلافات العائلية ، بل و انتشار الطلاق و الزنا ، و تكاثر اولاد الحرام و بالتالي ضياع الجيلالناشئ ؟؟

فاي نعمة كبيرة اسبغها الاسلام على البشر بحرمة النظر ، و نظافة الاجواء العامة من سهام ابليس ؟!

جاء في حديث مأثور عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام:

"ليس في البدن شيء اقل شكرا من العين ، فلا تعطوها سؤلها ، فتشغلكم عن ذكر الله ، ثم قال لكم اول نظرة الى المرأة ، فلا تتبعوها بنظرة أخرى ، و احذروا الفتنة . اذا رأى أحدكم امرأة تعجبه فليات أهله ، فان عند أهله مثل ما رأى " . (١)وقد استخدم الله كلمة " من ابصارهم " في التعبير القرآني دلالة على التبعيض ، فليس كل نظرة حرام ، و انما يحرم منها المريب ، و النظر الى مالا يحله الله.

و الغض في اللغة ، بمعنى الخفض ، و مقصود الآية ان يحفظوا من ابصارهم ، فالانسان لا يمكنه ان يغير العالم ، و لكنه يستطيع ان يكيف نفسه حسب حكم الشرع ، فاذا لحظ منظرا حراما يستطيع اجتنابه عبر طريقين : فأما أن يزيل هذا الواقع الفاسد ، و أما ان يشيح ببصره عنه ، ولم يأمر الله باغماض العين لما في ذلك من احتمال للضرر كالسقوط في حفرة.

]إن الله خبير بما يصنعون[

فاذا التف أحد على القانون ، أو عجز الحاكم عن متابعته ، فانه لن يلتف على الله الخبير الذي يعلم المطبق للقانون من المخالف له ، ظاهرا أو باطنا ، فمن الاصلح للانسان ان يجعل ضميره حارسا عليه ، و مراقبا لأعماله ، حتى لا يسخط الله ،(١) المصدر / ص ٥٨٩

فيستحق العذاب.

] [31]و قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن و يحفظن فروجهن ]لأن المسؤولية مشتركة بين الرجل و المرأة ، و لكننا نلاحظ ان الله حينما فرض الحجاب فرضه على المرأة ، و حينما أمر بغض النظر أمر الرجل أولا ، لان نظر الرجل للمرأة أكثر اثارة للفتنة من نظر المرأة له . و لعل عيون

المرأة ، و نظراتها الفاتنة ، تفسد الرجالقبل ان تفسدها . و ذلك يعود لاختلاف التركيب الفسيولوجي ، فاحتمال تجاوبه معها لو نظر لها أكبر من احتمال تجاوبها معه لو نظرت اليه.

و يربط القرآن بين غض البصر و حفظ الفرج ، ذلك لأن هذين الامرين يتظافـران معا في حفظ الرجل أو المرأة عن الفاحشة ، أوليست بداية الفاحشة نظرة خائنة ؟!

## الحدود الشرعية للحجاب

]و لا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها و ليضربن بخمرهن على جيوبهن[

يبين هذا المقطع من الآية الحجاب الشرعي الذي يجب أن تأخذ به المرأة المسلمة . و هو كما فسره بعض الفقهاء ، و جاء في الاحاديث ان تستر المراة كامل بدنها وجوبا عدا الوجه ، و الكفين و القدمين و كحل العين و الحناء و لبس الخاتم ، فان اظهارها جائز ، ثم ان على المرأة ان تلبس خمارا يستر الصدر و العنق.

جـاء في الحديث عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام : و قد سأله بعض اصحابه ، قال : قلت له : ما للرجل ان يرى من المرأة اذا لم تكن له بمحرم ؟ قال " : الوجه و الكفين و القدمين " .
(١)(١) المصدر / ص ٥٨٩

و لقد كانت المرأة في الجاهلية تختمر ، الا انها تبدي زينتها للرجال ، حيث تجعل خمارها خلف اذنها ، لتبدو اقراطها و كانت تحسر عن نحرها و بعض من صدرها ، وتكشف بالتالي عن مفاتنها ، فجاءت الآية تأمر نساء المؤمنين بشد الخمار ، بحيث لا يبدو شعرهن و لا اذانهن و لا نحورهن و صدورهن ، و قد جاء في رواية مأثورة عن الامام ابي جعفر الباقر عليه السلام .. ان سبب نزول هذه الآية كالتالي:

استقبل شاب من الانصار امرأة بالمدينة ، و كان النساء يتقنعن خلف اذانهن ، فنظر اليهـا و هي مقبلة ، فلما جازت نظر اليها و دخل في زقاق قد سماه - يعني فلان - فجعل ينظر خلفها ، و اعترض وجهه عظم في الحائط أو زجاجة فشق وجهه ، فلما مضت المرأة نظر فـاذاالدماء تسيل على ثوبه و صدره ، فقال و الله لآتين رسول الله ، و لأخبرنه ، قال : فأتاه فلما رآه رسول الله فان له : ما هذا ؟ فاخبره ، فهبط جبرئيل بهذه الآية " : قل للمؤمنيـن يغضوا من ابصارهم و يحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون " . (١(

اما الزينة الظاهرة : فلا يجب سترها ، و جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق (ع) : " انها الكحل و الخاتم ](2) . " و لا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو ءابائهن أو ءاباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن او إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن ]و يستوحى من هذه الآية انه لا يجوز اظهار المفاتن لغير النساء المؤمنات ، وقد(١) المصدر / ص ٥٨٨

(2)المصدر / ص ٥٩٢

جاء في الحديث الشريف عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام:

"لا ينبغـي للمرأة ان تنكشف بين يدي اليهودية و النصرانية فانهن يصفن ذلك لأزواجهن " . (١)[ او ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال ]و هم البلة ، و المجانين و المصابين بموت الغريزة الجنسية كالشيوخ الطاعنين في السن و غيرهم ، ممن فقدوا الشهوة الجنسية ، اما ما يدعيه البعض من جواز اظهار المرأة زينتها للخادم و الحارس ، سواء في البيت أو المدرسة أو الدائرة خطأ كبير يخالف التعاليم القرآنية . اذن فلا يجوز للمرأة ان تظهر زينتها الا لمن ذكرته الآية آنفا.

]أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء[

فاذا بلغ الطفل مبلغ الرجال أو صار مميزا في هذا الجانب ، حرم على النساء اظهار زينتهن امامه .

]و لا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن[

فتستثير شهوة الرجل الجنسية ، لذلك لا ينبغي للمرأة الخروج بعطر فواح بين الرجال الاجانب ، مما يدل على ان الاسلام يلتفت للجوهر لا للقشور . اذ يفرض على المرأة الحجاب الباطني ايضا .

من هنا حرم بعض الفقهاء الاستماع لصوت المرأة الاجنبية ، أو ان تخضع المرأة في حديثها فان ذلك مما يستثير الرجل ، و لعله من مضامين الآية أن تلبس المرأة حذاء(١) المصدر / ص ٥٩٣

او نعلا ، يفتعل صوتا عند مشيها ، مما يلفت الانتباه لها ، بينما لولاه لم يعلم بها أحد او يلتفت اليها و هي تمر.

]و توبوا الى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ]فلم يخلق الانسان معصوما ، اذن لا غرابة ان يسقط سقطات عصيان ، و لكن الغريب هو ان لا يعالجها بالتوبة . و لقد كان الرسول (ص) يستغفر ربه كل يوم مئة مرة.

[32]و حــرض الاسلام على الزواج ليكون القناة النظيفة لأقوى غريزة عند البشر ، فقال سبحانه :

]و انكحوا الأيمى منكم و الصالحين من عبادكم و إمائكم ]لانهم بشر يمتلكون نفس الغرائز و لديهم نفس الحاجات ، و الايم مفرد ايامى و هي كلمة تطلق على غير المتزوج ، مرأة كان أو رجلا ، اما توفير الوسائل و التسهيلات اللازمة للزوج فهي مسؤولية اجتماعية كسائر المسؤوليات الأخرى.

و هذه الآية تشمل الشاب الاعزب رقا كان أم حرا ، اذ يجب على المجتمع تزويجهم جميعا.

و لأن اكبر العقبات النفسية اما الزواج هي خشية العيلة ، فان ربنا سبحانه يزيح هذه العقبة بقوله:

]إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله و الله واسع عليم ]فقدرته واسعة ، و فضله واسع ، و علمه محيط بكل شيء فلا يعجزه شيء ، واذا تدبرنا في هذه الآية ، و من خلالها في سنن الله في الحياة ، عرفنا ان عجلة الحياة لمتكن لتدور من دون الزواج ، الذي هو أبرز مظاهر التعاون عند الجنس البشري أوليست الحاجة أم الاختراع ، أوليس الاحساس بالمسؤولية صاعق القوى الكامنة عند الانسان ؟! ان رزق الله كامن في الارض ، و قدرات الانسان كامنة في نفسه ، انما تتفجر تلك القدرات فتستخرج رزقالله بالامل و الحاجة و السعي.

و من هنا جاء في رواية مأثورة عن النبي صلى الله عليه و آله:

"من ترك التزويج مخافة العيلة فقد اساء ظنــه بالله عز و جل ، ان الله عز وجل يقول : ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله " . (١)بل ان النبي كان يوصي الفقراء بالزواج لكي يوسع الله عليهم.

يروى الامام الصادق )ع) انه أتى رسول الله شاب من الانصار ، فشكى اليه الحاجة ، فقال له " : تزوج " فقال الشاب : اني لأستحي ان اعود الى رسول الله ، فلحقه رجل من الانصار فقال: ان لي بنتا وسيمة ، فزوجها اياه ، فقال : فوسع عليه ، فأتى الشاب النبي فاخبره ، فقال رسول الله : يا معشر الشباب عليكم بالباه ( اي بالنكاح ) . (٢)ولقد بلغ من تحريض الاسلام على الزواج

: ان يقــول الامام الصادق عليه السلام:

"ركعتان يصليهما المتزوج افضل من سبعين ركعة يصليهما الاعزب " . (٣)و يروى عن رسول الله قوله:

(1)المصدر / ص ٥٩٥

(2)المصدر / ص ٥٩٦

(3)المصدر

"من تزوج احرز نصف دينه " . (١(

وقال:

"رذال موتاكم العزاب (2) . "

[33]عندما لا يوفق الانسان للزواج ، أو يكون عاجزا عن ذلك فعليه ان يتعفف ، و يتحصن بالايمان ، لا ان يفسد في الارض أو يكون سببا لانتشار الفاحشة في المجتمع.

]وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ]قال الرسول (ص: (

"من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، و من لم يستطع فعليه بالصوم ، فان الصوم له وجاء. "

و بمناسبة الحديث عن مسؤولية الزواج ، أخذ السياق يعالج مشكلة اجتماعية كانت حادة ذات يوم ، هي مشكلة الرقيق ، حيث كان الذكور منهم يبقون بلا زواج ، و يعيشون عناء العــزوبة ، و يشكلون بؤرة الفساد ، فأمر الله بمكاتبتهم ، ليتحرروا ، و لينكحوا مثل غيرهم.

]والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا ]المكاتبة هي إن يأتي العبد الى سيده ليشتري نفسه منه بمقدار مقسط من المال ،(١) و (٢) المصدر

و ينبغي لكل من يملك عبدا ان يطرح عليه هذا المشروع ، فان تجاوب معه ، و استطاع كان حرا ، و هذه ما تسمى بالمكاتبة المشروطة ، و هناك مكاتبة اخرى تسمى بالمطلقة : يدفع فيها العبد حسب استطاعته المبلغ الذي يفك رقبته به.

]و ءاتوهم من مال الله الذي ءاتاكم[

من سهم " و في الرقاب "الذين هم أحد مستحقي الزكاة . و في الاحاديث يضع عنهم المولى الخمس او الربع.

أمــا الاماء فكن في الجاهلية يتاجر بأجسادهن ، و جاء النهي الصريح عن ذلك.

]و لا تكـــرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ]و لهذه الآية تفسيران ظاهر و باطن ، أما الظاهر فهو ان عبد الله بن أبي كان يجبر فتياته على الزنا ، ليكسب مالا من وراء بغائهن ، فاشتكين امره لدى الرسول (ص) فنزلت الآية الكريمة " و لا تكرهوا .. " ، و لهذا فانه لا يجوز ان يفسح المجتمع لمثل هؤلاء ان يمارسوا ابشع انواع التجارة و هي ( التجارة

باجساد النساء. (

]و من يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم[

ان المجتمع الفاسد ، و الاقتصاد المنحرف ، و بالتالي الفقر المدقع ، كانت عوامل ألجأت النساء الشريفات بفطرتهن لممارسة الانحراف ، و امتهان البغاء ، و لذلك فان الله يقبل توبتهن اليه . جاء في الحديث في تفسير هذه الآية الكريمة:

"كانت العرب و قريش يشترون الاماء ، و يضعون عليهم الضريبة الثقيلةو يقولون : اذهبوا و ازنوا و اكتسبوا ، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك " . (١)و لعل الآية تشير ايضا الى ضرورة رفع العقبات الاجتماعية التي تكره الفتيات على البغاء ، مثل غلاء المهور ، و وضع شروط للتزويج - ما أنزل الله بها من سلطان - و لقد واجه الاسلام هذه العقبات بقوة ، فقد جاء في السيرة : ان رسول الله صلى الله عليه و آله زوجالمقداد بن الاسود ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ، و انما زوجه لتتضع المناكح ، و ليتأسوا برسول الله ، و ليعلموا ان اكرمهم عند الله اتقاهم . (٢)و شجع الاسلام على المساعدة في أمر الزواج لتسهيل أمر هذا المشروع الحضاري ، فقد جاء في الحديث المأثور عن الامام الباقر عليه السلام:

"ثلاثة يستظلون بظل عرش الله يوم القيامة ، يوم لا ظل إلا ظله ، رجل زوج أخاه المسلم أو أخدمه ، أو كتم له سرا " . (٣)(١) المصدر / ص ٦٠٢

(2)المصدر / ص ٥٩٧

(3)المصدر / ص ٥٩٩

## بيوت أذن الله ان ترفع

## هدى من الآيات

ان النور الذي يتجلى في الطبيعة هو النور الذي يشع في قلب البشر ، لان الينبوع واحـد ، و هو الله الذي يمسك السماء و الارض بيد من القدرة ، و لولا هيمنته تعالى لما استقر حجر على حجر ، و لولا فيض رحمته لم يبق شيء من الوجود ، فهو ليس قائما بذاته و انمابما يمده به الله من نور البقاء.

و كمثل على ذلك - و تعالى الله عن الامثال - لو توقف المصباح عن اشعاع النور لحل الظلام على الفور، و لا يعني ذلك ان خلق الله للاشياء هو كما يفيض النور من المصباح ، كلا .. و انما بالارادة التي لا تحتاج الى زمان ، أو شيء من المعاناة ، انما هي لحظة الارادة المخلوقة و نفحة الرحمة المعطاة.

وما الاسلام الا حكمة قائمة على أساس هذه الفكرة : " و أشرقت الارض بنور ربها "و لعلنا نسميها ببصائر النور ، و لا مجال للحديث عن أبعادها الاسلامية العميقة ، و انما بينا ذلك ، لكي نعرف الجانب الآخر و هو : ان النور في القلبو المجتمع هو نفس النور في حياة الانسان التشريعية - و هو نفس النور في الحياة التكوينية ، فلو أمسك الله تعالى فيض نوره عن السماوات و الارض لانعدمتا في اقل من لحظة ، كذلك لو أمسك فيض نور رسالته عن البشر في حياتهم التشريعية و الاجتماعية لساد الظلم و الظلام.

لذا فان نور الله في التشريع كمصباح في مشكاة ( و المشكاة حفرة شق في الجدار يضعون المصباح فيها بعد ان يحيطوه بزجاجة تزيد من اضاءته ) و وظيفة المشكاة هي العمل على تركيز النور ، و افضل الزيوت التي كانت تستخدم للاضائة في ذلك الوقت هو زيت الزيتون الذي يزرع فوق الجبال، فلا يظلها يسار الجبل عن الشمس حين الشروق ، و لا يمينه حين الغروب ، فهي لا شرقية و لا غربية ، و كلما كان الزيت اصفى كان ضوؤه ابهى .. و كم تكون الاضاءة نيرة حينما يكون وقودها زيت الزيتون ، و يكون المصباح في مشكاة عبر زجاجة ؟!

كذلك نور الله الذي يهبط وحيا فيستقر في قلب الرسول (ص) الزكي ، الطاهر كما المصباح يشع نورا من زيت نقي ، و رسول الله يحيط هذا المصباح بزجاجة السنة الشريفة ، ليضع الجميع في اطار أهل بيته الطاهرين - عليهم الصلاة و السلام - الذين هم اشبه شيء بمشكاة نظيفة تحفظ النور و تنميه نورا على نور .

ان بيوتهم التي أذن الله ان ترفع ، كانت مشكاة للرسالة لانها ضمت ذكر الله ، المنبعث من قلوب اولياء الله ، المتقد بوقود مبارك هو الصلاة و الزكاة و خشية المنقلب ، و هذا البيت هو المثل الاعلى للاسرة المباركة حيث يجري السياق في سورة النور لبيان صفاتهاالمثلى.

وهكذا نستوحي من هذه الآية ضرورة جعل نور الايمان في مشكاة الاسرة ، و ذلك من أجل تربية النفس البشرية و تنمية العوامل الخيرة فيها لتتضاعف خيراتهاو بركاتها ، كالزيتونة اللاشرقية و اللاغربية ، تمتص من اشعة شمس الرسالة ازكاها ، و انماها ، و هكذا نتذكر بالآيات ان هناك سورين للاسرة الفاضلة : سور مادي و هو البيت الذي يحرم على الاجنبي اقتحامه ، و سور معنوي يعلو بالقيم السامية ، و البيت الذي اذن اللهله ان يرفع انما هو الذي يحصنه ذكر الله و تسبيحه ، و الذي يشتغل ابناؤه بمعايشهم و لكن دون ان تشغلهم عن ذكر ربهم ، و هكذا تحافظ الاسرة على مهمة الانسان ، الذي خلقه الله مصباحا للحياة ، يتفجر من جوانبه النور - ارادة و عقلا و عواطف - فلو ترك هذا النور تلفحه رياح الشهوة لانطفأ او لا اقل لقلت اضاءته ، و لكنك تجد من الناس من لا نور لهم أساسا ، و هم يجعلون انفسهم في قبور من ظلمات الكفر و الجحود ، كالليل المظلم تلفه امواج الشهوة ، و تكتنفه سحب الغفلة ، فلا يجد السبيل الى فهم الحقيقة ابدا.

**بينات من الآيات**

الله نور السموات و الارض:

] [34]و لقد أنزلنا إليكم ءايات مبينات[

ان الآيــات المبينات هي التي توضح الطريق للناس ، و تجعلهم قريبين من الحقائق ، و اسلوب القرآن في تفهيم الحقيقة هو اسلوب التذكرة ، و اثارة العقل ، بتوجيهه لها ، فالحقائق موجودة و الانسان يمتلك ما يكشفها ، و لكنه بحاجة الى من يدله عليها ، و يذكره بها، و ذلك عن طريق الآيات التي تشير اليها ، كالعبر التاريخية.

]و مثلا من الذين خلوا من قبلكم[

لتتعظوا بتجارب الآخرين ، و تزدادوا معرفة و رشدا.

]و موعظة للمتقين[

الذين يخافون عقاب الله ، اما من لا يخاف عقابه ، فانه لا يستفيد من القرآن ، فهو كالاعمى لا يستفيد من نور الشمس ، و هكذا القرآن علم و حكمة و موعظة ، ففيه آيات تبين سنن الله ، مما يزيد البشر علما ، ثم يضرب الامثال من الامم الغابرة ، مما يزيد البشر حكمة ، ثم يوصل ذلك العلم و تلك الحكمة بحياة القارئ مباشرة فيكون موعظة لمن يتعظ.

] [35]الله نور السماوات و الارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ]يفيض من نوره بمشيئته المطلقة على السماوات و الارض خلقا بعد خلق ، و لحظة بلحظة ، و كما يفعل ذلك في عالم التكوين ( الطبيعة ) فانه يفعـــل ذلــك في عالم التشريع ) الاحكام ) اذ يفيض علينا برسله و رسالاته ، فيعطي الانسان النــور ( العقل (لحظة بلحظة ،ليفهم الرسالة به.

ان نور الله يتجلى في الطبيعة كما يتجلى في التشريع . و ربما تبين هذه الآية المثال الثاني ، فلقد جاء في بعض التفاسير ان المقصود من المشكاة هو قلب الرسول (ص) اما المصباح فانه رسالات الله التي أنزلها على ذلك القلب الطاهر.

]المصباح في زجاجة[

يمكننا تأويل الزجاجة بالعقل الذي يستقبل نور الرسالة ، أوليس هو الرسول الباطن ، أوليس هو الحجة الباطنة ، و عنده تصديق ما أنزل الله ؟! كما يمكن تأويله بالرجال الصالحين ممن يحفظون رسالات الله ، و هذا هو المأثور.

]الزجاجة كأنها كوكب دري[

في نقائها و تلألئها ، فعندما تتلوث هذه الزجاجة فان النور يخبو ، و هكذا الامربالنسبة للعقل عندما يتلوث بالاهواء . لا يرى الحقيقة بعينه ، و لا يسمعها بأذنه ، و لذا فان مصباح الوحي لا ينفعه الا قليلا ، و انما يؤيد الرسالة من ذكر نفسه ، وتلألا عقله ، و لم يلهه عن رسالات ربه شيء.

]يوقد من شجرة مباركة زيتونة[

لانه يحتاج الى زيت يتقد به ، واذا أردنا ان نؤول الشجرة المباركة نقول أنها شجرة العلم أو التقوى . اذ ان المعرفة تمد مصباح الوحي بالوقود فيزداد بهاء و نورا في مشكاة القلب ، و بهذا جاءت الرواية المأثورة.

]لا شرقية و لا غربية[

بل في مكان تنشر بركاتها على العالم أجمع ، دون ان تختص بها ارض دون أخرى ، و لعل هذه الكلمة تشير الى الاستقامة في التقوى ، حيث ان المتقين لا تميل بهم ضغوط الحياة يمينا أو شمالا ، و قد تعددت النصوص التي فسرت هذه الآية الكريمة ، و نذكر فيما يلي ما جاءعن الامام علي بن الحسين (ع) في تفسيرها:

"في قوله عز و جل "كمشكاة فيها مصباح " قال : المشكاة نور العلم في صدر النبي (ص. (

"المصباح في زجاجة : "الزجاجة صدر علي ، صار علم النبي الى صدر علي ، علم النبي عليا.

"الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة " قال : نور العلم.

"لا شرقية و لا غربية "قال : لا يهودية و لا نصرانية.

"يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار " قال : يكاد العالم من آل محمديتكلم بالعلم قبل ان يسأل.

"نور على نور " يعني اماما مؤيدا بنور العلم و الحكمة في اثر إمام من آل محمد (ص) و ذلك من لدن آدم إلى أن تقــوم الساعـة ، فهؤلاء الاوصياء الذين جعلهم الله عز و جل خلفاء في ارضه ، و حججــه على خلقه ، لا تخلو الارض في كل عصر من واحد منهم " . (١(

]يكاد زيتها يضيئ و لو لم تمسسه نار[

فالانسان السوي - صاحب العقل النظيف - يمتلك علما نقيا ، بعيدا عن الاهواء و الخرافات ، فنفسه الشفافة تنتظر ادنى اشارة لتستوعب الحقائق ، و الآية تشير - فيما يبدو لي - الى ان التقوى - و هي زيت مصباح الوحي الزلال النظيف - هي طريق الهدى و سبيل المعرفة ،و مهد

الحكمة و السداد ، فانها تكاد تضيء الحقائق للبشر ولو لم تمسسه نار الوحي و نوره ، لذلك قال ربنا بعدئذ:

]نور على نور[

فنور الوحي يتقد بنور التقوى ، و الوحي يتألق بنور العقل ، الا ان التوفيق للهداية لابد ان يأتي من الله سبحانه .

]يهدي الله لنوره من يشاء[

فالله هو الذي يهدي من يشاء من عباده للنور الذي أرسله ، و هو نور الوحي و نور محمد (ص) و سنته الرشيدة ، و نور أهل بيته الطاهرين ( عليهم السلام. (

]و يضرب الله الأمثال للناس و الله بكل شيء عليم ](١) المصدر / ص ٦٠٤

فبعلمه اضاف نور الرسالة الى نور العقل ، و لا يمكن لاحد ان يستفيد من هذا النور دون مشيئته ، فلابد من التوجه له حتى يفيض على الانسان من نوره ، و لا يكون ذلك الا عندما يخلص الانسان العبودية له.

و لعلـــه انما قال تعالى " : لنوره " و لم يقل : ( بنوره ) لانه يهدي الانسان بنور رسالته ، لنور رحمته.

**بيوت الله**

[36]ان نـــور الرسالة لابد ان يوضع في البيت الرفيع و الاسرة الفاضلة كي يزداد اتقادا ، أما الاسرة المليئة بالعقد النفسية ، و الصفات الرذيلة ، فان النور ليس لا يتقد فيها فحسب ، بل و يخفت حتى ينتهي الى الظلام.

ففي تلك البيوت الرفيعة تنمو النفوس الطيبة ، ينمو العقل النير ، لانها البيوت التي يذكر فيها اسم الله كثيرا ، فيأذن الله لها بالارتفاع الى سماء الوحي ، فهي محل للعبادة و التسبيح في بدايات النهار و اخرياته ، من رجال جعلوا ذكر الله فوق كل ذكر ، و فوقالتجارة التي لا تمنعهم عن ربهم ، و لا تلهيهم عن اقام الصلاة ، و ايتاء الزكاة.

]في بيوت أذن الله ان ترفع [

تلك هي بيوت الانبياء و الصديقين و الصالحين ، ولولا ان الله أذن لها ان ترفع ، و يكون رجالها خير الرجال ، و نساؤها خير النساء ، منهم الائمة و الولاة ، و فيهم سيدة النساء ، و قدوة الصالحات و هم أهل بيت الرسالة .. لولا هذا لما حق لها ذلك ، ان الناس عبيد الله ، و هو الذي يختار لهم الائمة و السادة ، ولا ينبغي ان تكون للناس الخيرة من أمرهم ، و حتى طاعة الناس لرسل الله لا تكون الا باذن الله ، فقد قال ربنا عز و جل " و ما أرسلنا من رسول الا ليطاع بإذن الله " و جاء في حديث مأثورعن الامام الباقر (ع) في تفسير البيوت هنا:

"انها بيوت الانبياء و الرسل و الحكماء و ائمة الهدى " . (١)و لكن لماذا رفعت هذه البيوت ؟ انما بذكر الله.

]و يذكر فيها اسمه[

ان ذكر الله ينبعث من قلوب طاهرة هي المشكاة لنور الله.

]يسبح له فيها بالغدو و الاصال[

فعندما يستقبلون النهار يسبحون ربهم ، و يحيون صباحهم بتقديسه حتى لا يقدسوا ما سواه ، و اذا مالت الشمس الى المغيب ، و استقبلوا سواد الليل سبحوا ربهم ليغسلوا عن قلوبهم ادران الحياة و يأووا الى فراشهم بأفئدة طاهرة.

[37]ان نور الله يتجلى في ضمير هؤلاء المسبحين لأنهم تعالوا عن ملهيات الحياة ، فلا خشية الخسارة في التجارة ، ولا تبادل المصالح بالبيع يمكن لهما ان يلهياهم عن ذكر الله ، و اداء واجباتهم.

]رجال لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر الله[

فلذلك تراهم يبصرون الحياة من خلال نافذة الوحي ، و يجرون عليها شرائع الدين ، فلا تمنعهم ضغوط المعيشة عن تنفيذ الاحكام.

]و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة[

لان خشية المعاد تفوق عندهم خشية الخسارة ، في التجارة و البيع.

(1)المصدر / ص ٦٠٨

]يخافون يوما تتقلب فيه القلوب و الابصار[

فهم حذرون أبدا لانهم يخشون ان يبعثوا على غير دين الله ، و ألا تقبل حسناتهم و لا تغفر سيئاتهم.

] [38]ليجزيهم الله أحسن ما عملوا و يزيدهم من فضله و الله يرزق من يشاء بغير حساب ]فلا يكتفي بأن يجزيهم على أحسن أعمالهم ، بل يزيدهم من فضله لانه الغني الذي لا تزيده كثرة العطاء الا جودا و كرما.

] [39]و الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا و وجد الله عنده فوفاه حسابه و الله سريع الحساب ]فبغض النظر عن ايمان الانسان أو كفره ، استقامته أو انحرافه ، فانه يسعى دؤوبا لتكون اعماله مثمرة تصل به الى اهدافه و طموحاته ، و لكن الانسان المؤمن الذي يتبع تعاليم السماء هو وحده الذي يصل الى نهاية سعيدة ، اما الكافر فانه لا يحقق من اهدافه شيئا بالرغم من اجهاده لنفسه.

و ليت الامر يقف عند هذا الحد ، فبالاضافة الى الفشل في الوصول الى السعادة ، فانه يجد نفسه امام رب رقيب قد احصى اعماله ، و اعد له عذابا شديدا جزاء كفره.

و لا يظن المرء ان حساب الله مختص بيوم الآخرة فقط ، بل قد يرى نتيجة عمله في حياته الدنيوية ان خيرا فخير ، و ان شرا فشر ، و الله سريع الحساب.

] [40]و كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يرها‌و من لم يجعل الله له نورا فماله من نور[

كمن يغرق في ظلمات اعماله المنحرفة ، فلم يعد يرى شيئا من طريقه في الحياة ، بل يبلغ حدا لا يرى فيه يده لو قربها من عينه ، و ذلك بسبب عصيانه لربه ، مما سبب في سلب النور من عقله ، و سمعه ، و بصره ، فضل يتخبط في دياجير الظلام الدامس ، و الآية الكريمة تبين ان اعمال الكافر هي بذاتها ظلام ، و هل يهتدي من لم يجعل الله له نورا في الحياة ؟.!

و كلمة أخيرة : نجد في آيات هذا الدرس غرة الجمال و غاية الروعة ، فبعد ان ذكرتنا الآية الاولى بان القرآن آيات مبينات ، و مثل و موعظة ، بصرتنا الآية الثانية تجليات نور الله في السماوات و الارض .. و مثلا منها تجلى بالوحي في مشكاة قلب الرسول فاذا به نور على نور ، و بعد ان ذكرتنا آية النور - التي سميت السورة بها - بتفاصيل هذا النور فسرتها بالمثل الواقعي لتجسيد هذا النور:

الف - فهذه بيوت النبوة سمت بذكر الله ، انه مثل للمشكاة تستقبل المصباح ، " مثل نوره كمشكاة. "

باء - و يزهر فيها ذكر الله كما المصباح يشع في المشكاة " فيها مصباح. "

جيم -و الصالحون في هذه البيوت هم سور ذكر الله ، كما الزجاجة للمصباح ، و هم في ذات الوقت حصون الدين ، و أوتاد العلم و الفضيلة " المصباح في زجاجة. "

لذلك هم يسبحون ربهم بالغدو و الاصال لا تلهيهم تجارة و لا بيع.

دال -و تعلو شعائر الله على اكتافهم من اقام الصلاة و ايتاء الزكاة ، و تلك الشعائر وقود مسيرة التوحيد ، و زيت اتقاد نور الوحي في الآفاق " يوقد من شجرة مباركة. "

هاء - ثم يبصرنا السياق بجزاء هؤلاء و ان الله يزيدهم من فضله " نور على نور. "

و يبين القرآن صفات الكفر في الطرف الآخر من الصورة ليرينا مدى اتساع الهوة بين الطرفين:

الف -فبينما نجد هنا المشكاة أو البيوت الرفيعة ، لا نجد هنالك الا سرابا لا حقيقة له في قيعة ، لا سور و لا حدود واضحة ، و لا موانع طبيعية.

باء - و هنا يتسع النور ، اما هنالك فظلمات فوقها ظلمات . امواج البحر تغشاها سحب الليل.

جيم -و هنالك بيوت رفيعة ، يجللها نور الرسالة ، و يسمو بها ذكر الرب على شفاه رجال متعالين عن الدنيا ، يجب على العباد احترامها ، و تعظيم أهلها ، و طاعتهم ، أما هنا فظلمات بعضها فوق بعض ، لا تأوي من شر و لا تحمي من خطر ، و هم الطغاة و ولاتهم الظلمةالذين يجب البراءة منهم ، و قد جاء في تفسير ائمة الهدى ان الظلمات " فتن بني أمية " (١) ، و يجري فيمن يتبع النهج الأموي الجاهلي من الطغاة و الظلمة.

(1)المصدر / ص ٦١١

## كل قد علم صلاته و تسبيحه

## هدى من الآيات

كيف نعي الحقيقة الهامة التي ختمت بها آيات الدرس الآنف : " و من لم يجعل الله له نورا فماله من نور " ؟ و كيف نسمو بأنفسنا الى شأن الرجال الذين يسبحون الله بالغدو و الاصال ، دون ان يلهيهم عنه شيء ؟

يجيب السياق في هذا الدرس : بالاستماع الى سبحات الخلائق ، " الم تر ان الله يسبح له من في السموات و الارض. " ..

تعال و انظر الى الطير صافات ، تسبح ربها بألحان مختلفة ، و الله قد علم صلاتها و تسبيحها ، و علم ماذا تفعل.

و قد بسط الله ملكه و سلطانه على السموات و الارض ، و هو اذ يشأ يقبضهما اليه ، و اليه المصير.

و هو الذي يسوق السحاب ثم يؤلفه ثم يركزه و يكثفه فاذا بالمطر ينبعث منخلاله ، فيسقي به الرب من يشاء من عباده و يمنعه عمن يشاء ، واذا التقى السحابان يولدان البرق الذي يكاد ضياؤه يذهب بالابصار.

وهكذا يدبر الله الليل و النهار ، يختلفان ، وفي ذلك عبرة لأولى الابصار.

وهكذا يهديك الله الى ذاته ببالغ حجته:

فأولا : يريك الحقيقة التي تتجلى في كل شيء ، و على لسان كل حي الا وهي تسبيح الله و تقديسه.

و ثانيا : يذكرك بملكه و سلطانه.

وثالثا : يبصرك بلطائف نظمه و حسن تدبيره.

فإن صرت من ذوي الابصار فان العبرة هذه تكفيك هدى.

**بينات من الآيات**
**تدبير الله آية ملكه**
[41]يتجلى ملك الله و سلطانه الشامل في تدبيره لشؤون الوجود ، و التقلبات المستمرة التي نشاهدها فيه ، فالكون ليس ثابتا ، بل هو في حركة دائمة ، الليل يخلف النهار ، و النهار يغشاه الليل ، و السحب تأتي و تذهب و الامطار تتراوح بين الهطول و الانقطاع.

وهذه الحركة بذاتها دليل على من يحركها ، و النظام فيها دليل حكمته و واسع قدرته ، فمن الذي يسير السحاب في هذا الاتجاه أو ذاك ؟

و لماذا يتراكم على ارتفاعات ثابتة و لا يذهب الى اعماق الفضاء ؟ و لماذا لا تعود السحب الى المحيطات التي انطلقت منها فتمطر فيها بدل ان تتوجه الى الارض اليابسة فترويها ؟ ولماذا لا يحصل اضطراب في تعاقب الليل و النهار ؟ و لماذا .. و لماذا .. ؟ الخ.

ان هذه الظواهر الطبيعية ( و كثير غيرها ) دليل الحكمة البالغة للخالق المبدع سبحانه ، و لعل في قوله تعالى : " يقلب الله الليل و النهار " اشارة الى ضرورة ملاحظة تحولات الحياة ، و تقلباتها فلحظة الشروق .. لحظة الاصيل .. لحظات حلول الربيع و الخريف .. لحظات المطر .. و ما الى ذلك تهدي الانسان الى سر الحياة.

و هكذا التحولات الاجتماعية و السياسية الكبيرة ، كنشوب الحروب و سقوط دول و قيام أخرى ، تعكس سنن الله في المجتمع ، لأن قوانين الحياة و انظمتها انما تكتشف في هذه اللحظات ، فهل يعرف المنظرون السياسيون القوانين التي تحكم عالم السياسة الا من خلال الاحداث و التحولات الهامة ؟

ينزل المطر ، و تدب الحياة الى الارض الجرداء فتخضر ، و تغنى الطبيعة على اديمها و تنشط فيها الدواب و الطيور . ان هذه التحولات تفيض معاني جديدة على القلوب الطاهرة . فتسبح ربها و تكبره.

و حين يعلم الانسان زخارف الحياة و مباهجها تتغير باستمرار ، فلا ملك يدوم و لا ثروة تبقى و لا جاه يستمر فيها ، آنئذ لا يطمئن اليها ، بل يطمئن الى الحي الذي لا يموت ، فلو عقل الملك زوال الحكم ، و الغنى زوال الثروة ، لما استبد أو بخل ، و لما استكانت نفسه أو اطمأنت الا الى خالقه ، الحق الذي لا يتغير.

و هكذا يذكرنا الرب بسبحات الخلائق فيقول:

]ألم تر أن الله يسبح له من في السموات و الارض و الطير صافات ]تسبح بحمد الله ، و هذه الآية تدل على ان كل مخلوق قادر على التسبيح ، و انما و صف الله غير ذوي العقول بوصف ذوي العقول ، ليدلنا على ان لكل حي شعور بقدره يسبح به ربه قال تعالى : " و ان من شيء الا يسبح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم. "

ان رهافة سمع اولي الابصار تجعلهم يسمعون تسبيح كل حي في السموات و الارض ، لانهم يتجاوزون المظهر الى اللب ، و يعبرون الدلالات الى الحق و الشواهد الى الغيب ، فبالنسبة اليهم لا تعني حركة الاسماك في البحار ، و لا صراع الوحوش في الغابات ، و لا رفرفة الطيور في الفضاء ، مجرد نشاط عابث من أجل البقاء ، انما فيه ايضا محتوى رباني ، و ابعاد فوق مادية ، انه تسبيح و صلاة و سعي نحو الاعلى..

كيف لا يسبح ذلك القلب الزكي الذي لا يلتفت الى حي حتى يسمع منه التسبيح ، و يرى منه الصلاة و التبتل و اذا وجد بلاء يصيب واحدا من الاحياء عرف انما اصيب لانه نسي ذكر الله.

جاء في رواية عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام:

"ما من طير يصاد في بر و لا بحر و لا يصاد شيء من الوحش الا بتضييعه التسبيح " . (١)[ كل قد علم صلاته و تسبيحه و الله عليم بما يفعلون ](١ (المصدر / ص ٦١٣

من الذكر و التسبيح و عموم العبادة و الافعال الصالحة الاخرى ، و هذا ما يدعو الانسان الى الاهتمام بالعبادة و التوجه الى رب العالمين.

وهكذا روي عن الامام ابي جعفر الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية:

"ان الله عز وجل ملكا على صورة ديك ابيض رأسه تحت العرش ، و رجلاه في تخوم الارض السابعة ، له جناح في المشرق و جناح في المغرب ، لا تصيح الديوك حتى يصيح ، فاذا صاح خفق بجناحيه ثم قال : سبحان الله ، سبحان الله ، سبحان الله العظيم الذي ليس كمثله شيء ، قال فيجيبه الله عز و جل فيقول : لا يحلف بي كاذبا من يعرف ما تقول " . (١)و تذكرنا هذه الآية بعلم الله المحيط بكل شيء حتى بخبايا نيية الطيور.

] [42]و لله ملك السموات و الارض و إلى الله المصير ]فكما كانت منه البداية كذلك تكون النهاية اليه ، و في هذه الحقيقة - التي تقوم على اثباتها كل الشواهد العقلية ، و تظهر تجلياتها في كل الطبيعة - اعظم موعظة للمتدبر الذي لم يسمح لحجب الغفلة أو الشهوة ان تغطي بصره و بصيرته ، و اكبر دافع نحو توجهه الى العزيز الحكيم بأن يجعل عمله خالصا لوجه ربه الكريم ، لا يريد جزاء و لا شكورا من احد غيره ، و لا يخشى او يخاف احدا سواه.

و تهدينا الآية الى سلطان الله الفعلي على جوهر الاشياء . و انه الذي يمسك بقدرته ناصية الحقائق ان تزول و تنعدم.

] [43]ألم تر أن الله يزجي سحابا[

(1)المصدر

فلا موضع للصدفة التي هي اكذوبة الجاحدين ، و لا يمكن ان يكون هذا النظام بلا مدبر حكيم و هو الله الذي يحمل الرياح السحب التي تزن ملايين الاطنان ، تتحرك بكل خفة و سهولة في طبقات الجو العليا..

]ثم يؤلف بينه[

فلـــولا تكاثف السحب لما هبط المطر ، ثم ان السحاب مؤلف من شحنات سالبة و موجبة ، و لولا ذلك لما نفع الزرع ، فالبرق الذي يفرز المواد الضرورية لنمو النباتات انما تؤلفه الامواج الكهربائية القوية التي يولدها الاحتكاك بين هذه الامواج.

]ثم يجعله ركاما[

كي ينزل المطر ، فبدون ان يتكثف السحاب لا ينزل المطر . و تكثفه لا يتم الا عبر قوانين يجريها الله سبحانه فيها.

]فترى الودق يخرج من خلاله [

و هو المطر حالة تكونه و خروجه ، من بين ثنايا السحاب.

]و ينزل من السماء من جبال فيها من برد[

فالسحب في الفضاء كما الجبال في الارض ، من حيث ضخامة كتلتها و تفاوت ارتفاعاتها ، و يمكن للانسان الاطلاع على هذه الحقيقة عندما يطير مسافرا من بلد لآخر فوق الغمام.

و لعل في الآية اشارة الى حقيقة يذكرها العلماء : ان طريقة تكون ( البرد ) هي ان قطرة من الماء تنزل من السحاب ، ثم تمر بطبقة باردة فتتجمد ، ثم تحمله الرياح الشديدة الى الاعلى من جديد . و تتقلب بين جبال السحب ، كلما مرت سحابةحملت قدرا أكبر من الماء ، فنزلت فحملتها الرياح - مرة أخرى - الى الاعلى حتى تثقل و تهبط الى الارض . و قد تنزل حبات البرد بحجم البيضة.

]فيصيب به من يشاء و يصرفه عن من يشاء[

من عباده ، و عموم خلقه ، اذن فليس ذلك بالصدفة.

]يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار[

لشدة الوميض الخاطف الصادر عن تفريغ شحنات كهربائية هائلة بين السحاب .. و هكذا فاننا نجد في هذه الظاهرة الطبيعية بشارة خير بنزول رحمة الله ( المطر ( ، و انذارا صارما بعقاب الله الذي لو نزل فانه لا يبقي و لا يذر و لأفنى الاحياء.

**بين الايمان و العلم**

] [44]يقلب الله اليل و النهار إن في ذلك لعبرة لأولي الابصار[

الله سبحانه هو الذي بيده الليل و النهار يقلبهما بقدرته ، و هذه عبرة لاصحاب البصائر النافذة ، و العقول النيرة . الم يقل الله : " و من لم يجعل الله له نورا فماله من نور " و الم يقل عن الكفار : "

أو كظلمات في بحر لجي " ؟؟..

و هذا يعني ان من لا يملك الايمان لا يفهم سر الحياة ، كما لا يدرك التحولات و التقلبات الاجتماعية ، و لا يفهم ان الله هو الذي يقلب الليل و النهار الا اولو الابصار ، الذين يمتلكون البصر الحقيقي النابع من الايمان ، و هذا يدل على ان معرفة الله بداية كل معرفة ، و ان الكفر بالله انحراف يستدرج الانسان الى كل انحراف.

## الطاعة المصلحية الدواعي و النتائج

## هدى من الآيات

يبصرنا الرب بملكه و اقتداره عبر تذكيرنا بخلقه الاحياء ، الم يخلق كل شيء من ماء ؟ و لكن انظر الى مدى التباين بين الدواب ، فمنهم من يمشي على بطنه كالحيات و منهم من يمشي على رجلين و منهم من يمشي على أربع ، هكذا ينشىء المليك المقتدر ما يريد ، ليعرفنابواسع قدرته المحيطة بكل شيء.

وهذه آيات القرآن تبين لنا و تذكرنا بالرب و يهدي الله من يشاء الى صراط مستقيم.

و الهداية لا تعني مجرد الاعتـــراف اللساني بل لابد ان تصدقه الطاعة عند القضاء ، فهنالك من يدعي الطاعة فاذا خالف الحق هواه أو مصالحه تولى . كلا ..ليس هؤلاء بالمؤمنن فليس الايمان هو الاذعان عند توافق المصلحة و التولي عند مخالفتها ، و لكن لماذا هذاالتفريق ؟ هل في قلوبهم مرض الجسد و الحقد و حب الدنيا أم هم في ريب من صدق الرسالة ؟ أم يخافون من ان يظلمهم الرب في الحكمالذي يصدره الرسول ؟ الواقع أنهم يظلمون أنفسهم حين يتولون عن العدالة الالهية.

ماهي علامة الايمان ؟ انها الطاعة عندما يدعوهم الرسول ليحكم بينهم ، و هذا يوفر لهم الفلاح و الفوز ايضا ان هم اطاعوا الله و رسوله و خافوا الله و اتقوه.

و يبقى السؤال التالي:

ما هي علاقة هذه الآيات بالمحور الرئيسي لسورة النور ( الذي كان الاسرة و ما يدور حولها من قضايا اجتماعية و تربوية ) ؟

و للاجابة على هذا السؤال يمكننا أن نقول:

أولا :ان القرآن لا يكتفي ببيان المعالجات التي ترفع الانحرافات الاجتماعية ، بل هو بذاته علاج لها و شفاء لما في الصدور ، و هدى و رحمة للمؤمنين و لا يكتفي القرآن باعطاء العلاجات الفوقية ، بل يسعى لعلاج الانحرافات جذريا ، من هنا نجد ان الآية القرآنيةالواحدة تذكرنا بالحكم الشرعي ، كما تذكرنا بعقوبة الله أو بثوابه.

فالحكم بيان للعلاج ، و لكن التهديد بالعقاب و الترغيب في الثواب هو ذاته علاج ، لان كلا من الترغيب و الترهيب يعطي النفس البشرية سحنة من الارادة القوية التي تقاوم الانحراف.

وفي هذه السورة بالذات يحدثنا القرآن عن الاسرة الفاضلة و التي من ميزاتها انها تؤمن بالله ، و ان البيت الذي يحويها هو بيت الايمان الذي يذكر فيه اسم الله كثيرا .. و هذا علاج للانحراف الذي قد يقع في الاسرة داخل المجتمع ، و العلاج هو : ان الانحرافات البشرية يجب ان يزيلها الايمان بالله مع الذكر و التسبيح.

بيد ان القرآن لا يكتفي بذلك ، بل يقوم باعطاء العلاج ذاته عبر بث روح الايمان في قلب الناس ، فنراه يحدثنا طويلا عن الايمان بالله ، و عن التذكرة بالقيم الحقيقية ، و عن التوجه الى رب

السماوات و الارض .. الخ.

ثانيا : ان كل انحراف في البشر نابع من انحراف آخر ، و تتسلسل الانحرافات الواحدة تلو الاخرى ، حتى تصل الى الانحرافة الكبرى في حياة الانسان و هي الكفر بالله ، و الابتعاد عن هداه ، و ذلك هو الضلال البعيد.

و فـي الوقت الذي يعالج القرآن تلك الانحرافات الفرعية يعالج الضلال البعيد ذاته ( و هو الكفر ) ، لذلك نجد القرآن - سوره و آياته و دروسه و عبره - تبتدئ بذكر الله ، و تختتم به ، لانه المحور الحقيقي الذي تدور حوله كل القضايا.

ثالثا : ان اهم صفة من صفات الانسان في الاسرة الفاضلة ، و التي يجب على الاسرة أن تسعى من أجل تركيزها و تنميتها في ابنائها ، هي صفة الطاعــة المستقيمة للحــق.

ذلك ان الانسان في الطاعة مختلف:

أ -فقد ينمو الانسان متمردا على النظام و على اية سلطة حتى و لو كانت السلطة سلطة شرعية ، بل و يتمرد ضد اية نصيحة مما يجعله اشبه ما يكون بالوحش الهائج.

ب - و قد ينمو ذليلا يعطـــي القيادة لاي كان ، و يخضع لكل الناس و لكل الانظمة ، و يصغي لكل الاوامر و التعليمات ، و هذا اشبه ما يكون بالبضاعة يشتريها من أراد..

ج - و قد ينمو الانسان و يتربى على طاعة الاهواء و الشهوات و بالتالي طاعة كل من يشبع فهم رغباته ، بغض النظر عن استقامته او انحرافه ، و عدالته أو ظلمه ،و اكثر الناس في الواقع هم من هذا النموذج ، اذ يطيعون من بيده المال أو السلطة ، و هؤلاء ايضا فاسدون كغيرهم.

د - انما الفريق الرابع فهو الذي يطيع ، و لكن لا للشهوات و المصالح ، و لا حبا في االطاعة العمياء ، و انما يطيع القيم ، فطاعته لاي أحد نابعة من ولائه للحق ، و ايمانه بالقيم السامية ، و هذا هو الانسان الذي يجب ان تسعى الاسرة الفاضلة من أجل تربيته و تنمية مواهبه ، و بلورة شخصيته.

و يحدثنا القرآن الحكيم في منتصف هذه السورة عن ضرورة الطاعة ، و انها يجب ان تكون لله لا للمصالح ، و ليس خوفا من ارهاب اي سلطة بشرية ، و هذه هي النقطة المحورية لبناء الانسان الفاضل في الاسرة الفاضلة..

ثم ان الاسرة الفاضلة تبتدئ من الانسان المطيع لله ، و تنتهي اليه ، فالاب الذي لا يخضع لشهواته العاجلة ، و لا لمصالحه الخادعة ، و لا للشركاء من دون الله كسلطان الجور ، و اصحاب المال :انه هو الذي يستطيع تربية ابنائه على شاكلته ، اما الآخر الذي تمتلئحياته بالطاعة العمياء ، للمال و لاصحاب المال ، أو السلطة و لاصحاب السلطة ، أو للارهاب ، فانه لا يستطيع تربية أبنائه احرارا ، يقاومون انحراف النفس و المجتمع.

رابعا - لو بحثنا بعمق عن الاسباب الحقيقية للانحرافات البشرية ، لوجدناها تنطلق من طاعة الانسان للشهوات ، فالذي لا يطيع شهواته لا يسرق ، لان من يسرق انما يسرق لكي يصبح اكثر ثراء من غيره ، أوليست هذه شهوة ؟

وهكذا يكذب الانسان و يظلم أو يخاف من الناس ، و هو يعلم ان كل ذلك طريق للانحدار و التردي .

و اذا ما عالج الانسان هذا المرض عنده فان سائر الانحرافات التي يعاني منهاستشفى طبيعيا تباعا لعلاج الجذر.

**بينات من الآيات**

] [45]و الله خلق كل دابة من ماء[

لابد ان كل انسان قد شاهد النملة التي لا تكاد العين تراها ، كيف تبحث عن رزقها و كيف تمتلك ما تملكه الحيوانات الضخمة من أجهزة داخلية و اعضاء مختلفة ؟ و هي تعرف بما اودع الله فيها من الهدى ان الحبة التي تحصل عليها يجب ان تفلقها الى عدة اجزاء قبل ان تختزنها ، لكي لا تنمو ثانية و هي في بطن التراب ، و الاغرب من ذلك انها تفلق الحبوب الى قسمين الا حبة الذرة ، فانها تفلقها الى اربع اقسام بنظرتها التي اودعها الله فيها ، و كأنها تعلم لو انها فلقتها الى قسمين لامكن لكل جزء منها ان ينبت لوحده دون سواها منالحبوب ، و اذا رأت مكانا فيه غذاء فانها تذهب و سرعان ما تعود و معها جيش من النمل ليتعارنوا جميعا على نقله ، و ادخاره ، ترى كيف ابلغتهم بالامر و بأي لغة تكلمت ؟

هذه النملة الصغيرة خلقها الله من الماء ، و ذلك الفيل الضخم الذي اذا رأيته هالك منظره ، هو خلقه الله من الماء ايضا ، و هكذا سائر الحيوانات البرية و البحرية ، و الطيور و الحشرات بالاضافة الى البشر.

ان تنويع الخلقة ، و التركيز على ان كل نوع منها يسير وفق سلسلة معينة في تدرج الحياة يعطينا ايمانا بالله ، و بقدرته اللامتناهية حيث خلقها جميعا من الماء..

]فمنهم من يمشي على بطنه[

كالزواحف.

]و منهم من يمشي على رجلين [

كالانسان.

]و منهم من يمشي على أربع[

كالدواب.

]يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير[

سأل رجل الامام الصادق (ع (لماذا خلق الله كل هذه الاحياء ؟

فأجابه )ع) : بأن الله عز وجل خلق انواع الخلقة حتى لا يقول الانسان لو كان الله قادرا لخلق حيوانا بالصفات الفلانية ، فكل ما يمكن ان يتصوره الانسان من انواع الحيوانات يجده مخلوقا ، ان لم يكن في عصره ، ففي العصور الغابرة ، و ان لم يكن في بيئته ، ففي البيئات الأخرى . (١(

فربنا الذي شاء و كانت مشيئته هي الغالبة ، و انت بدورك محكوم بارادة الله ، فلماذا التمرد و لماذا العصيان ؟؟

[46]و في الوقت الذي انزل الله الآيات التي تذكرنا بآياته ، فان البشر بحاجة الى الهداية المباشرة من قبل الله برحمة يخص بها من يشاء منهم ليهتدوا الى الصراط المستقيم ، ذلك ان الهداية نعمة عظيمة و هدف رفيع لا ينالها كل الناس.

]لقد أنزلنا ءايات مبينات و الله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ]اذن فعليك ان تسعى من أجل الحصول على هداية الله بطاعته و التقرب اليه بالاعمال الصالحة.

(1)الحديث منقول بمضمونه لا نصه.

[47]بيد ان هناك اناسا يدعون الايمان و لكن واقعهم يخالف ما يدعون.

]و يقولون ءامنا بالله و بالرسول و أطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ][٤٨] ان اصوب مقياس للايمان هو الطاعة عند الصراع ، فاذا اسلم للحق الذي يخالف هداه و مصلحته و قبل العدالة التي تكون الى جانب خصومة ، و تنازل طواعية عن دعاويه اذا حكم القاضي العادل ضده ، فان ايمانه حق ، و الا فان دعوى الايمان غير مقبولة.

]و إذا دعوا الى الله و رسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ][٤٩] و لان طاعتهم لله و الرسول نابعة من مصالحهم المادية ، فاذا كان الامر لصالحهم اطاعوا و دعوا الناس الى الطاعة ، اما اذا لم يكن الامر كذلك فانهم يخالفون حكم الله و يعرضون عن شريعته فاذا عرف احدهم انه لو ذهب الى الحاكم الشرعي فانه سيحكم ضده ، فانهيذهب الى المحاكم الجائرة ليتسنى له التلاعب بالقوانين عبر الرشاوي.

اما المحاكم الاسلامية الحاسمة التي تقضي بالحق فانه لا يذهب لها الا اذا علم بان قضيته رابحة ، و يكون في هذه الحالة اسرع الناس الى حكم الاسلام ، و اكثر الناس دعوة الى الأخذ به.

]و إن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين[

[50]و هذا نوع من انواع الطاعــة المصلحية ، و الايمان المنفعي المرفوض في الاسلام ، و لكن ما هو الدافع لهذا الايمان ؟

]أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون ان يحيف الله عليهم و رسوله بل أولئك هم الظالمون ]ان الذين يخشون العودة الى طاعة الله ، و حكم الرسول هم أحد اولئك التالية صفاتهم:

**أولا : مرضى القلوب**

الذيــن يخالفون قيادة الرسول ، استكبارا في الارض ، و تمردا على هذه القيادة الشرعية ، فلقد كان بنوا امية و غيرهم من بطــون قريــش يحســدون النبــي محمد (ص) - القيــادة الشرعية - لانه كان من عائلة بني هاشم ، التي اثبتت سيادتها و تفوقها على غيرها ، مما دفعهم لحسدها و من ثم حسدوا الرسالة و القيادة المنبعثة عنها.

وهذا نوع من امراض القلب ، حيث يسارع صاحبه الى اتخاذ موقف النفور و الكراهية ضد كل من يتحلى الطيبة و الاخلاق الفاضلة ، لمجرد انه يستقطب الناس حوله و يتفوق عليه.

**ثانيا : الريبة**

حيث تستبد بقلب البعض حالة الشك فيكون شخصية قلقة يشك في كل شيء ، و هكذا يشك في القيادة الرسالية ايضا لشكه الاساسي في الدين.

**ثالثا : الخوف من الحيف**

و هناك فريق ثالث يتمردون على القيادة الرسالية بسبب خوفهم من ان تسبب لهم الضرر ، كما لو أرادت اعادة حقوق المظلومين و يعتبرون ذلك ظلما لهم ، في حين ان الظالم الحقيقي هو الذي يمتص دماء المستضعفين ، و يترف على حساب المحرومين ، و ليس حيفا ان يسترد اللهحقوق المستضعفين من المستكبرين ، انما هو

العدل و الإنصاف بعينه ، و حاشا لله ان يظلم أحدا أو رسوله ، بل الذين يخالفون الله و رسوله ، لهذه الاسباب هم الظالمون.

[51]و في مقابل هؤلاء الذين يقولون أطعنا ، ثم يخالفون القيادة الرسالية في ساعة الجد ، و يميلون الى مصالحهم و اهوائهم الشخصية ، نرى اولئك المؤمنين الصادقين و الذين اذا قالوا أطعنا استقاموا على ذلك ، و ثبتوا مضحين بمصالحهم الشخصية لصالح الاسلام و المسلمين ، و استجابوا لكل الاوامر القيادية على الرغم من شدتها و صرامتها.

]إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا الى الله و رسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا و أطعنا و أولئك هم المفلحون ][٥٢] لانهم يتلقون احكام الله و تشريعاته و تعاليم نبيه الاكرم ، و يعملون بموجبها في معاملاتهم الاقتصادية و السياسية و القضائية و غيرها ، - تماما - كما يفعلون ذلك في شؤونهم التعبدية كالصلاة و الصوم و غيرها ، فما من واقعة الا و الله فيها حكم يتبعونه، و هكذا يجب على ابناء الامة الاسلامية ان يستجيبوا لنداء علماء الاسلام عندما يدعونهم لمنهج الله في الحكم و السياسة ، أو الاقتصاد ، و سائر شؤون الحياة ، لا أن يهرعوا الى الغرب تارة و الى الشرق تارة اخرى ، يبحثون عن المناهج و الاحكام عندهم.

]و من يطع الله و رسوله و يخش الله و يتقه فأولئك هم الفائزون ]ذلك لان من يمتلكون هذه الصفات الثلاث ( الطاعة ، الخشية ، التقوى ) يكونون قد استكملوا اسباب الايمان الحقيقي ، فيحصلون على الفوز من الله.

أنهم يطيعون الله و رسوله خشية من عقابه المهين ، و عذابه الاليم ، ولان الخشيةشعور مؤقت قد يخبو مع الزمن في النفس البشرية ، فانهم يدعمونها بالتقوى ، و هي الالتــزام الدقيق بالتعاليم الاسلامية صغيرها و كبيرها ، و الاهتمام البالغ بكل الاوامر الالهية.

## و ليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا

## هدى من الآيات

في اطار الحديث السابق عن الطاعة للقيادة الشرعية التي أمر الله بها - تلك الطاعة التي هي أحد اهداف التربية السليمة - يبين هذا الدرس : ان هناك مقياسا واحدا و حقيقيا لمعرفة مدى تسليم الانسان لربه ، و بالتالي لمعرفة مدى عمق الايمان و صدقه ، و ذلك المقياس هو : مدى طاعة الانسان لقيادته الرسالية التي تجسد اوامر الله سبحانه.

و الطاعة المقصودة هي الطاعة المستقيمة في أوقات الشدة و الرخاء لا في الرخاء فحسب ، لأن الانسان قد يكون مستعدا للطاعة ، و لكن في حدود القضايا البسيطة التي لا تكلفه شيئا من الجهد ، اما حينما يؤمر باقتحام الصعوبات في الحياة كالجهاد ، فانه ينكص على عقبيه ، خسر الدنيا و الآخرة ، و كثير اولئك الذين يتظاهرون بالايمان بل و يحلفون باغلظ الايمان و أشدها انهم يطيعون القيادة عند الشدة الا انهم حين تأمره القيادة بالخروج الى الحري ينكثون فاذا بادعائهم مجرد حلف غطاء لنفاقهم.

و يؤكد ربنا سبحانه و تعالى على ضرورة الطاعة للقيادة الشرعية ، كالرسول (ص) ، و اولي الامر ، و انه يجب ان لا يقلق الانسان بعد ذلك على المستقبل ، لان الله قد ضمنه للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ، حيث وعدهم بالنصر و التأييد ، و اكد ان الرسول قد حمل الرسالة ، و انتم حملتم طاعته.

ففي ساعة النصر ينسى الانسان كل لحظات الصعوبة التي مر بها ، لذلك أكد الله سبحانه للمسلمين المؤمنين انه سيجعلهم خلفاء في الارض ، بعد ان يهلك اعداءهم ، كما حقق ذلك للذين آمنوا و عملوا الصالحات من قبلهم ، و الخلافة لا تشكل هدفا لذاتها ، بل هي وسيلة لهدف اسمى ، هو تطبيق حكم الله ، و من ثم عبادة الله و حده و اسقاط سلطة الالهة الباطلة.

و ينهي القرآن الحديث في هذا الدرس بتسفيه فكر الكفار الذين يعتقدون بقدرتهم على فعل كل شيء ، اذ لا يمكن لاحد ان يقف أمام المد الايماني ، الذي تقوده رسالة الله ، و يتصدره المؤمنون الصادقون ، فليس الكفار بمعجزين في الارض ، و ليسوا بقادرين على ان يمنعوا حركة التاريخ من المضي قدما ضمن سنن الله في الطبيعة و المجتمع.

**بينات من الآيات**

[53]و أقسموا بالله جهد ايمانهم لئن أمرتهم ليخرجن[

الى معترك الحرب و سوح الجهاد ، فقد أقسموا على ذلك بأغلظ الايمان الممكنة ، و هل يحتاج الانسان الصادق للحلف حتى يفي بالوعد ؟!

قل لا تقسموا طاعة معروفة[

الطاعة الحق معروفة لان العمل يصدقها و لا تحتاج الى القسم ، فهل يحتاجالانسان في البديهيات الحياتية الى القسم ؟! بالطبع كلا .. لانها قضايا معروفة لا داعي للحلف فيهـــا ، لذلك ينبغي ان تكون الطاعة اساسا ثابتا في حياة المسلم ، و جزءا من كيانه ، فلا داعي لان يجعلها في خانة الشواذ ، التي يحتاج صاحبها للحلف حتى يبرهن على صدقه فيها ، بل يجب تحويلها الى صبغة ثابتة في حياته.

إن الله خبير بما تعملون[

فـــاذا خادعتم القيادة الرسالية بقسمكم ، فلن تخدعوا ربكم و هو الخبير بما تعملون ، و اذا كان عملكم رديئا فلن يغير القسم من طبيعته شيئا ، مهما كان مؤكدا و مغلظا.

**دور القيادة و مسؤولية الامة**

[54]قل اطيعوا الله و أطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل و عليكم ما حملتم[

ان طاعة الرسول - و هكذا القيادة الشرعية من بعده - هي الطريق الى طاعة الله سبحانه ، و لا تعني طاعة الله شيئا من دون الطاعة للرسول ، و يخطؤون اولئك الذين يقولون حسبنا كتاب الله ، رافضين طاعة القيادة الرسالية التي فرضها الله عليهم كي تحدد لهم المناهجالدقيقة و التفصيلية لمختلف التغييرات الحياتية.

هذا الموقف و ان حاول اصحابه اعطاءه صبغة شرعية ، الا انه - في الواقع - نوع من التمرد على الله ، لذا تتكرر في الآيات القرآنية كلمة ( الطاعة.. (

ولم يقل تعالى : قل اطيعوا الله و الرسول ، بالرغم من ان طاعة الرسول امتدادا لطاعة الله ، بل كرر كلمة " اطيعوا " ليؤكد على الطاعة الثانية تأكيدا مباشرا ، و ذلك لصعوبتها على كثير من الناس.

ان طاعـــة الله قد تكون في الامور الثابتة ، اما طاعة الرسول - التي هي ايضا طاعة لله - فهي اتباع منهج الله العملي في القضايا السياسية ، و الشرعية ، و في متغيرات الحياة العامة ، كما في الحوادث الواقعة ( الجديدة. (

ومن لم يفهم هذه الحقيقة فانه معرض للتمرد على الرسول ، و لمن يخلفه من بعده.

فإن تولوا فإنما عليه ما حمل[

وهو تبليغ الرسالة.

]و عليكم ما حملتم[

وهو الاستجابة له فيما يأمر به.

والله يجازي كل انسان على حدة ، دون ان يجعل مسؤولية الناس على عاتق الرسول (ص) ، كما انه لا يكلف الرسول بان يفرض الطاعة عليهم.

]و إن تطيعوه تهتدوا[

لانكم تصلون بذلك الى فهم حقيقة الحياة.

و نستوحي من هذه الآية تأويل قوله سبحانه في آية مضت آنفا : " و الله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم " حيث نعرف ان طاعة الرسل و اوصياءهم وسيلة للهداية ، و ان مخالفتهم طريق الضلال.

]وما على الرسول إلا البلاغ المبين[

و بالرغم من اننا نعتقد بهذه الفكرة بصفتنا مسلمين ، الا اننا حين نضعها موضعالتطبيق يثقل علينا الأمر ، لان الانسان بطبيعته يحاول التهرب من المسؤولية ، و القاء الاخطاء على كاهل الآخرين ، أو يلقي بمسؤولية عدم قيامه بواجباته على عاتق القيادة ، أيا كانت ، فالابن يلقي التبعة على الاب ، و التلميذ على الاستاذ ، و المدرس على ادارة المدرسة ، و ادارة المدرسة على الوزارة المختصة بها ، و هكذا..

فلكي يتنصل كل واحد منا من ثقل المسؤولية التي اشفقت منها السماوات و الارض و الجبال تجده يوزع الاتهامات يمينا و شمالا ، و لا يبخل بها حتى على قيادته ، بل انها تنال الحظ الاوفر منها ، و هذه فكرة ضلال في نفس الوقت.

## هدف الدولة الاسلامية

] [55]وعد الله الذين ءامنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم[

و هنا ثلاثة اسئلة لابد من الاجابة عليها:

الاول : ما هو الربط بين هذا الوعد بعد الامر بالطاعة ؟

الثاني : لماذا أكد القرآن على كلمة " منكم " ؟

الثالث : ما معنى الإستخلاف في الارض ؟

الجواب أولا : لان الطاعة للقيادة أمر صعب جدا ، ولا يمكن ان يلتزم الانسان بها مخلصا تمام الاخلاص ، الا ان يكون وراءه هدف محدد.

و حينما تسعى جماعة مؤمنة لتحقيق الإستخلاف في الارض ، فان الافراد يتنازلون مرحليا عن انانيتهم ، و يذوبون أنفسهم في بوتقة القيادة ، و هذا يجعل كل واحد منهم يلبس شخصية جديدة ، هي شخصية المجموع ، و يتمثل بالتالي شخصيةالقيادة.

ثانيا : جاءت كلمة " منكم " لتبين بأن الإستخلاف سنة جرت في السابقين ، وهي ليست حكرا على اولئك ، بل تجري فينا أيضا ، و من سيأتي بعدنا من المؤمنين ، اذ ليست هذه السنة حكرا على فئة محددة في زمن محدد ، بل يكفي ان يتحقق شرطا " الايمان و العمل الصالح " لتأخذ

هذه السنة مجراها في أي مجتمع.

أما الجواب عن السؤال الثالث :

أ - فقال جماعة من المفسرين إن الإستخلاف يعني ذهاب طائفة من الناس ، و حلول أخرى محلها.

ب -وقال آخرون إن معنى الإستخلاف هو إكرام الله المؤمنين بجعلهم ائمة الناس ، ليقوموا بتطبيق الشريعة ، كما استخلف الأنبياء و الأوصياء و الصالحين من المؤمنين من قبلهم.

و الواقع إن الخلافة كما جاء في ( أ ) ، فهذا هو المعنى الضيق للكلمة ، فكل الناس خلفاء لمن سبقهم ، حتى الكفار منهم ، فلا داعي للتخصيص ، لان الله وعد المؤمنين بالخلافة عامة.

و عموما فإن الخلافة في الأرض هي القيادة التي يهبها الله لفئة من الناس ، لأنهم يتبعون ما أنزل عليهم من قيم.

إذن فواقع الإستخلاف يعني أمرين:

الاول : ان الله يعطي السلطة للمؤمنين و يمكن لهم تمكينا.

الثانـــي : ان هذه السلطة لا تكون الا بإذن الله الذي يحققها و يعطيها الشرعية.

]و ليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم[

فسلطتهـــم ليست كأي سلطة مادية ، بل هي سلطة روحية تهديها القيم الرسالة.

]و ليبدلنهم من بعد خوفهم[

الــذي عاشوه في ظل السلطات الجائرة و هم يقاومونها حتى يقيموا دولة الحق.

]أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا[

ان الهدف الحقيقي للحكم الذي يعطيه الله للانسان ، ليس التسلط على رقاب الناس ، فهو ليس هدفا بذاته ، بل الحكمة منه هو عبادة الله و عدم الشرك به .

ان توفر ظروف التخلص من الضغوط الشركية حيث يرتاح الانسان من شبكات الاستعباد التضليلية و المالية و السلطوية هي أعظم نعمة يهبها الله للانسان.

ومن المعروف ان الشرك لا يتحقق بعبودية الصنم ، بقدر ما يتحقق بعبادة الطاغــوت و الخضوع لسلطته الجائرة ، أو بعبادة المال ، و الارض ، و العنصر ... الخ.

و رفـض الشرك انما هو رفض للقيم التي يتغذى منها ، و لعل هذا ما نلاحظه في التعبير القرآنـي ، اذ لم يقــل تعالى : " لا يشركون بي شخصا " مثلا ، و انما اطلق و قال : ( شيئا ( ، ذلــك لان من يخضع للطاغوت لا يعبد جسده ، و انما يعبد الصولجان الذي بيــده ، و القوة التي تحت سيطرته ، و هكذا من يخضع للأثرياء ، انما يعبد الدينار و الدرهــم.

]ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون[

فاذا قامت السلطة السياسية ) الشرعية ) فان كل من يكفر يكون فاسقا ، اذ لايملك اي تبرير

لكفره.

و الواقع ان التأويل الحق و الشامل لهذه الآية انما يكون عند تحقق وعد الله بالتمكين التام للدين المختار ، في كل اقطار الارض ، كما جاء في احاديث مأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال:

"زويت لي الارض ، فأريت مشارقها و مغاربها ، و سيبلغ أمتي ما زوي لي منها. "

و قال - صلى الله عليه و آله : -

"لا يبقى في الارض بيت مدر ولا وبر الا ادخله الله كلمة الاسلام بعز عزيز ، أو ذل ذليل ، أما ان يعزهم الله فيجعلهم من أهلها ، و اما أن يذلهم فيدينون بها " . (١)اما متى يتحقق ذلك ؟ فانه إنما يتحقق عند قيام المهدي من آل محمد حيث جاء في حديث اتفق عليه المسلمون:

"لو لم يبق من الدنيا الا يوم ، لطول الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من عترتي إسمه إسمي ، يملأ الارض عدلا و قسطا كما ملئت ظلما و جورا " . (٢)[٥٦] [ و أقيموا الصلاة و ءاتوا الزكاة و أطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ]ان اقامة الصلاة و إيتاء الزكاة من التشريعات الالهية التي تدخل ضمن نطاق طاعة الله سبحانه ، لذلك فهما لا يكفيان دون طاعة الرسول ، و لعل المراد بالرحمة(١) المصدر / ص ٦٢١

(2)تفسير " نمونه " / ج ١٤ - ص ٥٣٠

هنا النصر على الاعداء .

## الانتصار وليد الثقة

لا تنتصر امة لا تثق بطاقاتها و قدرتها على الانتصار.

فلا ينبغي ان يقف حاجزا بين المؤمنين و اقامة حكومة الاسلام و سلطة الشرع في الارض ما يجدونه من قوة الطغاة ، و ثروة الاغنياء ، أو جهل الناس ، بل اعتقادهم بان الكفار قد سلبوا قدرتهم و ارادتهم على الصراع و الانتصار باطل.

فلا تخشى ايها المؤمن الكفار !

] [57]لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الارض[

لا تظنوا ان السلطات الكافرة قد سلبتكم الإرادة ، و اوصلتكم الى حافة العجز.

]و مأواهم النار و لبئس المصير[

فمن الناحية المادية لا قوة لهم تمنع المؤمنين من أخذهم حقهم ، و من الناحية المعنوية فإن مصيرهم الى النار و بئس المصير ، و هذا يعني ان الله قد رفع عنهم دعمه ، فلن يجدوا من ينصرهم على المؤمنين ، " ذلك بان الله مولى الذين آمنوا و ان الكافرين لامولى لهم. "

وياليتنا نحن المسلمين اليوم ، نتخذ هذه الآية الكريمة شعارا في حياتنا السياسية ، و تحركاتنا الاجتماعية ، فنقاوم اكبر عقبة كاداء في حياة المسلمين الذين يعتقدون بتفوق الكفار عليهم ، و انهم قادرون على منعهم من أخذ حقوقهم ، و تحقيق اهدافهم ، مع ان الواقع عكس ذلك تماما.

والله يفند هذا الاعتقاد الباطل ، بوعده المؤمنين بالانتصار ، و ببيان ان الكفار عاجزين و ضعفاء.

## تعاليم الاسلام في دخول البيوت

### هدى من الآيات

في اطار حديث سورة النور عن العلاقات الاسرية ، و ضرورة تنظيمها ، يحدثنا ربنا في هذا الدرس عن بعض القضايا التي تبدو جزئية ، و لكنها - في الواقع -هامة ، لانها ترسم حدود الاسرة ، و التي من بينها ضرورة تنظيم التزاور بحيث تستطيع الاسرة ان تبقى آمنة فيماواها ، بعيدة عن العيون الغريبة ، فيحرم على المملوك و الاطفال دخول الغرف ، الا بعد الاستئذان ، و ذلك في اوقات الاستراحة في الليل و عند الظهيرة و من قبل صلاة الفجر.

و ينهى الاطفال الذين يبلغون الحلم ، ان يسترسلوا على عاداتهم في دخول البيوت بلا استيذان في غير الاوقات الثلاث .

و لان اعظم حكمة في ذلك هو المحافظة على العفة الاجتماعية ، يحدثنا السياق بهذه المناسبة عن القواعد من النساء ، و هي اللاتي لا يرغب في زواجهن احد لكبر سنهن ، فيسوغ لهن وضع ثيابهن الظاهرة كالخمار و الجلباب بشرط عدم التبرج بزينةمن أجل اثارة شهوة الرجال.

ثم يبين السياق حكم الدخول في البيوت و الأكل منها بالنسبة الى العائلة الكبيرة ، و يبدأ ببيان حكم ذوي العاهات فيجوز دخولهم جميعا البيوت و تناول الطعام بلا استيذان.

### بينات من الآيات

[58]لتزكى اجواء المجتمع ، و يبقى الاحتشام و العفاف في البيئة الاسرية ، لا ينبغي السماح للعبيد و الاطفال باقتحام غرف النوم و الراحة من دون الاذن.

]يا ايها الذين ءامنوا ليستئذنكم الذين ملكت ايمانكم ]من العبيد و الاماء.

]و الذين لم يبلغوا الحلم منكم[

و هم الاطفال من العائلة ، اذ يجب علهيم استئذان اصحاب البيوت في اوقات معينة ، و هي:

]ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر و حين تضعون ثيابكم من الظهيرة و من بعد صلاة العشاء ]لانها اوقات الراحة التي يتواجد الناس حينها في بيوتهم ، بعد ان يكونا قد حضروا صلاة الجماعة في المساجد ، أو قاموا باعمالهم المختلفة و نشاطاتهم المتنوعة لكسب الرزق ، و تحقيق المعاش ، و هكذا ينظم الاسلام الوقت بدقة ، فجزء لاجتماع المسلمين في المساجد كي يؤدوا الفرائض و يتبادلوا الافكار و الخبرات بينهم ، و جزء للسعي و العمل ، و جزء للراحة و الاستجمام ، حيث يستعيدوا القوة و النشاط و يكملوادورة الحياة.

]ثلاث عورات لكم[

احوال يجب ان لا يظهر عليها الآخرون ، لانها أوقات الراحة ، و كم يرتاح الانسان نفسيا حين يطمئن بأن لا أحد يدخل عليه اذ يضع عن نفسه الكلفة.

]ليس عليكم و لا عليهم جناح بعدهن[

و أما بعد هذه الاوقات فلا مؤاخذة عليكم و لا عليهم أي الاطفال و العبيد و الاماء أن يدخلوا عليكم دون استئذان.

]طوافون عليكم بعضكم على بعض[

اي تأخذ حركة الدخول و الزيارات مجراها عليكم بعد المنع و التوقف ، و بالطبع ان الدخول بلا استئذان يختص بالمتعلقين بالشخص دون الاجانب.

]كذلك يبين الله لكم الايات و الله عليم حكيم[

فهو عليم بمصالحكم ، و حكيم اذ يضع لكم هذه الاحكام الرشيدة ، و جاء في النص المروي عن الامام الباقر عليه السلام في تفسير الآية:

"فلا يلج على أمه و لا على أخته ، و لا على إبنته و لا على من سوى ذلك الا بإذن ، و لا يأذن لاحد حتى يسلم ، فان السلام طاعة الرحمن " . (١)فما هي فائدة هذا الحكم ؟

قبل ان نبين الاجابة على ذلك نورد ملاحظة هامة هي : ان الانسان قد يكون(١) نور الثقلين / ج ٣ -ص ٦٢٢

مهتما بحدود التنظيم الاجتماعي و قيوده ، دون ان يهتم بجوهره و محتواه ، و قد يعكس فيكون مهتما بجوهر التنظيم و هدفه ، و لكنه يتجاهل الحدود التي هي وسائل تحقيق الهدف و يعتقد بانها غير هامة أو قشرية.

بينما يريد الاسلام من ابنائه الاهتمام بجوهر التنظيم و بحدوده ، اي بهدفه و بالوسائل التي تحقق هذا الهدف.

ان جوهرالتنظيم الاجتماعي هو الطاعة الخالصة لله تعالى ، و البعيدة عن الاهواء و المصالح الآنية ، و كل انواع العصبيات الجاهلية ، و تبرز أعلى مظاهر الطاعة لله ، في الطاعة للقيادة الرسالية و تتدرج هابطا حتى تصـــل الى ولي الأمر الحاكم الشرعي ، و كذاولي الاسرة و رؤساء كافة التنظيمات الاجتماعية و السياسية الشرعية.

و الاسرة الفاضلة هي الاسرة القائمة على اساس التعاون البناء ، و لا يأتي ذلك الا عن طريق الطاعة السليمة للقيم الحق ، بحيث لا تكون هذه الطاعة خالية من قانون يحددها ، بل يجب ان تصب في قنوات قانونية ، فلا يكتفي الانسان المنظم بالطاعة لقيادته أو ولي أمره أو رب أسرته ، بل ان يلتزم ايضا بحدود القونين الاجتماعية المفروضة ، فقد لا تبدو هذه القوانين ذات اهمية ، و لكنها حينما تطبق في الحياة الاجتماعية تصبح ذات نفع عظيم ، مثلا حينما يلزم الاسلام المسلم الوفاء بالعهد و الالتزام بالوعد ، اتدري كم ينظم هذا الامر حياة المجتمع ، أو كم يحافظ على الوقت الذي يذهب هدرا ؟ و الى اي حد يحافظ على علاقات الناس متينة و طيبة ؟

و هكذا حين يفرض الاسلام تنظيم الوقت ، فلانه حاجة اجتماعية ، و ضرورة حياتية ، اذ لا يمكن للانسان العمل في أي وقت يريد ، أو التبضع متى شاء ، أو حتى النوم متى يرغب ، بل هناك أوقات محدودة لكل نشاطات الحياة و شؤونها ،و بالرغم من ان تنظيم الوقت يبدو لكثير من الناس عملا ثانويا ، الا انه اشبه ما يكون بالقناة التي تحافظ على مياه المطر من التشتت ، لانه يحافظ على طاقات الانسان من التشتت و يجمع طاقات الجماهير ليصبها في قناة واحدة.

من هنا نجد تأكيدا في هذه الآيات على ضرورة ملاحظة أوقات الراحة للانسان ، و التي عادة ما تكون قبل صلاة الفجر و عند الظهر ، و كذا بعد العشاء ، و بمعنى آخر ضرورة مراعاة أوقات الآخرين و برامجهم.

و حتى الاطفال يجب عليهم الاستئذان في هذه الفترات لتبقى البيوت محلا آمنا يستطيع الانسان الاستراحة فيه أنى شاء.

و لتنفصل أوقات الراحة عن أوقات العمل ، كي يكون هناك وقت للراحة ، كما ان هناك وقتا للسعي و الكدح ابتغاء فضل الله . و الذي يجد وقتا كافيا للراحة ، يستطيع الجد و الابداع عند العمل ، اذ يجب ان تكون أوقات الراحة - كالقيلولة في الظهر - منطلقا للتحرك نحوالعمل من جديد ، و بروح نشطة.

و هذا القانون يوفر على الانسان مزيدا من الوقت المنظم ، مما يعني مزيدا من التقدم الحضاري .

و كلمة اخيرة:

ان حكمة هذا التشريع الهام هي ابعاد الاطفال عن بعض المظاهر غير المناسبة المحتشمة في غرف النوم ، حيث تثيرهم و تزرع في نفوسهم حب الزنا ، أو حتى عداوة أحد الوالدين ، مما يتسبب في العقد الجنسية ، و ما تتبعها من نتائج خطيرة.

ولقد حذرت النصوص الشرعية من ذلك و اعتبرته نوعا من التشيجيع على الزنا ، اذ يسقط الحياء و تصبح المعاشرة الجنسية عملا عاديا عندهم ، و سوف يمارسونها عندأول بوادر الحاجة الفسيولوجية اليها.

حتى جاء في حديث مأثور عن النبي (ص: (

"اياكم و ان يجامع الرجل إمرأته ، و الصبي في المهد ينظر اليهما " . (١)اما غير الاطفال و العبيد فعليهم الاستئذان ، و قد سبق الحديث عن ذلك في آيات مضت و على الاطفال اذا بلغوا سن الرشد ان يتوقفوا عن دخول الغرف الا بإذن.

] [59]و إذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستئذنوا[

في الدخول.

]كما استئذن الذين من قبلهم [

من الاحرار.

]كذلك يبين الله لكم ءاياته و الله عليم حكيم[

وهذا التكـرار تأكيد على أهمية هذه الاوامر الالهية ، و انها ذات أثر عميق في المجتمع ، و ان لم يستطع الانسان الاحاطة علما بجميع أبعادها ، و آثارها الآنية ، و المستقبلية ، لقلة علمه و ضعف عقله ، مما يجعله يستهين بها ، فلا يبذل جهدا للالتزام بها و تطبيقها بدقة.

لهذا يجب ان تكون حكمة الله و علمه مقياسا لقوانين المجتمع البشري ، لا اهواء الانسان و تخرصاته.

] [60]و القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن(١) تفسير نمونه / ج ١٤ - ص ٥٤٦ نقلا عن موسوعة بحار الانوار ١٠٣/ ص ٢٩٥جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة[

حيث يجيز الشارع المقدس للمرأة الكبيرة في السن ، ان تضع بعض ثيابها مثل جلبابها و خمارها مما يغطي رأسها ما دام لا يرغب أحد في نكاحها ، بشرط ان لا تتبرج باطهار مواضع زينتها ، و لكن الافضل ان تسود المجتمع الاسلامي كله حالة من العفاف و الاحتشام.

]وان يستعففن خير لهن[

فالمرأة و ان كبرت و بلغت سن اليأس ، فان الحجاب اكثر هيبة لها ، كما ان ذلك يشجع الشابات على ان يتمسكن بالحجاب.

]و الله سميع عليم[

فلا يجوز لها ان تقول كلامــا تثير به شـهوة الرجال ، او تنوي القيام بحركة معينة حراما ، اذ ان الله سـميع للقول الظاهر عليم بالنية الباطنة.

] [61]ليس على الأعمى حرج و لا على الأعرج حرج و لا على المريض حرج ]قال بعض المفسـرين : ان الناس كانوا يتحرجون من التعامل مع هذه الطوائف الثلاث في الجاهلية ، لانهم كانوا يعتقدون ان الله قد غضب على من ابتلي بهذه الحالات ، فيبتعدون عنهم ، و جاءت هذه الآية لتبين الحقيقة بأن الله لم يغضب على هؤلاء ، بل من الضروري معاشـرتهم بالاحسـان ، جاء في الرواية المأثورة عن الامام الباقر عليه السـلام:

ان اهل المدينة قبل ان يسـلموا كانوا يعزلون الاعمى و الاعرج و المريض ان يأكلوا معهم - كانوا لا يأكلون معهم - و كان الانصار فيهم تيه و تكرم : فقالوا انالأعمى لا يبصر الطعام ، و الأعرج لا يسـتطيع الزحام على الطعام ، و المريض لا يأكل مما يأكل الصحيح ، فعزلوا لهم طعامهم على ناحية ، و كانوا يرون عليهم في مؤاكلتهم جناح ، و كان الأعمى و الاعرج و المريض يقولون : لعلنا نؤذيهم اذا أكلنا معهم ، فاعتزلوا من مؤاكلتهم ، فلما قدم النبي سألوه عن ذلك فأنزل الله عز و جل " : ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا أو اشـتاتا " . (١)و لعلنا نسـتوحي من السـياق ايضا ان نفي الحرج هنا يعني جواز الاكل ، فيكون المفهوم من الآية ليس على الاعمى حرج ، و لا على الاعرج حرج ، و لا على المريض حرج ، أن يأكـــل من بيوت الناس ، أما انتم فليس عليكم حرج ان تأكلوا من بيوتكم ، أو بيوت اقاربكـم.

و الحكمة في ذلك : ان هؤلاء هم العناصر الضعيفة الذين يعجزون عادة عن كسـب رزقهم ، فعلى الاصحاء كفالتهم و السـماح لهم بالدخول الى بيوتهم للطعام و برهم.

]ولا على أنفسـكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت ءابائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم ]تذكر هذه الآية بالتفصيل البيوت التي لا حرج على الانسـان في دخولها و الاكل منها.

و يبدو انها ليسـت في مقام اعطاء الاذن فحسـب ، بل في مقام التشـجيع على ذلك ايضا ، فربما يتحرج الانسـان من الدخول الى بيوت اقاربه أو معارفه من الاصدقاء ، فيرفع النص ، هذا الحرج ، لتنمو الالفة و المحبة بين الأسـر المختلفة ، و كما يقول(١) نور الثقلين / ج ٣ - ص ٦٢٤

الحديث الشـريف عن الائمة (ع: (

"احبكم الينا اكثركم أكلا في بيوتنا. "

لان الجلوس الى مائدة الطعام في البيت يفتح القلوب على بعضها ، و يمتن العلاقات ، و بالتالي يفتح طريق التعاون بين افراد المجتمع.

فكم من تعاون بدأ من جلسـة طعام ، حتى الثورات الرسـالية كثيرا ما تنطلق من مثل هذه المناسـبات ، فحينما تقترب النفوس و ترتفع الحجب بين الانسـان و اخيه و بعيدا عن انظار الناس و اسـماعهم ، هنالك يبدأ الانسـان بالحديث عما يعانيه ، فيبث همومه و مشـاكله لاخيه وبالتالي تتوفر الاجواء الملائمة للمناقشـة و تبادل الافكار مما يكون مناسـبا لجمع الامكانات و الكفاءات المختلفة و ازالة الصعوبات ، فربما جلس اناس مؤمنون لبعضهم كي يأكلوا ، و لكنهم قاموا من على مائدة الطعام لينجزوا اعمالا عظيمة في سـبيل الله.

إن التجمعات الأسـرية في الاسـلام هي اللبنات الاولى و الاساسـية في صرح الصمود و التضحية في المجتمع الاسـلامي ، فلا يسـتطيع الانسـان الصمود أمام تحديات الزمن و عنجهية الطعاة ، و تحقيق النصر لوحده ، و لكنه يسـتطيع ذلك حينما يجلس الى اقاربه و معارفه و يتفاعلمعهم حيث

يشعر بالقوة فيندفع بحماس لمواجهة كل التحديات.

ولما في الجلوس الى الموائد من فوائد اجتماعية عظيمة ، نجد الاسلام يشجع عليها ، و لو كانت العلاقات الاجتماعية في البلاد التي يحكمها الطاغوت متينة و فعالة لشل سيف الطغيان فيها ، لان الطاغوت حينئذ لا يضرب واحدا واحدا ، و انما يضرب اسرة اسرة ، و الاسرةالقوية المتفاعلة صخرة صماء لا تتفتت ، فلو وقف المجتمع بأسره المتعاونة مع بعضها عبر قياداتها لسقط الطاغوت المتسلط على رقابالناس.

ثم يبين القرآن الكريم حكما آخر يعطي العلاقات الاجتماعية حرارة و دفئا فيقول:

]أو ما ملكتم مفاتحه[

فاذا اعطى المالك مفتاح بيته لاحد ، يجوز له تناول الطعام الذي فيه - بالفحوى - لما ينبئ ذلك عن رضى قلبي.

جاء في التاريخ:

اذا بعث رسول الله احدا من أصحابه في غزاة أو سرية ، يدفع الرجل مفتاح بيته الى اخيه في الدين ( و هو الذي آخى النبي بينه و بينه ) ، و يقول له : خذ ما شئت و كل ما شئت ، فكانوا يمتنعون من ذلك حتى ربما فسد الطعام في البيت ، فأنزل الله هذه الآية . (١(

و اعطى الاسلام الصديق الوفي حكم القريب فقال:

]أو صديقكم[

و جاء في الحديث عن الامام الصادق (ع: (

"من عظم حرمة الصديق ان جعله من الانس و الثقة ، و الانبساط و طرح الحشمة ، بمنزلة النفس و الأب و الأخ و الإبن " (٢)[ ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا أو أشتاتا[

(1)المصدر / ص ٦٢٥

(2)المصدر / ص ٦٢٦

فبإمكان الاسرة ان تجتمع بأكملها حول مائدة الطعام ، أو يحضر افراد منها فقط كأن يأكل الاخ مع أخيه و الصديق مع صديقه.

]فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ]يجب ان تكون القلوب متحابة متآلفة ، و مجندة في جيش واحد ، و السلام هو رمز تآلف القلوب ، و عندما يسلم المرء على اخيه ، فانه يربط نفسه معه برابطة المحبة و يتعهد بأن يكون مسالما له في حضوره و غيابه.

لذلك يؤكد القرآن قائلا : " فسلموا على أنفسكم " اي انكم تشكلون نفسا واحدة ، " تحية من عند الله " فحينما يقول الانسان لاخيه السلام عليكم يقول الله ايضا السلام عليك ايها المجتمع الذي يتسالم افراده و يتبادل أبناؤه السلام ، إني سوفامنحكم السلام تحية ، " مباركة طيبة " و هذا السلام يسبب البركة اي النمو الاجتماعي و المعنوي ، الذي يختلف عن النمو المادي الفاسد لدى المترفين أو الحكام الطغاة ، بل هو تكامل طيب و مستقبله عظيم.

]كذلك يبين الله لكم الأيات لعلكم تعقلون[

فكلما كانت الاحكام القرآنية حساسة و عميقة ، كلما وجدنا بعدها مباشرة مثل هذه الكلمات : لعلكم تعقلون ، لعلكم تتفكرون ، لحاجة الامر الى التعقل و التفكر حتى يعرف المؤمنون أهميته ، و انه لا يمكن فهم ذلك الا اذا استشار الانسان عقله ، و قدح زناد افكاره.

**بينات من الآيات**

[58]لتزكى اجواء المجتمع ، و يبقى الاحتشام و العفاف في البيئة الاسرية ، لا ينبغي السماح للعبيد و الاطفال باقتحام غرف النوم و الراحة من دون الاذن.

]يا ايها الذين ءامنوا ليستئذنكم الذين ملكت ايمانكم ]من العبيد و الاماء.

]و الذين لم يبلغوا الحلم منكم[

و هم الاطفال من العائلة ، اذ يجب عليهم استئذان اصحاب البيوت في اوقات معينة ، و هي:

]ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر و حين تضعون ثيابكم من الظهيرة و من بعد صلاة العشاء ]لانها اوقات الراحة التي يتواجد الناس حينها في بيوتهم ، بعد ان يكونا قد حضروا صلاة الجماعة في المساجد ، أو قاموا باعمالهم المختلفة و نشاطاتهم المتنوعة لكسب الرزق ، و تحقيق المعاش ، و هكذا ينظم الاسلام الوقت بدقة ، فجزء لاجتماع المسلمين في المساجد كي يؤدوا الفرائض و يتبادلوا الافكار و الخبرات بينهم ، و جزء للسعي و العمل ، و جزء للراحة و الاستجمام ، حيث يستعيدوا القوة و النشاط و يكملوادورة الحياة.

]ثلاث عورات لكم[

احوال يجب ان لا يظهر عليها الآخرون ، لانها أوقات الراحة ، و كم يرتاح الانسان نفسيا حين يطمئن بأن لا أحد يدخل عليه اذ يضع عن نفسه الكلفة.

]ليس عليكم و لا عليهم جناح بعدهن[

و أما بعد هذه الاوقات فلا مؤاخذة عليكم و لا عليهم أي الاطفال و العبيد و الاماء أن يدخلوا عليكم دون استئذان.

]طوافون عليكم بعضكم على بعض[

اي تأخذ حركة الدخول و الزيارات مجراها عليكم بعد المنع و التوقف ، و بالطبع ان الدخول بلا استئذان يختص بالمتعلقين بالشخص دون الاجانب.

]كذلك يبين الله لكم الايات و الله عليم حكيم[

فهو عليم بمصالحكم ، و حكيم اذ يضع لكم هذه الاحكام الرشيدة ، و جاء في النص المروي عن الامام الباقر عليه السلام في تفسير الآية:

"فلا يلج على أمه و لا على أخته ، و لا على إبنته و لا على من سوى ذلك الا بإذن ، و لا يأذن لاحد حتى يسلم ، فان السلام طاعة الرحمن " . (١)فما هي فائدة هذا الحكم ؟

قبل ان نبين الاجابة على ذلك نورد ملاحظة هامة هي : ان الانسان قد يكون(١) نور الثقلين / ج ٣ -ص ٦٢٢

مهتما بحدود التنظيم الاجتماعي و قيوده ، دون ان يهتم بجوهره و محتواه ، و قد يعكس فيكون مهتما بجوهر التنظيم و هدفه ، و لكنه يتجاهل الحدود التي هي وسائل تحقيق الهدف و يعتقد بانها غير هامة أو قشرية.

بينما يريد الاسلام من ابنائه الاهتمام بجوهر التنظيم و بحدوده ، اي بهدفه و بالوسائل التي تحقق هذا الهدف.

ان جوهرالتنظيم الاجتماعي هو الطاعة الخالصة لله تعالى ، و البعيدة عن الاهواء و المصالح الآنية ، و كل انواع العصبيات الجاهلية ، و تبرز أعلى مظاهر الطاعة لله ، في الطاعة للقيادة الرسالية و تتدرج هابطا حتى تصـــل الى ولي الأمر الحاكم الشرعي ، و كذاولي الاسرة و رؤساء كافة التنظيمات الاجتماعية و السياسية الشرعية.

و الاسرة الفاضلة هي الاسرة القائمة على اساس التعاون البناء ، و لا يأتي ذلك الا عن طريق الطاعة السليمة للقيم الحق ، بحيث لا تكون هذه الطاعة خالية من قانون يحددها ، بل يجب ان تصب في قنوات قانونية ، فلا يكتفي الانسان المنظم بالطاعة لقيادته أو ولي أمره أو رب أسرته ، بل ان يلتزم ايضا بحدود القونين الاجتماعية المفروضة ، فقد لا تبدو هذه القوانين ذات اهمية ، و لكنها حينما تطبق في الحياة الاجتماعية تصبح ذات نفع عظيم ، مثلا حينما يلزم الاسلام المسلم الوفاء بالعهد و الالتزام بالوعد ، اتدري كم ينظم هذا الامر حياة المجتمع ، أو كم يحافظ على الوقت الذي يذهب هدرا ؟ و الى اي حد يحافظ على علاقات الناس متينة و طيبة ؟

و هكذا حين يفرض الاسلام تنظيم الوقت ، فلانه حاجة اجتماعية ، و ضرورة حياتية ، اذ لا يمكن للانسان العمل في أي وقت يريد ، أو التبضع متى شاء ، أو حتى النوم متى يرغب ، بل هناك أوقات محدودة لكل نشاطات الحياة و شؤونها ،و بالرغم من ان تنظيم الوقت يبدو لكثير من الناس عملا ثانويا ، الا انه اشبه ما يكون بالقناة التي تحافظ على مياه المطر من التشتت ، لانه يحافظ على طاقات الانسان من التشتت و يجمع طاقات الجماهير ليصبها في قناة واحدة.

من هنا نجد تأكيدا في هذه الآيات على ضرورة ملاحظة أوقات الراحة للانسان ، و التي عادة ما تكون قبل صلاة الفجر و عند الظهر ، و كذا بعد العشاء ، و بمعنى آخر ضرورة مراعاة أوقات الآخرين و برامجهم.

و حتى الاطفال يجب عليهم الاستئذان في هذه الفترات لتبقى البيوت محلا آمنا يستطيع الانسان الاستراحة فيه أنى شاء.

و لتنفصل أوقات الراحة عن أوقات العمل ، كي يكون هناك وقت للراحة ، كما ان هناك وقتا للسعي و الكدح ابتغاء فضل الله . و الذي يجد وقتا كافيا للراحة ، يستطيع الجد و الابداع عند العمل ، اذ يجب ان تكون أوقات الراحة - كالقيلولة في الظهر - منطلقا للتحرك نحوالعمل من جديد ، و بروح نشطة.

و هذا القانون يوفر على الانسان مزيدا من الوقت المنظم ، مما يعني مزيدا من التقدم الحضاري .

و كلمة اخيرة:

ان حكمة هذا التشريع الهام هي ابعاد الاطفال عن بعض المظاهر غير المناسبة المحتشمة في غرف النوم ، حيث تثيرهم و تزرع في نفوسهم حب الزنا ، أو حتى عداوة أحد الوالدين ، مما يتسبب في العقد الجنسية ، و ما تتبعها من نتائج خطيرة.

ولقد حذرت النصوص الشرعية من ذلك و اعتبرته نوعا من التشيجيع على الزنا ، اذ يسقط الحياء و تصبح المعاشرة الجنسية عملا عاديا عندهم ، و سوف يمارسونها عندأول بوادر الحاجة الفسيولوجية اليها.

حتى جاء في حديث مأثور عن النبي (ص: (

"اياكم و ان يجامع الرجل إمرأته ، و الصبي في المهد ينظر اليهما " . (١)اما غير الاطفال و العبيد فعليهم الاستئذان ، و قد سبق الحديث عن ذلك في آيات مضت و على الاطفال اذا بلغوا سن الرشد ان يتوقفوا عن دخول الغرف الا بإذن.

] [59]و إذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستئذنوا[

في الدخول.

]كما استئذن الذين من قبلهم [

من الاحرار.

]كذلك يبين الله لكم ءاياته و الله عليم حكيم[

وهذا التكـرار تأكيد على أهمية هذه الاوامر الالهية ، و انها ذات أثر عميق في المجتمع ، و ان لم يستطع الانسان الاحاطة علما بجميع أبعادها ، و آثارها الآنية ، و المستقبلية ، لقلة علمه و ضعف عقله ، مما يجعله يستهين بها ، فلا يبذل جهدا للالتزام بها و تطبيقها بدقة.

لهذا يجب ان تكون حكمة الله و علمه مقياسا لقوانين المجتمع البشري ، لا اهواء الانسان و تخرصاته.

] [60]و القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن(١) تفسير نمونه / ج ١٤ - ص ٥٤٦ نقلا عن موسوعة بحار الانوار ١٠٣/ ص ٢٩٥جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة[

حيث يجيز الشارع المقدس للمرأة الكبيرة في السن ، ان تضع بعض ثيابها مثل جلبابها و خمارها مما يغطي رأسها ما دام لا يرغب أحد في نكاحها ، بشرط ان لا تتبرج باطهار مواضع زينتها ، و لكن الافضل ان تسود المجتمع الاسلامي كله حالة من العفاف و الاحتشام.

]وان يستعففن خير لهن[

فالمرأة و ان كبرت و بلغت سن اليأس ، فان الحجاب اكثر هيبة لها ، كما ان ذلك يشجع الشابات على ان يتمسكن بالحجاب.

]و الله سميع عليم[

فلا يجوز لها ان تقول كلامـا تثير به شهوة الرجال ، او تنوي القيام بحركة معينة حراما ، اذ ان الله سميع للقول الظاهر عليم بالنية الباطنة.

] [61]ليس على الأعمى حرج و لا على الأعرج حرج و لا على المريض حرج ]قال بعض المفسرين : ان الناس كانوا يتحرجون من التعامل مع هذه الطوائف الثلاث في الجاهلية ، لانهم كانوا يعتقدون ان الله قد غضب على من ابتلي بهذه الحالات ، فيبتعدون عنهم ، و جاءت هذه الآية لتبين الحقيقة بأن الله لم يغضب على هؤلاء ، بل من الضروري معاشرتهم بالاحسان ، جاء في الرواية المأثورة عن الامام الباقر عليه السلام:

ان اهل المدينة قبل ان يسلموا كانوا يعزلون الاعمى و الاعرج و المريض ان يأكلوا معهم - كانوا لا يأكلون معهم - و كان الانصار فيهم تيه و تكرم : فقالوا انالأعمى لا يبصر الطعام ، و الأعرج لا يستطيع الزحام على الطعام ، و المريض لا يأكل مما يأكل الصحيح ، فعزلوا لهم طعامهم على

ناحية ، و كانوا يرون عليهم في مؤاكلتهم جناح ، و كان الأعمى و الاعرج و المريض يقولون : لعلنا نؤذيهم اذا أكلنا معهم ، فاعتزلوا من مؤاكلتهم ، فلما قدم النبي سألوه عن ذلك فأنزل الله عز و جل " : ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا أو اشتاتا " . (١)و لعلنا نستوحي من السياق ايضا ان نفي الحرج هنا يعني جواز الاكل ، فيكون المفهوم من الآية ليس على الاعمى حرج ، و لا على الاعرج حرج ، و لا على المريض حرج ، أن يأكـــل من بيوت الناس ، أما انتم فليس عليكم حرج ان تأكلوا من بيوتكم ، أو بيوت اقاربكـم.

و الحكمة في ذلك : ان هؤلاء هم العناصر الضعيفة الذين يعجزون عادة عن كسب رزقهم ، فعلى الاصحاء كفالتهم و السماح لهم بالدخول الى بيوتهم للطعام و برهم.

]ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت ءابائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم ]تذكر هذه الآية بالتفصيل البيوت التي لا حرج على الانسان في دخولها و الاكل منها.

و يبدو انها ليست في مقام اعطاء الاذن فحسب ، بل في مقام التشجيع على ذلك ايضا ، فربما يتحرج الانسان من الدخول الى بيوت اقاربه أو معارفه من الاصدقاء ، فيرفع النص ، هذا الحرج ، لتنمو الالفة و المحبة بين الأسر المختلفة ، و كما يقول(١) نور الثقلين / ج ٣ - ص ٦٢٤

الحديث الشريف عن الائمة (ع: (

"احبكم الينا اكثركم أكلا في بيوتنا. "

لان الجلوس الى مائدة الطعام في البيت يفتح القلوب على بعضها ، و يمتن العلاقات ، و بالتالي يفتح طريق التعاون بين افراد المجتمع.

فكم من تعاون بدأ من جلسة طعام ، حتى الثورات الرسالية كثيرا ما تنطلق من مثل هذه المناسبات ، فحينما تقترب النفوس و ترتفع الحجب بين الانسان و اخيه و بعيدا عن انظار الناس و اسماعهم ، هنالك يبدأ الانسان بالحديث عما يعانيه ، فيبث همومه و مشاكله لاخيه وبالتالي تتوفر الاجواء الملائمة للمناقشة و تبادل الافكار مما يكون مناسبا لجمع الامكانات و الكفاءات المختلفة و ازالة الصعوبات ، فربما جلس اناس مؤمنون لبعضهم كي يأكلوا ، و لكنهم قاموا من على مائدة الطعام لينجزوا اعمالا عظيمة في سبيل الله.

إن التجمعات الأسرية في الاسلام هي اللبنات الاولى و الاساسية في صرح الصمود و التضحية في المجتمع الاسلامي ، فلا يستطيع الانسان الصمود أمام تحديات الزمن و عنجهية الطغاة ، و تحقيق النصر لوحده ، و لكنه يستطيع ذلك حينما يجلس الى اقاربه و معارفه و يتفاعلمعهم حيث يشعر بالقوة فيندفع بحماس لمواجهة كل التحديات.

ولما في الجلوس الى الموائد من فوائد اجتماعية عظيمة ، نجد الاسلام يشجع عليها ، و لو كانت العلاقات الاجتماعية في البلاد التي يحكمها الطاغوت متينة و فعالة لشل سيف الطغيان فيها ، لان الطاغوت حينئذ لا يضرب واحدا واحدا ، و انما يضرب اسرة اسرة ، و الاسرةالقوية المتفاعلة صخرة صماء لا تتفتت ، فلو وقف المجتمع بأسره المتعاونة مع بعضها عبر قياداتها لسقط الطاغوت المتسلط على رقابالناس.

ثم يبين القرآن الكريم حكما آخر يعطي العلاقات الاجتماعية حرارة و دفئا فيقول:

]أو ما ملكتم مفاتحه[

فاذا اعطى المالك مفتاح بيته لاحد ، يجوز له تناول الطعام الذي فيه - بالفحوى - لما ينبئ ذلك

عن رضى قلبي.

جاء في التاريخ:

اذا بعث رسول الله احدا من أصحابه في غزاة أو سرية ، يدفع الرجل مفتاح بيته الى اخيه في الدين ( و هو الذي آخى النبي بينه و بينه ) ، و يقول له : خذ ما شئت و كل ما شئت ، فكانوا يمتنعون من ذلك حتى ربما فسد الطعام في البيت ، فأنزل الله هذه الآية . (١(

و اعطى الاسلام الصديق الوفي حكم القريب فقال:

]أو صديقكم[

و جاء في الحديث عن الامام الصادق (ع: (

"من عظم حرمة الصديق ان جعله من الانس و الثقة ، و الانبساط و طرح الحشمة ، بمنزلة النفس و الأب و الأخ و الإبن " (٢)[ ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا أو أشتاتا[

(1)المصدر / ص ٦٢٥

(2)المصدر / ص ٦٢٦

فبإمكان الاسرة ان تجتمع بأكملها حول مائدة الطعام ، أو يحضر افراد منها فقط كأن يأكل الاخ مع أخيه و الصديق مع صديقه.

]فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ]يجب ان تكون القلوب متحابة متآلفة ، و مجندة في جيش واحد ، و السلام هو رمز تآلف القلوب ، و عندما يسلم المرء على اخيه ، فانه يربط نفسه معه برابطة المحبة و يتعهد بأن يكون مسالما له في حضوره و غيابه.

لذلك يؤكد القرآن قائلا : " فسلموا على أنفسكم " اي انكم تشكلون نفسا واحدة ، " تحية من عند الله " فحينما يقول الانسان لاخيه السلام عليكم يقول الله ايضا السلام عليك ايها المجتمع الذي يتسالم افراده و يتبادل أبناؤه السلام ، إني سوفامنحكم السلام تحية ، " مباركة طيبة " و هذا السلام يسبب البركة اي النمو الاجتماعي و المعنوي ، الذي يختلف عن النمو المادي الفاسد لدى المترفين أو الحكام الطغاة ، بل هو تكامل طيب و مستقبله عظيم.

]كذلك يبين الله لكم الأيات لعلكم تعقلون[

فكلما كانت الاحكام القرآنية حساسة و عميقة ، كلما وجدنا بعدها مباشرة مثل هذه الكلمات : لعلكم تعقلون ، لعلكم تتفكرون ، لحاجة الامر الى التعقل و التفكر حتى يعرف المؤمنون أهميته ، و انه لا يمكن فهم ذلك الا اذا استشار الانسان عقله ، و قدح زناد افكاره.

## بين القيادة الرسالية و الامة المؤمنة

## هدى من الآيات

في ختام هذه السورة التي تتحدث عن الاسرة الفاضلة ، و عن القيم التي ينبغي ان تنمو فيها ، و التي من أبرزها الطاعة لولي الامر انطلاقا من الطاعة للقيم الحق ، يؤكد ربنا في هذه الآيات الكريمة على ضرورة الطاعة للقيادة الرسالية في القضايا الاجتماعية المختلفة.

فاذا كان المسلمون مجتمعين على أمر كالحرب أو البناء أو اي عمل آخر فلا يجوز لأحد منهم ان

يسلل من الاجتماع في خلسة و يذهب لأعماله الخاصة ، حتى ولو كانت هناك حاجة تدعوه الى ذلك ، لان حاجة المجتمع أهم من حاجته الشخصية.

نعم له ان يستأذن القيادة ، فاذا أذنت له فليذهب والا فلا .. و القيادة - بدورها -تستطيع ان تاذن لمن شاءت اذا عرفت الكفاية في الباقين ، و مع ذلك تستغفر القيادة له ، لأن استئذانه في مثل هذا الوقت نوع من الذنب ، إذ هو هروبمن المسؤولية الاجتماعية.

وبعدئذ يؤكد القرآن على ضرورة تمييز الرسول عن الآخرين باعتباره القائد ، و المبلغ للرسالة ، مما يجعله شخصية ذات تأثير فعال في فرض الاوامر و التعليمات ، و يحذر بشدة اولئك الذين يخالفون عن أمره بأن تصيبهم فتنة ، و أبرز الفتن سيطرة الطغاة ، أو عذاب اليم في الآخرة.

و يحذرنا الله نفسه ، أو ليس له ما في السموات و الارض ، و هو عالم بما نحن عليه من خير أو شر ؟! و حين نعود اليه يخبرنا باعمالنا و هو بكل شيء عليم ، فلماذا التبرير و النفاق و الخداع الذاتي ؟

**بينات من الآيات**

[62]ان الاسلام يريد لمجتمعه ان يكون مجتمعا متكافلا متكاملا موحدا ، و القيادة هي الرابط الاجتماعي الذي يعصم المجتمع من الانهيار و التشتت ، و هنا تكمن اهمية الوحدة ، و عدم شق عصاها ، فلا يجوز للفرد ان يعتنق رأيا يفصله عن المسيرة العامة للأمة ، وهذا هو المقياس الصحيح لمدى ارتباط المسلم بالمجتمع الاسلامي و انتمائه الحقيقي له.

اما الافراد الذين يرسمون لانفسهم خططا ، يفرضونها على المجتمع ، شاءت القيادة أم ابت ، فلا يمكن ان يكونوا منتمين الى المجتمع ، و هؤلاء هم المنافقون في منطق القرآن الحكيم.

لذلك نجد التعبير القرآني يقول : " انما المؤمنون "للتأكيد على ان هؤلاء وحدهم الذين ينتمون الى مجتمع الايمان ، اما الآخرون فلا.

وهكذا يريد الاسلام ترسيخ الشعور بالمسؤولية في نفوس المؤمنين ، و يبدو منهذه الآيات ان بعض الناس كانوا يريدون التنصل من مسؤولياتهم.

و كثيرا ما ينفر الانسان من تحمل المسؤولية حينما يشعر بثقلها ، أو خطورتها على مصالحه ، و حتى يخفي هذا الشعور يصنع دثارا من المبررات لفنسه ، و لكي يعالج الاسلام هذه النزعة فقد فرض على الانسان المسلم ان يتحلى بصفتين اساسيتين هما:

- 1الطاعة و التسليم.

- 2التنفيذ الجاد لقرارات القيادة.

ولو عرف الانسان المسلم نوعية فكر القيادة الرسالية ، و كذلك توجهها ، فانه سيسلم نفسه لها تسليما عميقا يذوب بسببه كليا في خطها ، و لا يكتفي باتباع القرارات الظاهرة فقط ، بل سيتبع روح القرار و اهداف القيادة ، حتى من دون ان تحدد هي ذلك بالضبط ، وهناننقل قصة حدثت في ايران:

جاء رجل الى أحد قادة الثورة يستأذنه في قتل أحد افراد الساواك - و هي مؤسسة ارهابية تجسسية كانت تابعة للنظام الشاهنشاهي المقبور - فأجابه القائده بالنفي ، مما أثار اعجاب الجالسين ، فما كان منهم الا ان سألوه و لماذا و هو يستأذنك في قتل مجرم طالما قتلالناس و أفسد في الارض و فعل كذا و كذا ؟ !فقال لهم : ان مثل هذا الانسان ليس لهذه المهمة ، لانه لو كان لها لما أتى يسالني اقتله ام لا !، و هو عاقل يعرف الاحكام الشرعية و التوجه العام لاحاديثي الجماهيرية.

وكذلك بنو اسرائيل لما قال لهم موسى (ع) ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة امطروه بوابل من

الأسئلة : ما هذه البقرة ؟ ما لونها ؟ ما شكلها ؟ ما .. ما . الخ ؟

"فذبحوها و ما كادوا يفعلون "لان التسليم النفسي لم يكن موجودا عندهم بمافيه الكفاية ، فكانوا يريدون التنصل من المسؤولية بأية وسيلة كانت.

و لا يكتمل إيمان المؤمن حتى يذوب شخصيته في شخصية الامة ، و يبيع نفسه و توجهاته في الحياة للقيادة الرسالية ، بان يكون رهن أوامرها ، كما لا يكتفي بتنفيذ ظاهرها فقط ، و انما يغوص الى الاعماق ، ليكتشف أبعادها ، و يطبقها بالشكل الاكمل ، بخضوع قلبي تام ، و قد وصف القرآن المؤمنين بذلك حيث قال : " فلا و ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت و يسلموا تسليما " ، و التسليم هو الانصياع النفسي التام.

]إنما المؤمنون الذين ءامنوا بالله و رسوله[

فلا يشكل الايمان بالله وحده قيمة حقيقية ما لم يكن مقترنا بالايمان بالرسول ، و ما يترتب على ذلك من تلقي الاوامر و التعليمات و التشريعات الالهية منه ، و هذا ما يميز المؤمن الحقيقي عن المؤمن الظاهري.

]و إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستئذنوه ]اي انهم لا يتصرفون وفق رغباتهم الشخصية ، انما يدعون القرار الحاسم بيد القيادة.

]إن الذين يستئذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله و رسوله فإذا استئذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ]قد تحتاج الى هذا الشخص فيجوز لك ان تأذن له.

]و استغفر لهم الله إن الله غفور رحيم[

لأن ذهابهم و ان كان بأمر الرسول الا انه نوع من الذنب ، لذلك ينبغي للرسولالاستغفار لهم حتى يغفر الله لهم من جهة ، و حتى يكون ذلك اشعارا للآخرين بأن لا يطلبوا أذنا مماثلا ، و بالتالي ينفض الناس شيئا فشيئا و يبقى الرسول وحيدا في الساحة.

و جاء في التاريخ : " ان هذه الآية نزلت في قوم كانوا اذا جمعهم رسول الله لأمر من الامور - في بعث يبعثه ، أو حرب قد حضرت - يتفرقون بغير اذنه ، فنهاهم الله عز و جل عن ذلك(1) . " و جاء في نص آخر : " ان الآية نزلت في حنظلة بن ابي عياش و ذلك انه تزوج في الليلة التي كان في صبيحتها حرب أحد ، فاستأذن رسول الله ، ان يقيم عند أهله ، فانزل الله عز و جل هذه الآية " فاذن لمن شئت منهم " فاقام عند أهله ، ثم أصبح و هو جنب ، فحضر القتال و استشهد ، فقال رسول الله ، رأيت الملائكة تغسل حنظلة بماء المزن في صحائف فضة بين السماء و الارض فكان يسمى غسيل الملائكة " . (٢)[٦٣] ان احترام القيادة في قراراتها يجب ان ينعكس على احترامها في الظاهر ايضا ، فلو نطقت باسم الرسول ، أو باسم قيادتك كما تنطق باسم الآخرين دون اي احترام ، او اذا جلست الى الرسول ترفع صوتك أمامه ، كما ترفعه أمام الآخرين أو تناديه من وراء الحجراتكما تنادي الآخرين ، فانك لن تكون مستعدا بعد ذلك لتلقي أوامره و من ثم تنفيذها ، اذا لابد من اعداد نفسي كامل سلفا ، لتلقي أوامر الرسول أو القيادة الرسالية التي تمثله على الواقع ، كأن يتوضأ الفرد قبل الذهاب الى مجلس الرسول ، أو يغتسل ان كان عليه غسل ،ثم يجلس في محضره مجلس المستفيد ، ليقتبس من علمه بتركيز تفكيره في كلامه ، و تفريغ نفسه لتطبيق تعاليمه .. و هكذا(١) المصدر / ص ٦٢٨ نقلا عن تفسير علي بن ابراهيم

(2)المصدر

حتى ينتهي الأمر به الى تنفيذ أوامر القيادة بشكل دقيق جدا.

فحينما تحترم القيادة تطبق أوامرها و توجيهاتها ، و على العكس فانك تأخذ أوامرها و توجيهاتها مأخذ الهزل لو لم تكن تحترمها.

]لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا[

و لهذا المقطع من الآية وجهان : احدهما ظاهر و الآخر باطن.

أما الظاهر فهو : ان لا يسمي الانسان رسول الله باسمه الخاص ، بل بكنيته ، و حينما جاءت هذه الآية حرم على المسلمين ان ينادوا رسول الله بإسمه ، فأخذوا ينادونه يا رسول الله أي بإسمه القيادي.

واما الوجه الباطن فهو : ضرورة تهيئ المسلم نفسيا لتقبل قيادة الرسول (ص) و كل من جلس مجلسه و حكم باسمه ، و لا يقول هذا انسان و انا انسان ، بلى انه بشر ، و لكنه يمتلك صفة اعتبارية أنت لا تملكها ، هي جلوسه مجلس الرسول ، لذلك قال كثير من فقهائنا : ( اذا حكم ولي الأمر المجتهد الجامع للشرائط بحكم ما ، وجب على الناس - سواء منهم المقلدون لهذا المجتهد أو غيرهم - اتباع حكمه ، بل و حتى على المجتهدين ان يتبعوه في حكمه ) ، لأنه حينما يحكم فإنه يحكم باسم منصبه ، و اهانة حكمه اهانة لمركزه ، و الاهانة لمركزه اهانة للدين ، و بالتالي لله سبحانه و تعالى ، و كما يقول الحديث في حق الائمة:

"الراد عليهم كالراد علينا و الراد علينا كالراد على الله "[ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ]

اي يتسللون خلسة دون ان يشعر بهم الرسول او يراهم و هم يخرجون من مجلسه.

]فليحذر الذين يخالفون عن أمره[

ان المقصود من " الذين يخالفون عن امره " ليس فقط مخالفة الاوامر الظاهرة ، بل ايضا مخالفة روح القيادة.

أنهم استطاعوا ان يتسللوا لواذا و ان يهربوا خلسة ، و لكن هل اصبحوا في مأمن كما يزعمون ؟!

كلا ..بل إنهم يعرضون أنفسهم للفتنة ، و للعذاب الاليم ، فاذا استدعاهم الرسول في يوم ما ، و أصدر اليهم أوامرا مباشرة بحمل السلاح ، و التوجه الى الغزو مثلا ، فانهم في هذه الحالة أمام موقفين ، فإما الانصياع الى الأوامر ، و هذا خلاف ما يريدون ، و أماالرفض فيخرجون - بذلك - ظاهرا و باطنا عن الاسلام ، و يضعون أنفسهم تحت طائلة العقاب الشرعي في الدنيا و في الآخرة.

وعلى فرض أنهم اختاروا الامر الاول ، فانهم سيجدون صعوبة بالغة في تنفيذ الأوامر ، لان الذي لم يرب نفسه على تنفيذ الأوامر الصغيرة لا يستطيع ذلك في القضايا الكبيرة ، و الذي يهرب اليوم من الحر و البرد ، و سهر الليل و مشاكل التدريب و ما اشبه ، كيفلا يهرب غدا من الحرب و القتال ؟!

اذن فعلى الانسان ان يربي نفسه على الطاعة و الانضباط و تحمل الصعاب حتى يكون على أتم الاستعداد نفسيا و بدنيا لتطبيق الأوامر الهامة.

]أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم[

جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام:

"يسلط عليهم سلطانا جائرا ، أو عذابا أليما في الآخرة " (١)(١) المصدر / ص ٦٢٩

و الواقع : ان هناك رابطة وثيقة بين سيطرة الطغاة و بين مخالفة أوامر القيادة الشرعية.

] [64]ألا إن لله ما في السموات و الارض قد يعلم ما أنتم عليه ]أي ان الله و بكل تأكيد يعلم بكل ما تفعلونه ، و هو قادر على محاسبتكم و مجازاتكم لانه مالك الكون و الوجود.

]و يوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا و الله بكل شيء عليم ]و غدا يخبركم بكل ما فعلتم ، لان علمه محيط بالانسان ، و معرفة الانسان بهذه الحقيقة تجعله مسؤولا عن أقواله و أعماله ، فيعمل على اصلاحها و تحسينها ، ليكسب ثواب الله ، و يتجنب عقابه.

## سورة الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

### فضل السورة

عن رسول الله (ص) قال:

"من قرأ سورة الفرقان بعث يوم القيامة و هو مؤمن ، ان الساعة آتية لا ريب فيها و ان الله يبعث من في القبور "( نور الثقلين / ج ٤ - ص ٢(

عن الامام الرضا (ع) قال:

"يا ابن عمار لا تدع قراءة " تبارك الذي نزل الفرقان على عبده " فان من قرأها في كل ليلة لم يعذبه الله ابدا ، و لم يحاسبه ، وكان منزلته في الفردوس الاعلى "( مجمع البيان / ج ٧ - ص ١٥٩(

### الاسم

لأن هذه السورة تبين حقائق عن الوحي ، و لأن أهم ميزة للوحي هو تفريقه بين الحق و الباطل فقد سميت بـ ( الفرقان ) الذي يشير الى الآيات المحكمات في القرآن.

### الإطار العام

انها رسالة ، و عظمة الرسالة أولا تأتي من جانب مرسلها.

و الدرس الأول من هذه السورة التي يبدو انها تبين حقائق الوحي و تنسف العقبات التي تعترض طريق الايمان به ، يذكرنا بمن أرسل الكتاب ، و بالكتاب ، و بالرسول الذي أرسل معه.

أولا : الله هو الذي انزل الفرقان ، و هو رب السماوات و الارض الذي ارسل الكتاب.

انه الله الذي تبارك و تعالى .أوليس خيره عميم ثابت يغني ولا يتناقص و له وحده ملك السموات و الارض و هو الذي قدر كل شيء.

ثانيا :و من آمن بالله عرف رسالاته ، أما من اتخذ من دونه شركاء فسوف لا يحظى بالايمان

بالرسالة ، لذلك تراهم يتهمون الرسالة بالافتراء ، و يزعمون : انها اساطير.

بينما الذي يعرف الله ، و انه العليم بسر الخلق يؤمن بالرسالة التي تكشف جانبا من ذلك السر.

ثالثـــا :قالوا : كيف يبعث الله بشرا رسولا . إنه يأكل و يكتسب معيشته ، و قالوا :لماذا لم ينزل معه ملك ، و لم يلق اليه كنز ، ثم قالوا : انه رجل مسحور.

و هكذا ضلوا عن السبيل بسبب ضربهم الأمثال للرسول.

وبعد ان يجيب السياق عن افتراءاتهم بانه قادر على ان يجعل للرسول ما يملأ عيونهم من الجنات و القصور ، يبين جذر الكفر بالرسالة المتثمل:

أولا :في تكذيب الساعة ، ينذرهم بها حيث تستدعيهم من بعيد بزفير و تغيظ ، فاذا اقحموا فيها تنادوا بالهلاك ، و يقارنها الذكر بالجنات التي وعد المتقون.

ثانيا :باعتمادهم على شركائهم . حيث يذكرنا الرب بان الانداد لا يغنون عنا شيئا في ذلك اليوم الذي يقفون امام المحكمة ، و يتبرأون ممن كانوا يعبدونهم.

ثالثا : ان من أسباب الكفر بالرسالة نسيان الذكر بسبب تطاول العمر و استمرار النعم ، فكان سببا لهلاكهم.

و يعود الذكر الى رد شبهاتهم التي سبقت الواحدة تلو الأخرى.

أولا :قالوا : لماذا يأكل رسولنا الطعام و يمشي في الاسواق ، فقال الرب : ان المرسلين سابقا كانوا ايضا يأكلون الطعام ، و يمشون في الاسواق ، و أن ابتلاء الناس ببعضهم سنة الله التي تمضي في الخلق لمعرفة من يصبر ، و هو البصير بهم (٢٠. (

ثانيا : قالوا : لماذا لم ينزل معه ملك نذيرا ، يقول ربنا : انه الاستكبار و العتو.

أو لا يعلمون انه لو تنزلت الملائكة ، و انكشف الغطاء فقد لزمهم الجزاء ، و لا بشرى لهم يومئذ ، و تنتثر أعمالهم فلا تنفعهم ، و يمضي السياق في بيان اهوال الساعة التي كذبوا بها لعلهم يتذكرون.

ثالثا : من أسباب الكفر بالوحي خلـــة السوء حيث يعض الظالم - آنئذ - على يديه ، و ينادي بالويل على نفسه على ما اتخذ من اخلاء سوء اضلوه عن الذكر.

رابعا : يـــأتي الرسول يوم القيامة يشكو الى ربه من قومه الذين اتخذوا القرآن مهجـورا.

خامسا :و قالوا : لولا أنزل القرآن جملة واحدة ، و يجيب السياق بان الحكمة هي تثبيت الفؤاد ، و مقاومة امثلتهم الباطلة بالحق المبين.

و يحدث السياق عن مثل للرسالة الالهيـة حيث بعث الله موسى الى فرعون رسولا ، كما بعث نوحا الى قومه ، و ارسل الى عاد و ثمود و اصحاب الرس ، فماذا كانت عاقبة الذين كذبوا بالرسالة . ان مصير القرية التي امطرت مثلا واحدا لعاقبة اولئك المكذبين . أفلا يعتبرهؤلاء بهم و يكفون عن تكذيبهم ؟!

سادسا :و يتخذون الرسول هزوا ، و لكنهم يعترفون بمدى تأثيره فيهم ، و الواقع : ان الهدى من الله و ليس الرسول وكيلا عنهم ، ولا يهديهم الله إذ أنهم اتخذوا اهواءهم آلهتهم ، و يبين القرآن

ان الله هو الذي جعل الشمس دليل الظل ، و احيـــى ميت البلاد ، و صرف الأمثال فهو الهادي و المذكر ، و لكن اكثر الناس يكفرون.

و الله سبحانه المالك المقتدر ، و قد أمر الرسول بجهادهم جهادا كبيرا ، و بين آيات قدرته البالغة ، حيث مرج البحرين ، و جعل بينهما حاجزا و قد خلق من الماء بشرا.

و لعل الآيات توحي بان من يكفر بالرسالة سوف يتعرض لمعادات المؤمنين ، ولا ينفعه الأنداد شيئا ، كما انهم لا يضرونه اذا خالفهم.

و في المقابل لا يطلب الرسول اجرا ، و لا يعتمد الا على الله.

و يأمر الله الرسول بالتوكل على الحي القيوم ، و يذكره باسمائه الحسنى ، فقد خلق السموات و الأرض في ستة ايام ، ثم استوى على عرش القدرة ، ينشر رحمته على عباده و هم ينفرون من السجود للرحمن بكفرهم!

وفي الدرس الأخير يذكرنا القرآن باسم " تبارك " الذي به جعل في السماء بروجا ، و جعل فيها سراجا منيرا ، ثم يضرب مثلا من واقع عباد الرحمن الذين صاغهم الوحي ، فهم يمشون على الارض هونا ، و اذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، و هم يبيتون لربهم سجدا و قياما ، و يحذرون عذاب الآخرة ، و يقتصدون في الإنفاق ، ولا يدعون مع الله الها آخر ، و لا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ، و يتوبون الى الله ، و لا يشهدون الزور ، و يمرون باللغو كراما ، و تعي افئدتهم آيات ربهم ، و يتطلعون الى ان يصبحوا اماماللمتقين ، فيجزيهم الله الغرفة بما صبروا ، و يلقون فيها تحية و سلاما.

وفي الآية الأخيرة يذكرنا السياق بدور الدعاء ، و لعل السبب يتلخص في انه رد التحية من قبل العبد لرسالات الرب.

## تبارك الذي نزل الفرقان

## هدى من الآيات

في الدرس الأول من هذه السورة التي تبين حقائق عن الوحي ، يذكرنا ربنا بأن من انزل الفرقان هو الله الذي تنوعت و كثرت بركاته ، و الهدف من الفرقان الذي أنزله على عبده و رسوله محمد صلى الله عليه و آله هو انذار كافة الناس.

و يفصل الذكر حديثه عمن انزل الفرقان . أوليس خطر شان الرسالة إنما يكون بمن ارسلها ؟ و ها هو المليك المقتدر الواحد بلا شريك و المقدر لكل شيء ينزل ما يهدينا الى حقيقة الاشياء.

بينما الضالون الذين يهتدون بالقرآن يشركون بربهم من لا يخلق شيئا ، و لا يملك لنفسه ضرا فيدفعه أو نفعا فيجلبه ، و لا يملكون موتا و لا حياة و لا نشورا.

و شركهم الله يجعلهم يكفرون بالفرقان و يزعمون انه ليس إلا إفك صنعه الرسول بالتعاون مع آخرين . هكذا يظلمون الرسول ، و هكذا يقولون باطلا.

و يقولون : انها مجموعة أفكار السابقين تملى عليه فيكتبها بكرة و اصيلا.

كلا ..انما انزل الفرقان الخبير بسر السموات و الأرض . أو ليس الله هو الغفور الرحيم يتجاوز عن ذنوب عباده و يرحمهم بانزال الوحي اليهم ؟!

**بينات من الآيات**

]بسم الله الرحمن الرحيم[

**تبارك الذي نزل الفرقان**

[1]ان مـــن أبرز مميزات القرآن الكريم ان الحكمة تتجلى فيه ، لأنه من لدن حكيم خبير ، فلا تجد لفظة من ألفاظه على صيغة معينة الا لحمة.

و لعل سبب تسمية هذه السورة بسورة " الفرقان " هو التالي:

اولا : لاشتمالها على هذه الكلمة في بدايتها.

ثانيا :بما ان الانسان خلق للبقاء في حياة أخرى لا تفنى ، و إنما جيء به الى الدنيا لتتكامل نفسه ، و يعد لتلك الحياة و طريق التكامل الوحي ، و سورة الفرقان تحدثنا عن الوحي ، و ضرورة الايمان به ، و كيفية تجاوز العقبـات التي تعترض طريق الايمان به ، ونقرأ في نهاية السورة عرضا لأبرز صفات المؤمنين به ، و التي تبين - في ذات الوقت - صورة عن الانسان المتكامل الذي يعده الفرقان للجنة ، و من هنا سمي الوحي هنا بالفرقان لأنه يميز الانسان المتكامل المعد للجنة عن البشر الناقص الذي يلقى في النار ، فالفرقان هوالقرآن الذي يعمل به ، و تصاغ عبره شخصية اصحاب الجنة.

فبالقرآن يعرف الحق من الباطل ، و الخير من الشر ، و من اهتدى به أوتي الفرقان ، و ارتفع إلى درجة الولاية على الناس تشريعيا ، اذ يستخلفه الله على ارضه ، لا لميزة ذاتية ، بل لأنه يجسد - اكثر من غيره - رسالة الله في سلوكه و تصرفاته ، كما أنه يسمو لمستوى الولاية التكوينية ، لأنه قد طبق بنود الرسالة على نفسه مما يعطيه القدرة على تسخير الأرض و ما فيها.

و عنـــدما تبدأ آيات هذه السورة المباركة بكلمة " تبارك " و التي تعني التكامل في الحياة ، فلكي تشير الى حقيقة عظيمة تهم الانسان كمسؤول عن حياته و مصيره ، فلو طمح يوما الى التكامل ، فلابد له من ادراك هذه الحقيقة ، و إلا فانه سيظل عاجزا عنبلوغ الهدف الكبير.

تلك الحقيقة هي ان الانسان لا يمتلك القدرة الذاتية على التكامل ، و لا سبيل له الى ذلك الا بالارتباط بينبوع التكامل و البركة و هو رحمة الله - جل شأنه - عبر التمسك بحبله المدود من السماء الى الارض ، و هو القرآن ، حيث يسمو بالانسان نحو مدارج الكمال ،و يفجر طاقاته الخيرة التي اودعها ربنا فيه.

لذا نجد هذه الكلمة تتكرر ثلاث مرات أو أكثر بعبارات مختلفة في هذه السورة ، التي يستوقف الانسان سياقها في الآية الاولى ليبين ان الهدف الأساسي من الوحي هو الانذار لأن الانسان اقرب الى دفع الشر عن نفسه منه عن جلب الخير ، فلو علم بعدو يريد اقتحام البيتتراه يتحرك استعدادا للدفاع بنشاط اكبر مما لو علم بوجود فرصة امامه للكسب ، و لربما كان هذا السبب الذي يجعل الانذار يسبق التبشير.

**القرآن رسالة الى العالمين**

و تشير الآية الكريمة الى أن القرآن ليس رسالة موجهة الى طائفة من بني البشر

دون أخرى ، انما هي رسالة مترامية الابعاد ، تسع البشرية كلها ، فهي شاملة و عامة ، و هذه الميزة من أكبر الدلائل الواضحة على انها وحي ارسله الله سبحانه ، و انها ليس من اصطناع الرسول ( صلى الله عليه و آله و سلم ) لأن الانسان لا يمكنه الوصول الى مستوى متقدم من التجرد عن الذات و المصلحة العنصرية و الاقليمية و غيرها من الانتماءات المادية ، و انما يستطيع

ذلك عندما يتصل بمشكاة النور ، و يتنصل من اي انتماء مادي و يرتبط بالله المهيمن على جميع الحدود و القيود و الولاءات.

فكون القرآن حديثا للبشرية دليل على صدقه ، و انه مرسل من عند الله ، ثم إن من يضع المنهج للحياة ، و يفرضه على الانسان لابد ان يكون مطلعا على شيئين : الانسان و الكون ، فلابد ان يعرف طبيعة الانسان ، و مكنوناته من الطاقات و التطلعات ، اما الكون فلابدان يكون مهيمنا عليه ، عارفا بسننه و انظمته ، ولا يتسنى هذا الامر لغير الله - سبحانه - الذي أودع السنن و الانظمة و قدرها تقديرا.

]تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ]لماذا اختار الله سبحانه كلمة " عبده " ؟

يبدو لي أن الهدف من هذا التعبير أمران ، هما:

أولا : ان عظمة الرسول (ص (نابعة من عبوديته لربه ، و اخلاصه له سبحانه.

ثانيا : ان القرآن ليس من فكر الرسول ، و لا هو افراز طبيعي يعلمه ، و كمال عقله ، او دليل على اختلاف عنصره .

"الفرقان " كلمة مشتقة من فرق يفرق مفارقة ، و قد سمي الذكر فرقانا لأنهيهب الانسان قدرة على التمييز ، و عليه مسؤولية الاختيار.

جاء في النص المأثور عن ابي عبد الله (ع) في معنى الفرقان:

في قوله " انزل الفرقان "قال:

"هو محكم ، و الكتاب هو جملة القرآن ، الذي يصدقه من كان قبله من الأنبياء " . (١)وفي الصحيفة السجادية عن ابي محمد الباقر زين العابدين - عليهما السلام: -

"و فرقانا فرقت به بين حلالك و حرامك ، و قرآنا أعربت به عن شرائع أحكامك " . (٢)[٢] و اذا عرف الانسان رب العزة الذي انزل الفرقان عرف صدق هذا الكتاب ، و كلما زادت معرفته بربه كلما زادت قدرته على الاستفادة من كتابه ، و تحول الكتاب عنده الى مقياس سليم لمعرفة الخير والشر ، و النفع و الضر . ذلك لان من عرف ربه باسمائه الحسنى ثم تليت عليه آيات الكتاب ، رأى تجليات ربه فيها ، و عرفا انه لا يكون مثل هذا الكتاب الا من الله الخبير ، فلا يخالجه ريب في صدق رسالة ربه.

و هكذا ذكرتنا سورة الفرقان أولا بمن انزل الكتاب.

]الذي له ملك السموات و الارض و لم يتخذ ولدا و لم يكن له(١) تفسير نور الثقلين /ج ١ - ص ٣١٠

(2)المصدر

شريك في الملك و خلق كل شيء فقدره تقديرا[

ان من الناس من يعبد الآخرين باعتقاد ذواتهم الالوهية - كما يزعمون - أو ان شرعيتهم نابعة من الله ذاتا ، كالاعتقاد بأن السلطان ظل الله في الارض ، أو ان الله أمر بعبادة التراب ، و تقديس القوم و العشيرة.

و عندما ينسف الله هاتين الفكرتين ، فانه ينسف بذلك قاعدة التمايز الطبيعي بين العناصر البشرية ، أو القوميات و الوطنيات ، أو أي شيء آخر.

و يأتي عجز الآية الكريمة مكملا - بتناغم و تناسب - مع كلمة " الفرقان " التي مر ذكرها في الآية الاولى ، فهي ليست بعيدة عما تهدف اليه كلمتي " فقدره تقديرا " في آخر هذه الآية ، لأن الفرقان جاء لتعريف الانسان بالتقديرات الالهية ، والأنظمة الربانية ، و التقادير هي الانظمة و السنن.

و قد اضافت الأحاديث في معنى التقدير و حدوده و نذكر فيما يلي بعضا منها:

روي عن علي بن ابراهيم الهاشمي قال : سمعت ابا الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام يقول:

"لا يكون شيء الا ما شاء الله و اراد و قدر و قضى. "

قلت : ما معنى شاء ؟ قال " : ابتدء الفعل. "

قلت : ما معنى قدر ؟ قال " : تقدير الشيء من طوله و عرضه. "

قلت : ما معنى قضى ؟ قال " : اذا قضى امضاه فذلك الذي لا مرد له " (١)(١) المصدر / ج ٤ - ص 3

و التقدير الالهي سبق الخلق بمدة طويلة ، هكذا يروى مسندا عن ابي علي بن موسى الرضا عن ابائه عــن علــي ( عليهم السلام ) قال : قال رسول الله ) صلى الله عليه و آلـه و سلم: (

"ان الله عز و جل قدر المقادير ، و دبر التدابير قبل ان يخلق آدم بألفي عام " (١)و قال الامام الرضا عليه السلام ليونس:

"تدري ما التقدير ؟ قلت : لا ، قال : هو وضع الحدود من الآجال و الأرزاق و البقاء و الفناء " (٢)واتخذوا من دونه آلهة:

] [3]و اتخذوا من دونه ءالهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ]و ينساب السياق القرآني ليطهر الافئدة من الاساطير الجاهلية ، فلا آلهة من دون الله تخلق و تصنع . كلا .. انما هي التي تخلق و تصنع ، بل قد يكون الانسان هو الذي يصنعها كما تشير اليه آيات أخرى ، و التي توحي بأن الله يخلق الآلهة خلقا أوليا من العدم ، و لكن الانسان يعطيها منصب الألوهية ، و ليس الله الذي لبس رداء الوحدانية ، و تسربل بالعزة و الفردانية ، و لا من قبل أنفسهم.

اننا نجــد هجوما قرآنيا شديدا بين الحين و الآخر على الأساطير و الخرافات انما لإبطالها ، و الأخذ بيد الانسان الى الحقيقة بعد اسقاط الآلهة الكاذبة التي نبتت في مستنقع أوهام البشر البدائي ، الانسان ذو الذهنية الساذجة و المحدودة.

تخلف الانسان هو المسؤول الاول و الاخير عن ضلالاته و فساده سواء على صعيد(١) المصدر / ص ٤

(2)المصدر / ص ٥

الأفراد و المجتمعات و الامم ، اذ لا وجود لهذه الآلهة المزيفة لولا جهله و ضيق افقه ، و توجهاته المنحرفة في قوالب الشهوة و المصلحة.

و الا فما تفسير ظاهرة الطغيان . اذ يعتلي فرد أو تتكبر جماعة لتتحكم بمصير مجاميع بشرية هائلة و كأنها آلهة ، فيتزلف له أولهم الناس ، و يتسكعون على أبوابه ، متناسين الحقيقة العظمى في هذا الكون ، و متغافلين عن واقع الذين يعبدونهم بأنهم أناس مثلهم ، خلقوا من طين لازب ، و هم الآن من لحم و شحم ، و عظم و دم . تحكمهم ذات القوانين و الانظمة الجسدية و النفسية التي تحكم سائر الناس ، و انما اصبحوا بهذه الهالة من التقديس الأجوف بخوف الناس منهم ، و رغبتهم في خيرهم.

و اذا أراد مجتمع ما ان يكتشف هذه الحقيقة ، فما عليه الا ان ينفض غبار التخلف عن نفسه ، و ينتفض لله ضاربا بالخوف عرض الحائط ، متنازلا عن المصلحة و الشهوة العاجلة في سبيل هدف مقدس هو رضوان الله ، فان الطاغوت آنئذ لا يمكنه الوقوف على عرش السلطة لحظة واحدة ، لان عوامل انهياره موجودة - اذا - في ضمير الانسان و المجتمع و في سنن الحياة.

و لا يقصد بالآلهة المزيفة الحاكمين فقط بقدر ما يعنى بهذه الكلمة كل شيء يقدسه الانسان الى حد العبودية له ، سواء تجسد ذلك في الحاكم كفرعون ، أو القبيلة كقريش ، أو العنصر كاليهود ، أو الاقليم أو الحزب أو ما أشبه.

فلــربما يشرد بالانسان خياله في مغبات الانحراف ليصور له الوطن شيئا قائما بذاته ، أو العلم المصنوع من القماش هو الذي يحفظ البلاد و الانسان ، هكذا قد يتصور الانسان قطعــة القماش التي لا تعدو كونها رمزا لما في قلوب الناس من حب مكنون للوطن.

فاذا اصبح حب الوطن بغضا للاوطان الاخرى ، أو التضحية من أجله بطشا و عدوانا على الآخرين بغير الحق ، فانه بذلك يصبح إلها يعبد من دون الله.

و يدرك البشر بفطرته ان لا اله في الكون الا الله ، فهو خالقه ، و مقدر سننه ، و المهيمن عليه ، و انه قد بعث نبيه برسالة تبين تلك السنن ، إلا ان الانسان قد يستجيب لدعوات الشيطان و النفس التي تتحول الى آلهة مقدسة بعد تبلورها في الواقع الخارجي.

ولو وقف الانسان ساعة تفكر لنفسه ، و عرض دعوات الشيطان ، و ضغوط النفس على ضوء الفطرة و العقل لتبدد ظلام الانحراف عن قلبه ، و لوجد الآلهة التي تعبد من دون الله لا تملك شيئا ، بل الله يملكها ومن يعبدها من دونه.

و ينثني السياق ليهتف بالانسان قائلا : مادمت انت الذي تعطي لهذه الآلهة الشرعية ، فلماذا تخضع لها تارة خوف البطش ، و تستجيب لها أخرى رغبة في الخير ؟! و لكن لا يستجيب لهذا الهتاف المقدس الا من هدى الله قلبه للايمان ، اما من غرق في بحر الجحود و الكفر، و توغل في الضلالة و الهوى ، فانه بالاضافة الى رفضه هذا النداء ، يتهم القرآن بالإفك و الرسول بالإفتراء ، و انما يأفك الانسان الذي يفتري على الله تكذيبا و زورا ، من اجل لذة عابرة ، إذ لا يكذب كذاب لغير مصلحة و رغبة.

اما الرسول ذلك الانسان العظيم الذي تجرد عن رغباته و ذاته ، فاصبح موضوعيا في كــل شــيء لا يمكنه ان يختلق هذه الفرية الكبيرة ، و لماذا يختلقها و قد تجرد عن المصلحة ؟!

وانه من السخف ان يتهم احد رسول الله بالفرية و الكذب ، فان القرآن لا يولي اهتماما بالغا لتهمة هؤلاء الرسول بذلك ، بل يمر عليها مرور الكرام ، و اي مصلحةله من ذلك و قد وهب حياته كلها وما يملك من أجل الناس ؟!

و كذلك لا يولي اهتماما لمن اتهموا الرسول بأنه يقتبس هذا القرآن ليلا ، من مجموعة عبيد

كانوا في مكة بينهم عبد بن طحي " مولى طحي " ، و رحب " مولى عبد شمس " و أناس آخرين لم يكونوا يميزون الهر من البر ، لقصور افكارهم عن إنتاج فكري اقل من إنتاج انسان عادي ، فكيف بالقرآن العظيم الذي هو ضمير الحياة ، لان من خلق الحياة هو الذي بعث رسوله محمد (ص) به ؟!

إن القرآن حق لا ريب فيه ، و كلما توغل الانسان في الحياة اكثر ، و تدبر في آيات الذكـر اكثر كلما اكتشف العلاقة الوثيقة بين السر الذي يكتشفه عندما يتوغل في الحياة ، و الآخر الذي يعثر عليه عندما يتدبر في القرآن ، و كلما نمى عقل الانسان و زاد علمه ، وتكاملت شخصيته كلما كان اقرب الى فهم القرآن و معرفة آياته الكريمة.

و يبقى الانسان هو المسؤول عن تسلط الآلهة ، و تلبسها بالقداسة المزيفة ، و هي ليست اكثر من حجر يتحطم بضربة .

و صدق ابـو ذر الغفاري ) رضوان اللـه عليـه ) حيث قـال عنـدما رأى الثعلب - الثعلبان - يبول على راس صنم قبيلته:

ارب يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بالت عليه الثعالب[ و لا يملكون لأنفسهم ضرا و لا نفعا[

اذا كانـوا لا يملكون دفع الضر عن أنفسهم ، فكيف يستطيعون الحاق الضر بغيرهم ؟!

انهم أعجز ، و لكن الثقافة الجاهلية هي التي تهول الاصنام و تعظمها ، و هي التي ترمز للقوى الاجتماعية الحاكمة حتى اننا نقرأ في التاريخ : ان بعض القبائل العربية كانت تدخل الاسلام و لكنها ترفض تحطيم اصنامها بايديهم خشية نزول العذاب عليهم ان هم كسروا تلك الأحجار التي صنعتها أيديهم ، و في التاريخ ان الرسول ( صلى الله عليه و آله و سلم ) قبل من ثقيف شرطهم عليه الا يتولوا هم تكسير اصنامهم ، فأمر بعض أصحابه بذلك ، و كانوا يزعمون ان الجدب و البلاء سيحلان بهم لو اهانوا تلك الأحجار الصماء بسبب كثافة الاعلام السلطوي الذي مارسه بحقهم المترفون الذين كانوا يحكمون البسطاء باسم تلك الأصنام.

و اليوم نرى بعض الشعوب تقدس أصناما بشرية ، و يظنون انهم مصدر الاستقرار و الرخاء ، فمنهم من يقول : " الله يعز الملك " أو " الله يعز الشيوخ " أو " الله ، المليك ، الوطن " بدلا من التوجه الى الله ، و الدعاء للمؤمنين ، ثممن هو الملك و من هو الرئيس و من هو الامير حتى نعتقد انه اساس كل خير و بركة ؟!

بلى . ان سلبية الناس هو انسحابهم من الساحة السياسية ، و هي التي صنعت الأجواء المناسبة لنمو الانظمة الفاسدة ، و انتفاخ الطاغوت.

]و لا يملكون موتا و لا حياة و لا نشورا[

و لعل المقصود من الآلهة التي ذكرها القرآن في قوله : " و اتخذوا من دونه آلهة " الرموز الاجتماعية المعبودة من دون الله لا الاصنام الحجرية ، اذ ليس للصنم موت ولا حياة ، بل هما من طبيعة الانسان.

و النشور هو البعث بعد الموت ، و كيف يعبد من لا يملك لنفسه ذلك ؟

] [4]و قال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه و أعانه عليه قومءاخرون فقد جاءو ظلما و زورا[

من الناحية اللغوية الإفك هو :الكذب ، و الافتراء هو : اصطناع الكذب من غير أساس.

و كما هي العادة يسم الكفار الرسول بهذه الخصال الرديئة ، ولا يكتفون بذلك بل يدعون اعانة

مجموعة من موالي مكة للرسول على هذه الامور ، ولا يستمهلهم القرآن دون رد ، بل يجيبهم : انكم جئتم ظلما و زورا ، و لعل الآية تشير الى ان الإنحراف هو وليد الظلم العملي و الزور الفكري .

] [5]و قالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة و أصيلا ]اتهموا الرسول بأنه يتلقى القرآن من جماعة تأتيه أول النهار و آخره ، ثم يطلع عليهم ليسميها وحيا نازلا من عند الله ، لا لشيء الا لتبرير الكفر و الجحود بآيات الله ، اذ ان اعترافهم بالقرآن و الرسول - انهما من عند الله -يكلفهم الكثير.

] [6]قل أنزله الذي يعلم السر في السموات و الأرض إنه كان غفورا رحيما ]لان الله عالم السر في السماوات و الارض و لانه غفور رحيم ، يريد الغفران لذنوبنا ، و الرحمة لنا . لهذا و ذاك كشف لنا سر الحياة دون ان يجهدنا في البحث عنه ، و كان ذلك عبر رسوله محمد (ص) و الصالحين من اوليائه الذين جعلهم نورا و سراجا منيرا ، كي ينقذواالناس من الضلالة و الضياع.

فكيف يكون من اساطير الاولين التي لا تكشف سرا ولا تهب نورا ؟!

**انظر كيف ضربوا لك الأمثال**
**هدى من الآيات**

بعد ان ذكرنا الرب بمن أنزل الفرقان ليهدينا - كما يبدو لي - إلى المنهج القويم لمعرفة الكتاب ، و للتصديق بـه بعدئذ . دحض تبريرات الكافرين بالرسالة ، ولا يزال يفندها السياق . الواحد تلو الآخر.

لقد قالوا :كيف يبعث الله إلينا بشرا رسولا يحتاج الى الطعام ، بل و إلى اكتساب المعيشة من الأسواق ، فلولا أنزل إليه ملك ليكون معه نذيرا.

أو يستغنـــي عن اكتساب رزقه بأن يلقى إليه كنز أو لا أقل تكون له جنة يأكل منها.

و تطرف الظالمون فقالوا: ليس هذا الذين تتبعونه سوى رجل مسحور.

و يعالج القرآن هذه الأفكار المريضة:

أولا : بأن قياس الرسول بأنفسهم و ضربهم الأمثال له ، جعلهم يضلون السبيل . و لعلهم لو تجردوا عن الأحكام المسبقة لم يضلوا عنه.

ثانيا :إن القرآن نزل فعلا من عند الله تبارك خيره ، و عظم فضله ، فلو شاء و قضت حكمته البالغة لجعل لرسوله خيرا من ذلك ، جنات تجري من تحتها الأنهار )في الآخرة ، أو حتى في الدنيا عندما جرت ثروات الأرض على أقوام تابعية بما لم يحلموا به ، و لا تخيله أولئك الجاهلون الذين كفروا برسالته أول مرة. (

ثالثـا : ان سبب جحودهـم إحساسهم بالأمن من عذاب الله ، فهم قد كذبوا بالساعة ، ولقد أعد لهم الرب سعيرا ملتهبا . يدعوهم الى نفسه من بعيد ، و يستقبلهم بالتغيظ و الزفير.

إنه مكان ضيق . محلهم فيه كمحل الوتد في الحائط ، و هم مغلولون ببعضهم مع شياطينهم ، و ينادون بالويل ، و يناديهم الملائكة : ألا أدعوا ويلا كثيرا.

ما قيمة الكنز و البستان ، في مقابل بقيمة الخلاص من نار جهنم ؟! و أيضا قيمة الجنة التي وعد المتقون كانت لهم جزاء و مصيرا ، لهم فيها ما يشاؤون خالدين.

هكـذا يعالج القرآن النظرة المادية اللامسؤولة بتذكير النفس البشرية بعذاب الساعة ، و ثواب

الله في الجنة.

وهكذا ينسف العقبات و يزيلها عن طريق الايمان بالفرقان.

**بينات من الآيات**
**المقاييس الخاطئة**
[7]لقد أراد الكفار أن يكون الرسول الذي بعث إليهم كأحد قياداتهم

المزيفة ، أو بالأحرى آلهتهم التي تعبد من دون الله ، و بالتالي خاضعا للمقاييس الجاهلية لاختيار القيادة ، و من أهم المقاييس التي كانوا يعتمدونها في تمييز القيادة:

- 1القوة البشرية ( عدد التابعين و الأصحاب. (

- 2القوة الاقتصادية ) الثروة و المال. (

- 3السيطرة السياسية ، و عادة ما تكون نابعة من القوتين السابقتين.

ومادام الرسول لا يمتلك الجنود المجندة حتى يخضعوا لقمعها ، ولا تلك الثروة التي تستعبدهم بها الطبقة الرأسمالية ، ولا تلك الأراضي الواسعة حتى يحترموه كما يحترمون اقطاعييهم الكبار ، فهو لا يستحق - اذا - قيادتهم ، و لكنهم لم يعلموا أن هناك فرقا شاسعا بين الرسول و قادتهم الجاهليين ، فقد ضلوا السبيل لما ضربوا له الأمثال.

]و قالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام و يمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ]فمن جانب يتعجبون لان الرسول (ص) يشبههم في حياتهم و معيشتهم ، يأكل الطعام ، و يبحث عن رزقه في الأسواق - و كأنهم كانوا يريدون له الاقامة في البروج العاجية ، و ان يجعل بينه و بينهم عشرات الحجب ، كما يفعل الملوك و السلاطين - و من جانب آخر يتساءلون لماذا لم ينزل معه مخلوق غيبي ، يتوعد كل من يعرض عن دعوة الرسول.

و لعلنا نستوحي من قوله تعالى " نذيرا "عن لسان الكفار ، و لم يقولوا " بشيرا " انهم أرادوا أن يكون للرسول قوة قامعة تدعم الرسالة باذلال الرقاب ، و كانوا يريدونها قوة مادية يشاهدونها بأعينهم ، اما ان تكون قوة الغيب الالهية هي السند ، فهذا مالم تستوعبه عقولهم التي لم تتحرر من قيد المفاهيم المادية.

] [8]أو يلقى إليه كنزا أو تكون له جنة يأكل منها ]و اذا لم تهبط عليه الثروة بصورة كنز يلقى له من السماء ليجعله من طبقة الأثرياء ، فليكن عنده بستان يدر عليه من الدخل ما يغنيه عن الأكتساب لطعامه الخاص ؟!

وقد أغفل هؤلاء بهذه التخرصات كرامة الانسان التي هي فوق القوة و المال وما تغله الأرض من ثمرات.

]و قال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا[

و قد نسب القرآن صفة الظلم لهم دون الاكتفاء بضمير يعود على ما تقدم ذكره لان لكلامهم جانبين:

الأول : المطالبة بحجة قاطعة على صدق الرسالة ، وقد يتصور لها جانب الموضوعية.

الثاني :اتهامهم الرسول بأنه رجل مسحور . أي فاقد العقل و الارادة الحقيقيين ، و هذا ظلم في

حق الرسول ، و من يدعي باطلا مقابل الحق يتحول من مجرد منكر باللسان الى محارب بكل معنى الكلمة ، و حين يدعو شخص أحدا إلى فكرة فإما يرفض أو يقبل ، و أما ان يعلنالحرب ضده ، و يتهمه بالجنون ، فإنه الظلم ذاته ؟ لأن عدم اقتناعه بالدعوة - لو افترضناه - لا يسمح له أن يمنع الناس من قبولها.

[9]عندما بدل الكفار المقاييس ، ضربوا الأمثال لمقاييسهم الخاطئة ، حيث أرادوا الرسول قيادة كقياداتهم ، كي يستجيبوا له ، فطالبوا بملك كرمز لقيادة أصحاب القوة ، أو كنز كرمز لقيادة أصحاب الثروة ، أو جنة كرمز لقيادة أصحابالأرض ، و لكن ماذا كانت تبعة هذا الخطأ الفادح ؟ إنها الضلالة لا غير.

]انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ]وحينما قاسوا قيادة الرسول بالقوى المادية ، حرموا أنفسهم من فهم الحقيقة ، و لا سبيل لهدايتهم مادامت الأفكار الجاهلية تستبد بعقولهم.

] [10]تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار و يجعل لك قصورا ]أذا شاء الله جعل للرسول جنات و قصورا و لكن أين كل ذلك ؟

قال بعض من المفسرين : ان المراد من ذلك -جنات و قصورا - في الدنيا و ذلك محتمل ، إلا أن الافضل القول : بأن ربنا يذكر بالآخرة ، فليست الدنيا آخر المطاف بالنسبة للانسان.

لهذا جاء الرد الالهي بأن الرسول كريم على الله و هو يحبه ، و لكنه لا يعطي له الدنيا جزاء لعمله ، لعدم كونها في مستواه ، بما فيها من زخرف و زينة ، و كذلك يتعامل الله مع المؤمنين ، و يسند هذا الراي قوله تعالى مباشرة بعد هذه الآية:

] [11]بل كذبوا بالساعة و أعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ]فهم انما اقتصروا في مقاييسهم على الدنيا لتكذيبهم بالعالم الآخر ، و ما جزاؤهم سوى السعير.

ان آيات الذكر تعالج الأمراض النفسية التي تصيب القلب و تمنع عنه الرؤية . أرأيت من غرق في لجة ، و تكاثفت عليه الأمواج ، هل يقدر على الاستقرار ، أو السيطرة على نفسه . كذلك الذي تتقاذفه أمواج الشهوات ، و تعصف به عواصفالعداوة و الغيظ.

فلكي يستقر هذا القلب الذي يتقلب على كف الشهوة و الغضب ، حتى يفكر بموضوعية ، و يستضيء بنور العقل المودع فيه ، و يعود الى فطرته التي خلق عليها ، لابد له من مرساة يحفظ سفينته عن هيجان الأمواج . لابد له من قوة تصونه من التقلبات.

و ان الايمان بالساعة لهو تلك المرساة و انه لتلك القوة.

ان الايمان بالساعة يعطي النفس موضع استقرار ينطلق منه نحو تقييم سائر الأشياء ، انه يعطيه قوة ، لتتعالى بها عن أمواج الشهوة و العصبية . كيف ؟

لنضرب مثلا : من لا يملك الا دينارا واحدا و خشي عليه من السرقة ، يكون كل تفيكره في دينارة ، حتى يكاد ينظر الى الدنيا كلها من خلالها ، اما من يملك مليون دينار غيره فهو يتغافل عن ذلك الدينار الواحد ، فحتى لو سرق منه فله ما يسليه عنه.

هكذا الذي يؤمن بالجنة ، يتسلى عن شهوات الدنيا ، و يتغلب نفسيا عليها ، و بالتالي يقوى على مقاومة ضغوطها .

كذلك من يخشى النار ، فان قلبه يلهو عن مصيبات الدنيا . أو ليست هي حقيرة جدا إذا قيست بسعير جهنم ؟!

وهكذا يسمو قلبه عن الحب و البغض ، و عن الشهوة و الغضب ، عن العصبية و العداوة ، و يتعالى على الخوف و الطمع ، فيرى الحقائق كما هي لا كما توحي به مصالحه الآنية.

كذلك الذين كفروا بالرسالة لأن الرسول لا يملك كنزا أو جنة يأكل منها ، أولم ينزل معه ملك نذير . انما هم مرضى القلب ، و لا بد أن يستشفوا و شفاؤهم في التذكرة بالساعة . حيث تتضاءل عندها ثروة الدنيا و مصيباتها ، و عندها تتحرر افئدتهم من قيود الشهوات.

ومن هنا كانت الآية هذه و التي نتلوها بيانا لسبب كفرهم ، و أيضا شفاء لمرض كفرهم.

و يستمر السياق في وصف النار ليزداد القارئ تجردا عن أغلال القلب ، و بالتالي يزداد إيمانا بالكتاب . ذلك ان القرآن لا يجادل الكفار بالرسالة فقط ، و انما هو يزيد ايمان المؤمنين بها عبر انذارهم بالساعة ، فكلما وعوا حقيقة العذاب كلما أبصروا بنور قلوبهمحقائق الوحي أوضح و أجلى.

**صور من العذاب**

[12]و من صفات جهنم انها تلتقط طعمتها من مسافة بعيدة لقوة جذبها ، فاذا رأت أصحابها مصفدين بالأغلال ، مستسلمين لا يملكون حراكا و لا هربا ، فانها تسحبهم بلهيبها ، و في الوقت نفسه تستعر استعارا شديدا و بصوت رهيب و هذا هو التغيظ . كل ذلك لاستقبالأعداء الله و الرسالة ، و في الحديث الشريف عن الامام الصادق عليه السلام:

"إن جهنم تدعو أصحابها من مسيرة سنة " (١)[ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا و زفيرا ]و بالاضافة الى ذلك فانهم لا يدخلون جهنم دخولا عاديا ، و انما يهوون فيها لانها موجودة في مكان سحيق.

(1)المصدر / ص ٧

] [13]و إذا ألقوا منها مكانا مقرنين دعوا هنالك ثبورا ]مقرنين : أي مصفدين بالاغلال ، و الثبور : هو الهلاك.

و هنا تصور لنا الآية الكريمة انواعا من العذاب في جهنم ، فبالاضافة للحريق هناك:

- 1الالقاء من شاهق : و يمكن للانسان ان يكون قريبا و لو بعض الشيء من تخيل ذلك ، لو تصور شخصا يلقى من الطابق العاشر ليرتطم جسده برصيف الشارع ، فتسحق عظامه ، و إلا فان الالقاء في جهنم يوم القيامة لا يستوعبه عقل الانسان المحدود ، إذ من بين من يلقون من يهوي ألف عام حتى يصل الى مقامه فيها.

- 2المكان الضيق : و فيه التعذيب النفسي الشديد ، إذ يجلب الكآبة و الضجر لصاحبه ، وجاء في الحديث:

"و الذي نفسي بيده : انهم يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط - 3(1) " التصفيد بالاغلال : حيث معاناة المصير التعيس بثقل الأصفاد و فقدان القدرة على الحركة تماما.

- 4و ينادي المكذبون بالويل و الثبور ، لهول ما يرون ، فيأتيهم النداء الذي يزيدهم ألما لآلامهم.

] [14]لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا و ادعوا ثبورا كثيرا ](١) المصدر / ص ٨

لا تتلفظون بهذا الكلام مرة واحدة ، بل كرروه مرارا ، و لن يجديكم ذلك نفعا لأنكم في العذاب

خالدون.

] [15]قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء و مصيرا [أيهما افضل الدنيا بما فيها من ثمرات و كنوز . تعقبها النار و السعير ، أم جنة الخلد يسبقها العمل الصالح ، حيث النعيم المقيم و العز الدائم ؟!

بالطبع لو حكم الانسان عقله في هذه المسألة لأجاب الصواب ، و لكن ذلك وحده لا يكفيه لدخول الجنة الا بالعمل الصالح في سبيل الله ، لأنها للذين يأكلون الطعام ، و يمشون في الأسواق ، غير مستكبرين على الناس ، ولا مبتغين العز إلا من عند الله.

] [16]لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعدا مسؤولا ]لا أحد ينكر ما بلغت إليه مدنية اليوم من التقنية و المنهجية و العلمية ، و لكنها تبقى عاجزة أمام طموحات الانسان ، فهي لم و لن تستطيع تحقيق كل ما يصبو إليه ، و من كان عاجزا عن ان يهب للانسان الحياة بعد الموت ، لهو أعجز على إعطائه الخلود.

إن أسمى ما يفكر الانسان في الوصول اليه شيئان:

أ - أن يدرك ما يريد.

ب - الخلود و هو ما يسمى بغريزة حب البقاء.

ولا يمكن تحقيق هذه الطموحات في الدنيا بطبيعتها ، فلابد أن يفكر الانسان فيالدار التي يمكنه تحقيق طموحاته فيها ، و ليست إلا الدار الآخرة ، و هذا وعد أكيد من الله للمتقين " و من أوفى بعهده من الله " " و من أصدق من الله قيلا " ؟

روي ان الفضل بن سهل وزير المأمون العباسي أراد تزويج المأمون من ابنته " يوران " و كان مترفا ، و جندوا كل أموال الدولة الاسلامية من أجل حفل الزفاف ، و كذلك الطغاة يصرفون المليارات من الدولارات على حفلات زواجهم.

فصنعا ما صنعا ، و من جملة ذلك صنعوا فراشا منسوجا بخيوط الذهب ، و مرصعا بالآلئ و الجواهر ، و عندما أراد الأب الأخذ بيد ابنته يسلمها إلى عريسها - كما تقتضي التقاليد آنذاك - قال لها :يا بنيتي هل قصرت في حقك ؟ و هل تريدين مني شيئا آخر ، فقد أعددت لككل ما تتمنى نفسك ؟

قالت : لم تقصر في حقي ، و لكني أريد شيئا واحدا.

وما هو ذلك ؟

أريد مسمارا و مطرقة أسمر بهما الفلك حتى يتوقف عن الدوران ، كي تبقى كل الليالي مثل هذه الليلة.

و أنى لي بذلك ؟

قالت العروس : و ما تنفع ليلة واحدة إذن ؟

ان الانسان مهما أوتي من نعم الله في هذه الدنيا ، إلا أنه سيبقى قاصرا عن بلوغ تطلعاته البعيدة ، فلو فكر بعقله مليا لأدرك الجنة هدفا لا الدنيا.

ج - كلما ازدادت النعم على الانسان في الدنيا ، كلما ازداد خوفه من زوالها.

ألا ترى أنه كلما أوتي الانسان خيرا يزداد بخلا ؟ وفي الحديث:

"ما فتح الله على رجل بابا من الدنيا إلا وفتح عليه من الحرص ضعفيه "لأنه كلما ازدادت النعمة عليه . كلما ازداد حرصه عليها كي لا تزول ، و هو يعلم في قرارة نفسه انها زائلة لا محالة.

لذلك لا يمكن للانسان ان يفرح بالنعم ، واحساس عميق بخوف الزوال يساوره بين اللحظة و الأخرى ، أما أصحاب الجنة فهم خالدون فيها لا يبغون عنها حولا.

**و جعلنا بعضكم لبعض فتنة**

**هدى من الآيات**

لقد كفروا بالرسول ، و آمنوا بالجبت و الطاغوت ، و قالوا : لو لا القي عليه كنز ؟! و تساءلوا : لماذا يأكل الطعام ، و يمشي في الأسواق و لكن هل ينفعهم الأنداد شيئا يوم يحشرهم الله و ما عبدوا ، فيتبرؤون منهم و يقولون :سبحانك .. ما كان ينبغي لنا ان نتخـــذ من دونك من أولياء متعتهم ، و يرون أن طول متعتهم أنساهم الذكر ، فهلكوا.

إذا : غرورهم بقيم المادة ، و كفرهم بالرسول لأنه لم يلق اليه كنز أرداهم ، و جعلهم قوما بورا.

وهكذا ينسف الذكر الحكيم هذه العقبة عن طريق الايمان بالوحي : و يقول : ان سنة الله في بعث الرسل مضت على أنهم يأكلون الطعام ، و يمشون في الأسواق ، و أمر الله النـــاس باتباع واحد منهم ليفتنهم . فهل يصبرون على طاعته ؟! و الله من ورائهم يبصرهم ، و هو عليم رقيب.

ثم ينسف العقبة الأخرى ، حيث قالوا : لو لا أنزل علينا الملائكة ، أو نرى ربنا ، فيقول : انه عتو كبير . فكيف يطالبون برؤية الملائكة ؟! فلا بشرى يومئذ للمجرمين اذ ينزل بهم عاقبهم العاجل في ذلك اليوم ، و تراهم يقولون حجرا محجورا - اشارة الى ذلهم و استسلامهم - و يجعل الله أعمالهم هباء منثورا ، بينما اصحاب الجنة خير مستقرا في ذلك اليوم ، الذي تشقق السماء بالغمام ، و تنزل الملائكة ، و يتجلى ملكوت الله لكل شخص ، وهو يوم عسير على الكافرين.

**بينات من الآيات**

**متعتهم حتى نسوا الذكر**

[17]أهم عقبة تعترض الايمان بالوحي هي اتخاذ الاولياء من دون الله . ذلك أن الانتماء الى الجبت او الطاغوت يجعل الانسان يتكئ على الشيء دون القيم ، و يعتمد على الباطل و ليس الحق ، و بالتالي يضل السبيل.

و لأن يوم القيامة هو اليوم الذي تجلو فيه الحقائق ، و تتوضح السرايا ، فان الحقيقة التي يبينها القرآن هنا تكون أجلى حينذاك . إذ يتنصل كل من العابد و المعبود كل من صاحبه ، و ذلك عندما يكتشفون أن هؤلاء الاولياء لا يملكون صرفا و لا نصرا ، و في ذلك اليوم لا تنفعهم معرفتهم . و انما يكشف الذكر هذه الحقيقة لينسف اساس تبريرهم الكفر بأن الرسول لا يملك كنزا أو جنة ، و أنه ليس رجلا من القريتين عظيم.

ذلك ان اساس هذه التبرير هو الإتكال على القيم المادية ، غافلين عن انها تتلاشى ولا تغني عنهم شيئا يوم يكونون بأشد الحاجة اليها في الآخرة ، بل حتى في الدنيا اذا كشف عنها غطاء الغرور بدت خاوية زاهقة.

]و يوم يحشرهم و ما يعبدون من دون الله فيقول ءانتم أضللتمعبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل [

و هذا السؤال موجه الى كل من يساهم في اضلال الناس ، كالصحفي المأجور ، و السلطان

الظالم ، و علماء البلاط . و يبدو أن الانتماء الى القيادة الجاهية كان من عوامل الكفر بالرسول ، الذي هو القائد الحق المطروح على الساحة بديلا عن القيادات الضالة ، و لذلك نبـــه الذكر الى ضرورة التخلص منها ، و من الولاءات الجاهلية تمهيدا للايمان بالوحــي.

[18] [قالوا سبحانك

أنت المسبح و المقدس عن أي شريك.

[ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء]

فنحن بدورنا عبيد لك ايضا ، فكيف نكون آلهة.

ثم بين الذكر الحكيم العامل الحقيقي للشرك و الإنتماءات الجاهلية ، فقال:

[و لكن متعتهم و ءاباءهم حتى نسوا الذكر]

انت الذي فتنتهم بالنعم حتى نسوا الذكر.

[و كانوا قوما بورا]

أي هالكين ، و الاراضي البوار هي التي لا تصلح لشيء من الزراعة.

[19]إن الطغاة المؤلهين من دون الله ، يدركون أنهم ليسوا آلهة.

[فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا]

للعذاب عن أنفسهم أو عمن عبدوهم.

[و لا نصرا]

و لا ينصرونهم من دون الله.

[و من يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا]

إذا لم يساهم الانسان في تسخير الناس لعبادته ، بل عبدوه بجهلهم ، فليس عليه شيء ، كالنبي عيسى ابن مريم (ع) ، الذي اتخذه النصارى إلها من دون الله ، بينما سيكون اول المتبرئين من عملهم يوم القيامة.

[20]و يواصـــل السياق تزييف تبريرات الكافرين بالرسالة بعد نسف أســاسهـا آنفا ، حيث يبطل هنا قولهم : كيف نتبع رسولا يأكل الطعام ، و يمشي في الاسواق.

أولا : بان تلك سنة الله التي مضت في الأولين ، إذ لم يبعث الله رسولا إلا وهو يأكل الطعام ، و يمشي في الاسواق.

و ثانيا : بأن تلك وسيلة لامتحان الناس ، فهل يصبرون على الطاعة أم لا.

[و ما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام و يمشون في الأسواق] فلم يكن الرسول بدعا ، و إنما جاء خاتما لمسيرة مباركة ممتدة.

و الجاهلون لم يستوعبوا هذه السنة لأحد الاسباب التالية:

الف :لجهلهم بواقع البشر ، و زعمهم : أن الانسان لا يمكن ان يكون رسولا لرب العالمين ، كلا .. الانسان كريم عند ربه إذا عبده و أطاعه.

باء : لزعمهم : ان الرسول ينبغي ان يكون غنيا أو مقتدرا ، و قد نسف القرآن آنفا اساس هذه الفكرة القائمة على تقديس المادة.

جيم :لجهلهم بحكمة الخلق ، حيث زعموا : ان الله يريد هدايتهم حتما ، بينما الله شاء بحكمته البالغة ان يهديهم بطوع إرادتهم ، و ليس بصورة حتمية ، و هكذا امتحنهم بالرسول الذي هو منهم ، و أمرهم بطاعته لينظر هل يصبرون.

]و جعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون[

و منهج القرآن الكريم هو بيان الحكم عند بيان ما يناسبها ، و لذلك تتسع آياته لتشمل ما وراء حدود السياق.

وهكذا نجد ان هذه الحكمة البالغة تذكر هنا بمناسة الحديث عن الرسول لتبين لنا : أن طاعة الرسول ، و المخالفة لهوى النفس نوع من الفتنة بالنسبة الى الناس .و لكن الآية تعطينا أيضا بصيرة نافذة تكشف الكثير من اسرار الحياة . فالغني فتنة للفقير الذي قد يكفرفي الكذب أو الغش و السرقة كي يصبح مثله غنيا ، و كذلك الغني فتنة للفقير ، فهو مبتلى به امام الله ، اما بالبخل و الربا أو بالغرور و التكبر.

جاء رجل فقير الى رسول الله (ص) يوما ، و جلس على مقربة من رجل غني - كان قد سبقه الى مجلس الرسول - فتنحى الغني بعد ان لملم ثيابه بطريقة تنم عن الاحتقار ، فنظر الرسول اليه و قال :اخشيت ان ينتقل غناك اليه أم فقره اليك ؟ فقام الغني و قد أدرك سوء عمله يقول : اخطأت يا رسول الله .. اخطأت .. ثم دار بوجهه الى ذلك الفقير و قال :اني اهب لك نصف مالي ، فقال الفقير : أتريدني ان اصبح غنيا فأصنع مثل ما صنعت ؟ فأتكبر على الفقراء ، احفظ عليك مالك فاني لا اريد غنى هذه نهايته.

هكذا كانت الحكمة من تفاضل الناس . ابتلاؤهم ببعضهم لمعرفة مدى صمودهم أمام إغراءات الدنيا.

]و كان ربك بصيرا[

يحصي على الناس تصرفاتهم ، و يرصد سلوكهم تجاه بعضهم ، و كيف لا و الله يعلم خائنة الاعين و ما تخفي الصدور.

[21]الى هنا يكون السياق القرآني قد عالج العقبة الاولى في طريق الايمان ، و هي النظرة الخاطئة للرسول ، لذا فانه ينتقل الى علاج العقبة الثانية و هي عقبة الكفر بالساعة.

عندما يؤمن الانسان بفكرة ما فانه يبحث عن اي شيء ليبرر هذا الايمان ، حتى ليمكننا تقسيم فكر الانسان الى جانبين:

- 1جانب الاعتقاد : و هو الايمان بالفكرة ذاتها.

- 2جانب التبرير : و ذلك للابقاء على الاعتقاد.

وهذا التقسيم نجده ليس لدى الكفار بالحق فحسب ، بل حتى لدى المؤمنين ، اذ لابد ان يسعى كـلا الطرفين ليبرر موقفه ، فالتبرير له وجه ايجابي و ذلك اذا كان من اجل الحق ، و له وجه سلبي عندما يكون من اجل الباطل.

إن قسما من الناس يبرر رفضه للرسالة بإعذار ، فيسال : اذا كان الله قد بعث رسولا ، فلماذا لا ينزل علينا الملائكة لتخبرنا بصدق الرسالة ؟ أو يسأل : عن الله لمذا لا نراه جهرة ؟

]و قال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرربنا لقد استكبروا في انفسهم و عتو عتوا كبيرا[

استكبروا في أنفسهم حينما أراد كل واحد منهم ان يصبح رسولا تنزل عيه الملائكة ، و عتوا حينما طالبوا برؤية الله سبحانه و تعالى.

[22]إن الدنيا دار اختبار ، و لا يتم الاختبار من دون حرية القرار ، و إذا ظهرت الملائكة فان ذلك إيذان بنهاية مرحلة الاختبار الى مرحلة الجزاء ، و آنئذ لا ينفعهم شيء.

]يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين و يقولون حجرا محجورا ]ان الملائكة التي يطالب هؤلاء بمجيئهم مخلوقات جبارة ، اصوات بعضهم كالرعد و نظراتهم كالبرق ، يستطيع احدهم ان يسنف الارض بمن فيها و من عليها بنفخة واحدة ، اذا أوكل الله له ذلك.

و سيكتشف المجرمـــون مدى حماقتهـــم ، حيـــن وضعوا شرط نزول الملائكة عليهم ، و سيعلمون كم أوقعهم عنادهم في الجهل ، عندمـــا يـــرون الملائكة ، و سيكون قولهم آنئذ " حجرا محجورا " أي ليت بيننا و بينهم حاجزا يحجبهم عنا ، فنتخلص من هول الموقف، الذي لا طاقة لنا به . و كانت هذه الكلمة ايذانا بالتسليم عند العرب ، و الطلب من العدو الا يضر به.

] [23]و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ]فالكـدح الذي كدحوه في الدنيا ، للحصول على الثروة و الجاه ، سيضيع من ايديهم ، و لن يجدوا غير الحسرة و الندامة . لانهم كانوا يعيشون ضيق الأفق ، فلم يحسبوا للآخرة حسابها ، و لعل في الآية إشارة الى أن الأعمال الصالحة لا تنفع مندون طاعة الرسول و القيادة الشرعية.

[24]أما ما يقدمه المؤمنون برسالة الله ، المصدقون لرسوله فان الله عز و جل سيحفظه لهم ، و يعيده عليهم في صورة ثواب عظيم و جزاء كريم ، يدخلهم الجنة ، و سيكونون فيها صالحي البال ، يشعرون بالاستقرار و الطمأنينة ، و ينامون ملئ اعينهم ، كما ينام الانسانوقت القيلولة لا يزعجه ألم ولا يهدده خطر:

]أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا و أحسن مقيلا[

] [25]و يوم تشقق السماء بالغمام[

ربما يكون تفسير هذا المقطع من الآية ، ان السماء تنفطر و كأنها غمام ، أو ان فيها غمام ينكشف عن السماء . و كم هو مريع حين تنفطر هذه السماء المترامية الاطراف أمام ناظري هذا الانسان الضعيف الذي لا يتحمل أبسط الشدائد.

من جهة أخرى : لقد جعل الله السماء سقفا محفوظا ، و جعل منظرها في النهار بهيا ، و في الليل جميلا ، و جعل فؤاد البشر يطمئن اليها ، و انما يسعى الانسان للدفاع عن نفسه عبر وضع الحواجز من حوله ، و لا يمكنه ان يحتاط لنفسه عن الأخطار التي تصله من السماء. لذلك كان تشقق السماء - هذا السقف المحفوظ - اشد رهبة و أعظم.

و الخطر لا ينزل بصورة عمياء كالصاعقة أو الشهب المتساقطة ، كلا .. بل يتنزل الملائكة الغلاظ الشداد ، يأخذون المجرمين و يسلكونهم في الأغلال و يسحبونهم الى النار و ساءت مصيرا.

]و نزل الملائكة تنزيلا[

فئاة فئاة ، و المرة تلو الأخرى.

**الخوف و الرجاء**

] [26]الملك يومئذ الحق للرحمن[

بالرغم من ان الملك لله في كل حين ، و على كل حال ، الا أن ملكوت الله يتجلى بصورة أظهر و أعظم في يوم القيامة ، و قد ذكرت الآيات بصفة الرحمة الإلهية في هذا المـــورد ، و ليس بصفة الغضب لتشير الى انه في الوقت الذي تتجلى قوة الرب التي لا تحد ، يعطينا السياق أملا في رحمته الواسعة ، و لكن يحذرنا أن نضيع الفرصة و لا نستفيد من رحمته ، و كم يكون الانسان شقيا لو ترك الاستفادة من رحمة الله ، التي وسعت كل شيء ؟!

]و كان يوما على الكافرين عسيرا[

حينما ينظر الانسان الى رحمة الله يزداد أملا و رجاء ، الى حد قد يتصور أن لا عذاب عند الله ، و انه سيدخل الناس جميعا الى جنته الواسعة.

و لكـــن حينما يفكر البشر في معاصيه ، و مخالفته لربه ، يحس ان كل العذاب قليل بحقه ، لهذا نجد معادلة قرآنية تتجلى في قوله تعالى : " الملك يومئذ الحق للرحمن " من جهة ، وفي قوله : " و كان يوما على الكافرين عسيرا " من جهة ثانية ، وهي معادلة التوازن النفسي بين الرحمة و الغضب ، اللذين يجب ان ينعكسا على سلوك الانسان.

**كذلك لنثبت به فؤادك**

**هدى من الآيات**

فـي جو تشقق السماء ، و تنزل الملائكة ، و تجلى ملكوت الرب الرحمن - الذي مر آنفـــا - يعالج هذا الدرس صداقات السوء التي تنفصم عروتها يوم القيامة حتى يقول الظالم : ياليتني لم أتخذ فلانا خليلا ، و يشتد به الندم حتى تراه لا يكتفي بعض سبابته ، بل يعض على يديه ، و يقول : " ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا. "

إن صديق السوء يضل صاحبه و يبعده عن الذكر ، ثم يتركه لشأنه كما يفعل الشيطان . حيث يخذل من اتبعه في ساعة العسرة.

و يجيء الرسول شاهدا على قومه الذين هجروا القرآن ، فلم يؤمنوا به ، أو لم يعملوا به بعد ان تظاهروا بالايمان.

و يسدل السياق الستار على مشهد القيامة المهيب . بعد ان يهدم بنيان النظم الجاهلية للمجتمع . حيث الولاءات الجاهلية التي لا تنفع و لا تضر ، و حيث صداقات السوء التي تضل عن السبيل ، و يختم كل ذلك ببيان ان لكل رسول عدوامن طغاة الجاهلية ، و مجرمي المجتمع.

ثم يواصل القرآن رد شبهات الجاحدين للرسالة حيث قالوا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، و يرده : بأن التنزيل المتدرج اثبت لفؤاد الرسول ، و أوضح في البيان ، و أبلغ في معارضة ثقافة الجاهلية بالحق المبين.

**بينات من الآيات**

[27]الناس في الدنيا محكومون بالضغوط الاجتماعية التي تدعو الكثير منهم الى ترك الرسالة الالهية.

إن الشيطــان يدعو الانسان الى الانحراف ، و يعده بالنصر ، ثم يكون أول المتبرئين منه ، حينما يواجه مصيره و عاقبة امره ، و لكن من هو الشيطان ؟

إن للشيطان صورتين ، فتارة يتجسد في القوى الخفية التي تضلنا عن الحق ، و أخرى في القوى الظاهرة و بصورة مختلفة ، فقد يكون صديقا يدغدغ فينا الآمال و الشهوات ، و قد يكون المجتمع الذي يضغط باتجاه التقاليد و العادات المنحرفة ، و ربما يكون السلطان الحاكم، أو الاعلام المضلل ، و .. و .. الخ ، و هؤلاء جميعا يتبرأون من البشر يوم القيامة.

]و يوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ]حينما يرى الظالم ان الجنة و النار بيد الله - سبحانه - و ان الطاعة أو العصيان للــرسول همــا المقياس عنده لدخول أحدهما ، فانه يندم على ما فرط في جنب الله و رسالته ، و يتمنى لو كان متبعا للرسول ، و سبيله الحق.

] [28]يا ويلتى[

يدعو على نفسه متندما.

]ليتني لم أتخذ فلانا خليلا [

الذي أضله من صديق سوء أو سلطان جائر أو ضرب شيطاني ، و لكن ماذا ينفعه كل أولئك ، و قد ضل بما زخرف له هؤلاء الأخلاء ، فترك رسالة الله سبحانه ، و عليه إن أراد ان يتخلص من النار ، و يزحزح الى الجنة أن يتخلص من الولاءات الشيطانية في الدنيا ، و يخلص ولاءه لله و لمن أمر الله.

] [29]لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني[

و كثير أولئك الذين يتبعون أصدقاء السوء الذين يضلون الناس عن ذكر الله بدعوتهم للمعاصي ، و يبدو ان مشكلة اصدقاء السوء إلهاء الانسان عن ذكر الله ببعض التوافه ، و لذلك ينبغي ان يبتعد المؤمن عن مجالس اللهو و اللغو و حفلات البطالين و يأوي الــى روضات الجنات .. ألا و هي مجالس العلماء ، و حلقات الذكر ، و مدارس العلم ، و جلسات العمل في سبيل الله.

وهذا الشيطان الذي يدعوك للمعصية هو الذي يخذلك في ساعة العسرة ، و يتبرأ منك بحجة انه يخاف الله رب العالمين ، وقد ورد في الحديث أن الشيطان يتفل - يبصف - في وجوه تابعيه يوم القيامة.

]و كان الشيطان للإنسان خذولا[

## لكي لا يكون الرسول خصيمنا

[30]لكي لا يكون الشفيع خصيمنا ، و لا يشهد علينا سيدنا و إمامنا الذي هو

أرحم خلق الله بعباد الله . لابد ان نعيش رياض القرآن فنتخذه أنيسا في الوحدة ، حاكما في التجمع ، قاضيا عند الخلاف ، إماما للمسيرة ، هاديا لدى تواتر الفتن . فقد جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق ( عليه السلام ) عن آبائه عن رسول الله ( صلى الله عليهو آله و سلم ) أنه قال:

"إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن ، فانه شافع مشفع ، و ما حل مصدق ، ومن جعله أمامه قاده الى الجنة ، و من جعله خلفه ساقه الى النار ، و هو الدليل يدل على خير سبيل و هو كتاب فيه تفصيل ، و بيان و تحصيل " (١)[ و قال الرسول يا رب إن قومي

اتخذوا هذا القرءان مهجورا [الرسول يقاضي امته يوم القيامة عند ربه إذا تركوا العمل بالقرآن.

هكذا تدل الآية ، و بهذا جاءت السنة الشريفة ، فقد روى الامام الباقر ( عليه السلام ) عن جده الرسول ( صلى الله عليه و آله و سلم ) انه قال:

"أنا اول وافد على العزيز الجبار يوم القيامة ، و كتابه ، و أهل بيتي ، ثم امتي ، ثم أسألهم ما فعله ( فعلوه ) بكتاب الله و بأهل بيتي " (٢)دعنا نتساءل اليوم - و قبل ضياع الفرصة - هل نحن نؤدي حق القرآن علينا.

كيف لو جاء الرسول يوم القيامة ليشهد في قومه . هل يشهد لنا أم علينا.

حقا نخشى ان يشهد علينا ، فأين معارف القرآن إذن في ثقافتنا ؟! و اين(١) تفسير نور الثقلين /ج ٤ - ص ١٣

(2)المصدر

التعاليم الخلقية في سلوكنا ؟! و أين أحكامه في سياستنا و قضائنا ، و قوانين بلادنا ؟! فهل نحن مسلمون قرآنيون ؟! وما الفرق بين من لا يؤمن بالقرآن ، و من يهجره هجرا ؟!

ان قلب المؤمن يكاد يتصدع اذا استمع الى النبي و اهل بيته ( عليه و عليهم صلوات الرب ) و هم يؤكدون عليه الوصية بالقرآن - اقول يكاد يتصدع قلبه خشية الا يكون قد ادى حق كتاب ربه - .

قال رسول الله (ص: (

"القرآن هدى من الضلالة ، و تبيان من العمى ، و استقالة من العثرة ، و نور من الظلمة ، و ضياء من الأحداث ، و عصمة من الهلكة ، و رشد من الغواية ، و بيان من الفتن ، و بلاغ من الدنيا في الآخرة ، و فيه كمال دينكم ، وما عدل أحد من القرآن الا الى النار " (١(

و قال الامام الصادق عليه السلام:

"القرآن : القرآن!

إن الآية من القرآن و السورة لتجيء يوم القيامة حتى تصور ألف درجة ( يعني في الجنة ) فتقول : لو حفظتني بلغت بك هاهنا " (٢)فهل نعود الى القرآن ، و نبلغ تلك الدرجات العلى في الجنة ، و النجاح و السعادة في الدنيا ؟ نرجو ان يوفقنا الله لذلك.

(1)المصدر / ص ١٤

(2)المصدر

[31]في الآيات الماضية حديث عن القيادة المضادة للرسول في المجتمع ، و التي هي من اسباب ابتعاد الناس عن القيم الرسالية ، المتمثلة في الوحي الالهي ، و الآن تصرح هذه الآية بذلك مؤكدة بأن هذه سنة الهية أن يكون للحق سنام هو القيادة الرسالية ، و أن للباطل سنام ايضا هي قيادة الباطل ، و الانسان بين هذه و تلك يختار طريقه بنفسه.

]و كذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين[

كما أن لله سنة في خلقه أن يبعث رسلا يحملون مسؤولية الهداية للبشر ، أو مصلحين على راس كل قرن و في كل قرية ، فان له سنة في قبالتها أن يجعل في مقابل كل قيادة حق قيادة باطل ، تستقطب سلبيات الناس ضد القيادة الرسالية ، و هذه هي التي يتبرأ منها الناس يومالقيامة قائلين : ليتنا لم نتخذ فلانا خليلا.

فهنا نظام و هنالك نظام . هنا تجمع و هنالك تجمع . هنا انتماء و هنالك انتماء ، و علينا ان نختار خطنا بوعي .

هكذا كان مع ابراهيم نمرود ، و مع موسى فرعون ، و مع نبينا الأكرم طغاة قريش.

]و كفى بربك هاديا و نصيرا [

إن في الحياة خطين متناقضين هما خط الحق ، و خط الباطل و حتى لا يشتبه البشر فيضلوا الطريق ، ثم يقولوا : يا ربنا إننا لم نعرف قيادة الحق من قيادة الباطل ، فقد تكفل ربنا ببيان صفات كل منهما عبر وحيه الذي لو اتبعناه لاهتدينا الى الحق ، و لانتصرنا على الباطل بعونه تعالى.

## حكمة التنزيل المتدرج

] [32]و قال الذين كفروا لولا نزل عليه القرءان جملة واحدة[

بعد ان فشلت كل تبريراتهم قالوا : نحن لا نؤمن لان القرآن لم ينزل جملة واحدة ، و ذلك دليل على ضعف الرسول ، فلو كان من عند الله لما أعجزه أن يبعث به دفعة واحدة ، لانهم كانوا يجهلون خلفيات التنجيم . فلماذا جاء القرآن منجما ؟

- 1إن القرآن ليس كتابا عاديا كأي كتاب ، بل هو كتاب حياة ، ينبغي أن يصنع جيلا من المتمسكين به ، و لا يمكن ذلك الا إذا ترسخت أفكاره و آياته في نفوس الناس ، و نجد اشارة الى الجيل القرآني في الآيات الأخيرة من هذه السورة حين ذكرت صفات عباد الرحمن.

و التنزيل المتدرج هو الذي صاغ الجيل الرسالي في الرعيل الاول من المسلمين ، إذ كان المسلمون يصوغون حياتهم وفق كل آية تنزل عليهم ، لتاتي الآية الثانية مكملة لسابقتها ، و لتضيف تكاملا جديدا في شخصيتهم ، إذ لم يكونوا قادرين على صياغة شخصيتهم وفق المنهاج القرآني دفعة واحدة ، و لم يكن الله يريد للقرآن أن يكون تراثا فكريا و علميا ، بل منهجا عمليا لحياة الناس.

و يهدينا ذلك الى ضرورة أن يطبق كل من المجتمع و الفرد القرآن على نفسه كلما استطاع الى ذلك سبيلا ، و تشير الى ذلك الآية الكريمة : فاتقوا الله ما استطعتم " حيث يجب تطبيق الميسور من الآيات الآن تمهيدا لتنفيذ غيرها في المستقبل ، و يوحي الى ذلك قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا و قولوا انظرنا " على تفسير مضى : ان معنى النظر - هنا - الإنتظار لوقت الإمكان.

و يبدو أن هذه من أعظم القواعد التربوية في الاسلام ، و لا ريب أن ذلك لايرتبط بالواجبات الدينية كالصلاة و الصوم ، انما تختص بدرجات المعارف الالهية أو المراتب العالية من الطاعات.

وفي هذه الامور يتثبت الانسان من خلال القرآن عندما يرتله على نفسه ، كما رتل الله كتابه على نبيه ليثبت فؤاده.

- 2إن في ذلك بيانا لعظمة القرآن و انه من عند الله ، فمع أنه نزل على امتداد (٢٣) عاما و في ظروف مختلفة . الا أن ما تهدي اليه الآية الاولى و ما تنطلق منه ، هو عين ما تهدي اليه و

تنطلق منه كـــل الآيات ، لان الله الذي أنزله صاغه على نمط و منهج واحد، لا اختلاف فيه و لا تناقض.

و مع ان مراحل الدعوة قد اختلفت في حياة الرسول (ص) حيث انتقل من مكة الى المدينة ، و التي تختلف فيها الظروف و المشاكل الاجتماعية الا ان ذلك لم يخلف ولا أثرا بسيطا على واقع القرآن روحا و منهجا.

إن في المستشرقين ممن لا يؤمن بالوحي حاول ربط الآيات بالاوضاع الاجتماعية التي مرت بها الأمة أنداك ، فجمعوا الآيات حسب نزولها ، فسورة العلق تسبق سورة الحمد ، فلما لم يكن مرتبا بشكل جيد . عرفوا بأنه من عند الله . حيث ان بعض الآيات من بعض السور تنزل في مكة ، و بعضها الآخر في المدينة المنورة ، بينهما فترة زمنية ليست بالقليلة . تتخللها آيات من سور أخر ، و لكننا نجدهما في غاية التناسق ، و الوحدة الموضوعية . بحيث لو اضفنا كلمة زائدة الى السياق أو حذفنا كلمة لاختلف السياق اختلافا كبيرا ، بل لا يمكن ذلك حتى مع الحفاظ على ذات الكلمات القرآنية مع التقديم و التأخير.

و كلما تدبر البشر أكثر في القرآن الحكيم ، كلما ازداد يقينا بأنه من عند الله ، إذ يستحيل على الانسان أن يجد ترابطا وثيقا بين كلام ينطقه الآن و كلام نطقه منذعشرين عاما . من حيث المحتوى و نضوج الأفكار ، و حتى في الادب و الصياغة ، وقد قال ربنا تبارك و تعالى : " افلا يتدبرون القرآن و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا. "

هذا إذا ما تركنا الروايات و الاحاديث التي تحدثنا عن اسباب النزول جانبا لأن اكثرها لا ترقى الى درجة اليقين العلمي.

- 3لتثبيت قيادة الرسول في المجتمع . حيث يعود الناس اليه ، و ينتظرون منه حلا و رأيا كلما مرت بهم حادثة.

]كذلك لنثبت به فؤادك[

و نجعلك تصيغ شخصيتك وفق آياته.

]و رتلناه ترتيلا[

آية آية ، و مقطعا مقطعا ، حتى يصير واضحا غير مختلط ببعضه ، لكي يدخل في ضمير المجتمع ، و يمتد عبر الاجيال في التاريخ.

و ينبغي أن نتلو القرآن - إذا تلوناه - بتدبر ، و نرتله بتأمل ، و نستضيء بهديه في ظلمات حياتنا ، و نسلط اشعته الكاشفة على كل زاوية مظلمة.

يقول الحديث الشريف المروي عن النبي (ص) انه قال لابن عباس:

"يابن عباس إذا قرأت القرآن فرتله ترتيلا "قال : و ما الترتيل ؟ قال:

"بينه تبيانا ، و لا تنثره نثر الرمل ، و لا تهذه هذ الشعر ، فقفوا عند عجائبه ،و حركوا به القلوب ، و لا يكون هم أحدكم آخر السورة " . (١)و نحن نرى أن القرآن نزل مرتين:

هبط به الروح الأمين جملة واحدة على قلب النبي الأمي (ص) في ليلة القدر ، حيث قال ربنا سبحانه : " إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين " (٢) و قال : " إنا انزلنا فـي ليلة القدر " (3)هكذا نزل القرآن حسب الحاجة الاجتماعية ، ثم نزل مفرقا حسب الظروف و المناسبات ، حيث كان سبحانه يـــأمر رسوله بأن يتلو كل آية في مناسبتها ، و ربما تـــدل على ذلك الآية الكريمة : " لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه و قرآنه. "

[33]ربنـا الرحمن شافى بالقرآن امراض المجتمع البشري المتمثلة في الثقافات الجاهلية . فكلما طرحت فكرة جاهلية غامضة جاء الوحي بالحق المبين.

]و لا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق و أحسن تفسيرا ]ما هو المثل ؟

يبدو ان كل مجموعة فكرية يعبر عنها بمثل ( أو حسب تعبيرنا اليوم بشعار ) و الامثلة عند الناس تختزل حشدا متناسقا من الأفكار ، و تعبر عن سلسلة فكرية متشابكة.

و لتوضيح ذلك دعنا نضرب مثلا :

ألف : العشائرية نهج اجتماعي ، و قيمة فكرية كان شعارها " انصر أخاك ظالما(١) المصدر / ص ١٥

(2)الدخان / ٣

(3)القدر / ١

أو مظلوما " أو "أنا و أخي على ابن عمي ، و أنا و أخي و أبن عمي ضد عدوي. "

و لكن القرآن يقول " : كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الأقربين " (١) ان هذا هو الحق يواجه ذلك المثل الشائع .

باء :القومية إطار سياسي يعبر عنه المثل ينفيه القرآن بقوله : " أأعجمي و عربي " (٢) و تقابلها العالمية الاسلامية التي يقول عنها الرب : " و ان هذه امتكم امة واحدة و انا ربكم فاعبدون. "

جيـــم : و هكذا عبادة الأصنام منهج سياسي عبر عنه قريش بشعارهم في يوم أحد : اعل و هبل ، و قابلها الرسول بالحق حيث قال : الله أعلى و أجل.

و هكذا في سائر الحقول جاء الوحي منجما لكي يواجه الثقافات الجاهلية مثلا بمثل أحسن ، و فكرة باطلة بحق واضح ذا تفسير حسن بليغ.

(1)النساء / ١٣٥

(2)فصلت / ٤٤

## أرأيت من اتخذ إلهه هواه
## هدى من الآيات

لا يزال السياق ينسف عن طريق الايمان بالوحي العقبات التي يضعها الشيطان ، و ذلك بالانذار الشديد بعاقبة المكذبين ، و ضرب الأمثال من واقع الغابرين ، و يهدينا الذكر هنا الى أن واقع الانسان الذي لا يتمسك بالوحي في الدنيا يشبه واقعه الذي يتجسد له في الآخرة ، فهو يمشي و وجهه إلى الارض لا يبصر الطرق ، فان وقف وقف موقف شر ، و ان سار كان طريقه ضلالا.

و يؤكد القرآن أن من لا يؤمن بالوحي و لا يتمسك بالرسالة ، ليس فقط لا يحقق تطلعاته ، بل ويفقد بالاضافة الى ذلك نعم الله عليه من عقل و علم.

إن الله منح البشر قدرا من العقل و العلم ، لو استثمره عن طريق تمسكه بالوحي الذي يثير في قلبه دفائن العقل ، لازداد عقلا و علما ، و لكن إذا رفض الرسالة فإنه يفقد العقل ، حيث يسلبه الله ما أوتي ، فيمشي مكبا على وجهه يتخبط خبط عشواء ، كالأنعام بل أضل سبيلا.

و بعـدها ينذر القرآن من يسمعه دون أن يتعظوا بمصير السابقين كقوم نوح و عاد ، و ثمود و آل فرعون ، إذ كذب آل فرعون موسى و أخاه فدمرهم ، لأنهم لا يعترفون بشرعية القيم ، فلا يشكل البشر بما يملكون من قوى و طاقات و أسماء و شعارات وزنا عند الله لولا القيم ، لأن الأهم لديه هو الايمان و العمل الصالح ، و تفقد كل أمة مبرر وجودها عندما تفقد هذين الاساسين ، و ما تدمير الله لأصحاب الرس إلا لأنهم أمة كفرت بالحق ، و هذه سنته في الحياة.

ومن الناس من أشرب قلبه حب الدنيا ، و يتجاهل قيمة العلم و التقوى ، و ينظر الى رسول ربـه من منطلق قيمه المادية ، فهو يكفر بالرسالة قائلا : أهذا الذي بعث الله رسـولا ؟! و يرى أن صبره أمام تأثير الرسالة فضيلة ، و لا يتذكر أن كفره بها يكلفه كثيرا ،لأنه يرديه الى مهوى الضلالة.

ولكن منطلق هذه النظرة الخاطئة الى الرسول و من ثم الوحي نابع من عبادة الهوى ، فيدعـه الرسول لشأنه لأنه ليس وكيلا عنه ، و لأنه أفقد نفسه نعمة العلم و العقل ، فهو أضل سبيلا من الأنعام و البهائم.

هكذا يبين القرآن هنا الحقائق التي تمس الوحي:

أولا : الذي يكفر بالوحي يكفر بالنور ، فهو يمشي على وجهه.

ثانيا : إن نهايته ستكون كما الذين كفروا من قبل فدمرهم الله في الدنيا ، و أعد لهم عذابا أليما في الآخرة.

ثالثا : من استهزأ بالرسول فكفر لذلك برسالته فقد أختار الضلال ، و أضحى كالأنعام و أضل سبيلا.

**بينات من الآيات**

[34]إن الله يسلب العقول و الأبصار من الذين يكفرون بالقرآن في الدار الدنيا

بصورة معنوية ، أما في الآخرة فانهم يفقدون كل ذلك بالصورتين المعنوية و الظاهرية ، فاذا بهم يمشون مكبين على وجوههم.

]الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم[

قـال بعض المفسرين : أنهم يمشون بعكس الآخرين ، فتكون رؤوسهم إلى الأرض . و ارجلهم الى السماء ، و لعل التفسير الأحسن للآية : انهم لا يرون أمامهم ، فهم مكبون على وجوههم.

]أولئك شر مكانا[

إذا توقفوا.

]و أضل سبيلا[

إذا تحركـوا و ساروا ، و يبدو أن الآيات التالية شواهد تاريخية على حقيقة هؤلاء ، و لعل هذه الكلمة لا تخص الآخرة بل تشمل الدنيا أيضا ، فإن للكفار بالوحي عقبى الشر في الدنيا كما في

الآخرة.

[36 - 35]ثم تتعرض الآيات إلى قصة قوم فرعون الذين كذبوا موسى (ع) كمثال على عاقبة السوء التي تنتظر المكذبين بالرسالات ، و يلاحظ الاختصار الشديد في القصة ، و ذلك من أجل الاعتبار بالنهاية . إذ هي الهدف من بيان هذه القصص هنا.

]و لقد ءاتينا موسى الكتاب و جعلنا معه أخاه هارون وزيرا * فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا باياتنا فدمرناهم تدميرا ]و يوحي هذا التصوير القرآني البليغ بفكرة هامة ، و هي أن المقياس عند الله هوالايمان بآياته ، أما السلطة و الثروة و غيرهما فلا قيمة لكل ذلك عنده تعالى.

[37]و تستمر الآيات تضرب لنا الأمثال من واقع الذين هلكوا بكفرهم ، و كيف أنهم دمروا بسبب تكذيبهم لرسل الله و آياته . أوليس خلق الله الخلق لعبادته ؟ !بلى . إذن فاذا كذبوا بالوحي فقدوا مبرر وجودهم ، فلا ضير أن يهلكهم الله.

]و قوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم[

بالطوفان.

]و جعلناهم للناس ءاية[

علامة و شاهدا على مصير المكذبين برسل الله و رسالاته.

]و اعتدنا للظالمين عذابا أليما[

و يبين هذا الشطر من الآية ان العذاب لا ينحصر في الماضين فقط ، بل يطال كل من يسير في خطهم ، و ذلك حتى لا نتصور أنفسنا فوق سنن الله ، أو قادرين على الفرار منها.

و لكن لماذا يقول القرآن عذابا أليما و ليس عظيما مثلا ؟

ربما لان الذي يكذب بآيات الله بهدف التمتع بحرام الدنيا و من يفعل ذلك لابد و أن يؤلم بالعذاب في الآخرة ، و هذه الفكرة تتجلى في مواقع كثيرة من القرآن ، فغالبا ما يتطرق الذكر للعذاب الأليم بعد استعراض لذة حرام مباشرة ، ليبين ان الله يؤلم الانسان في مقابل تلك اللذة.

] [38]و عادا و ثمودا و أصحاب الرس[

الرس :تعني البئر ، و أصحاب الرس قوم كانت لهم بئر يعيشون عليها ، فأنذرهم رسولهم ، فلم يؤمنوا ، فهدم الله عليهم بئرهم و أهلكهم و مواشيهم.

و يظهر من حديث مفصل يرويه الامام الرضا (ع) عمن سأل جده الإمام علي (ع) و نختصره هنا:

إن اصحاب الرس كانوا يعبدون اثنتي عشرة شجرة صنوبر ، سموا أشهر العام باسمها )و هي الأسماء الفارسية المتداولة للأشهر ) و زعموا ان نوحا (ع) قد زرعها ، و أنهم حرموا على أنفسهم مياه نهر لهم ، و جعلوها خاصة بتلك الأشجار المقدسة في زعمهم!

و ان الله بعث اليهم نبيا ، من بني إسرائيل من ولد يهودا بن يعقوب ، فدعاهم الى التوحيد فرفضوا ، فدعا ربه أن يهلك معبودهم فيبست كبرى الاشجار ، فزعموا انها غضبت عليهم لدعوة الرسول بنبذها ، و قالوا : دعنا ندفن نبينا تحتها حيا فلعلها ترضى ، فحفروا حفيرةفي وسط النهر ، و ألقوا نبيهم فيها ، و وضعوا عليها حجرا كبيرا ، فغضب الله عليهم و عمهم بعذاب شديد ، حيث هبت عليهم ريح عاصف ، شديدة الحمرة ، ثم صارت الأرض من تحتهم حجر كبريت يتوقد ، و

اظلتهم سحابة سوداء فألقت عليهم كالقبة جمرا يلتهب ، فذابت أبدانهم كمايذوب الرصاص . (١(

و يبين حديث آخر أن من أفعالهم القبيحة فعل السحاق ، و هو الشذوذ الجنسي عند النساء ، و ذكر الامام الصادق (ع) أن حدها حد الزانية . (٢)(١) راجع تفسير نور الثقلين / ج ٤ ص ١٦ - ١٩

(2)المصدر / ص ١٩

]و قرونا بين ذلك كثيرا[

فكل هؤلاء جرت عليهم سنة الله ، حيث دمرهم لتكذيبهم بآياته ، و رفضهم لما أتى به رسله.

و يبدو ان المقصود من كلمة القرن في القرآن الحكيم هو الجيل حسب تعبيرنا اليوم ، و هم الذين يقارن بعضهم بعضا . و قيل ان القرن مئة عام أو سبعون سنة ، و قيل خمسون خريفا ، و لعله اربعون عاما لأنه الجيل من الناس يتبدلون كل اربعين عاما ، و سبق ان فصلنا القول في قصة تيه بني اسرائيل.

] [39]و كلا ضربنا له الأمثال[

و يبدو ان المراد من المثل هنا إنذارهم ببيان مصير المكذبين من قبلهم.

]و كلا تبرنا تتبيرا[

التبر هو : القطعات المفتتة من الذهب ، و يسمى بالتبر لأنه ينقطع ، و التتبير يعني التقطيع الكامل ، فالله قطع هؤلاء القوم تقطيعا.

و الملاحظ تحول القرآن من اسلوب لآخر ، فمرة يقول " دمرنا " و أخرى " عذابا أليما " و ثالثة " تبرنا تتبيرا " و رابعة " يحشرون على وجوههم " فهل في ذلك ما يزجرنا عن التكذيب بآيات الله ؟

و كم يجب أن يكون قلب الانسان قاسيا حتى يمنعه من الهداية أو للتأثر بهذه التهديدات المتتالية.

] [40]و لقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ]لقد كانت القرية هذه آية من آيات الله التي يجب على الانسان الاتعاظ بها ، و هي كما يذكره الحديث قرية سدوم لقوم لوط ، و لكن هؤلاء لم يعتبروا بما يرون من آثارها ، ليس لأنهم لم يروها و انما لأنهم يعتقدون ان الدنيا آخر المطاف ، فلا حساب و لا نشور.

و لا تشمل هذه السنة من يكفرون بالوحي جملة و تفصيلا فحسب ، بل كل واحد يتخذ القرآن مهجورا تشمله هذه السنة ، و نذكر بهذه الحقيقة لان مشكلة الكثير منا اعتقاده باقتصار الانذار و التبشير على الآخرين.

فنرتل القرآن ليستمعه غيرنا ، و كأننا أنهينا واجبنا بمجرد لقلقة لسان اعترفنا عبرها بالشهادتين . كلا .. لابد ان يعرف كل فرد منا أنه لا يمكنه الوصول الى درجة الايمان إلا بالجهد الكبير و العمل الجاد ، و يعتقد كل منا ان القرآن حديث الله إليه.

فالذي لا يقرأ القرآن أو يقرأه دون تدبر ، أو يتدبره دون عمل ، أو يعمل ببعضه دون بعض ، أو يعمل به كله دون استمرار و تحمل للصعاب ، كل أولئك يشملهم قوله تعالى : " إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا " لان من كفر بالقرآن سابقا ليس لأنه من طينة تختلف عن طينتنا ، بل مثله كأي بشر وجد صعوبة الايمان بالقرآن ، و تطبيق آياته و مناهجه ، فتركه و لذلك تشمله

سنة العذاب.

و نحن عندما نتبع ذات الخطوات فنحن مثله . بلى . اننا عشنا في بيئة مسلمة تشهد بالشهادتين ، و تقول بنزول القرآن من الله ، فآمنا بذلك ايمان التقليد و الوراثة ، و تتضح حقيقتنا عند ساعات الحرج التي يسميها القرآن بالعقبة ، و التي من واجبنا اقتحامها ، وفي الآية إشارة الى ان الكفر بالنشور سبب سائر مفردات الكفر.

[41]و بعد أن ذكرنا الوحي بمصير المكذبين بالوحي . لعل القلوب تلينفتستقبل الرسالة . أخذ يداوي أمراض القلوب الجاحدة.

ذلك أن مرض الاستهزاء بصاحب الرسالة ، يقف حاجزا دون استقبال نور الوحي . أرأيت لو استصغرت أحدا . و استهنت بكلامه أيضا ، و لكن لماذا استهزأوا بالرسول الكريم ؟ لأن قلوبهم أشربت بحب المادة ، فلم تعد تعترف إلا بالثروة و القوة و الجاه العريض ، و يهذهالمقاييس وزنوا العلم و الفضيلة ، و ارادوا أن تكون موازين الرب تابعة لأحداثهم الشاذة ، و نظراتهم الضيقة.

وقد بين القرآن في مطلع السورة هذه سخف تلك المقاييس المادية ، و لكنه - كما يبدور لي - عاد هنا الى ذات الحديث ليذكرهم بخطأ منهجهم العلمي ، فهل من الصحيح ان نرفض أنذارا وراءه التدمير و التتبير عبر الاستهزاء بمن يحمله . هب إنه كما يحسبون - حاشا لله- فهل من العقل ان نقع في البئر لمجرد اننا لا نكرم من أنذرنا ؟

]وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا ]من هذا حتى نتبعه ، أو نستجيب لإنذاره.

[42]و كم هؤلاء غارقون في الغباء و الضلال فلقد كاد الوحي يصل قلوبهم ، و كادت أنوار الهداية تخترق حجب العناد في أنفسهم ، و لكنهم صبروا على آلهتهم ، و استقاموا على الضلال بعناد و جحود ، فرأوا الهداية ضلالا ، و الاصرار على الضلال صبرا على الحق . يا ويلهم ما أكفرهم قالوا:

]إن كاد ليضلنا عن ءالهتنا لولا ان صبرنا عليها و سوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ][٤٣] و ان هذه العقبة النفسية منشؤها عقبة أخرى تحصل بتغيير محور الانسان من القيمإلى الهوى . فيتبع أهواءه بدل عقله ، مما يجعله لا يميز الحق من الباطل.

إن عبادة الاهواء أساس كفر الانسان ، لان مقياسه في تقييم الحياة سيكون - آنئذ - شهواته ( حبه و بغضه ) لا عقله و علمه ، فلأن فلانا محبوب لديه فهو جيد ، و أفكاره سليمة ، فيتبعه ، و لأن فلانا الآخر مبغوض عنده ، فهو خبيث و كل أفكاره خاطئة ، و سلوكه منحرف.

]أرءيت من اتخذ إلهه هواه[

و نرى الآن و بوضوح أن اساس الانتماء و الولاء في عالمنا اليوم قائم على الحب و البغض و ليس العقل و العلم ، و قد عرف أولوا السياسة و انصار الثقافة الجاهلية ، ان مفتاح شخصية المجتمع الجاهلي هو ا لحب و البغض ، فسعوا لزخرفة أفكارهم الخاطئة بما يثير شهواتهم ، فشوهوا تقييمهم للأفكار ، و جعلوهم يلهثون وراء كل مجلة تنشر الصور المثيرة ، و اتبعوا أجهزة الاعلام بالغناء و الرقص و صور الفاتنا ، وما يثير شهوة الجنس أو السيطرة أو الطعام و .. و..

و هكذا ضلوا و أضلوا ، ولم يكتفوا بتضليل الناس في القضايا المختلفة حتى سلبوهم قدرتهم على أن يسمعوا أو يعقلوا.

فلو ذهب شاب مثقف الى مكتبة ما و رأى فيها كتابا قيما يحوي أفكارا هامة ، و لكنه مطبوع قبل مئتي عام و على ورق اصفر رديء ، فانه قلما يجد دافعا لشرائه و قراءته . و ان تجشم الصعاب و ضغط على نفسه ليقرأ بعض صفحاته ، فانه يشمئز من جراء الأخطاء المطبعية أوعدم الوضوح في كلماته حتى ليكاد أن يخطئه.

و كذلك إذا وصلت بيده ورقة منشور لحركة إسلامية ، و من جماعة مؤمنة لم تسرق أموال الناس لتطبع أفكارها على الأوراق المصقولة الجميلة ، أو في المجلاتذات الأغلفة الملونة ، فانه يتركها جانبا ليقرأ بدلا عنها مجلة تمولها أجهزة الاستكبار لتضليل الناس ، و تصرف عليها بعض ما سرقته من الشعوب المستضعفة ، او تمولها اعلانات المترفين الذين يمتصون ثروات الفقراء و المساكين ، و ينفقون جزء منها على وسائل الاعلام الجاهلية لتبرر للناس أفعالهم القبيحة.

وهكذا تجد المجتمع الجاهلي يتردى في بؤر الجهل بسبب طاعة أبنائه الشهوات و الأهواء بدل العقل و العلم.

و هنا يتضح اساس الخطأ في المحور المعتمد للتقييم . فهل المحور الصحيح ان كل ما تحبه حق ؟ أم الحق هو الذي ينبغي أن تحبه ؟

]أفأنت تكون عليه وكيلا[

و مثل هذا الانسان لا تنفعه شفاعة الشافعين ، و رسول الله لا يشفع له و لو استغفر له سبعين مرة ، بسبب تولية عن القيم و اتباعه الهوى.

[44]الذي يترك عقله لهواه ، و الحق لما يحب و يبغض ، فانه يجعل نفسه اضل سبيلا من الأنعام ، لانها أوتيت مقدارا من الشعور و الفهم تعتمد عليه ولا تحيد عنه ، فلم نر الأنعام يوما تدخل جحيما من النار أو تتبع مضرتها لحبها ، و لكن الانسان يستخدم ما يؤذيه ويتبع ما يضره.

]أم تحسب أن اكثرهم يسمعون أو يعقلون[

كلا إنهم لا يسمعون العلم و لا يعقلونه إن سمعوه ، و هم بلا علم يستفيدونه من الآخرين و لا عقل يستوعب ذلك العلم.

]إن هم إلا كالأنعام[

و هذه نتيجة اتباعهم الهوى . إذ جعلهم يبدلون مقاييسهم ، فبدل أن يحبوا الحق يعتبرون ما يحبونه حقا.

و يبقى سؤال:

أيهما أفضل الأنعام تتبع شعورها القليل ، أم البشر يتركون عقلهم المنير ؟ و ندع الاجابة للقرآن حيث يقول:

]بل هم أضل سبيلا[

الأنعام تعمل بغرائزها بصورة شبه إجبارية ، بينما أوتي الانسان العقل ليقوم بدور الغرائز و افضل منها ، فاذا ترك عقله هلك ، لأنه لا يملك كالأنعام دافعا غريزيا ، أما هو قد أفقد نفسه نعمة العقل البديل عنه.

## ثم جعلنا الشمس عليه دليلا

## هدى من الآيات

في الدرس السابق قرأنا عن أولئك الذين اتخذوا الههم اهوائهم و استهزؤوا بالرسول فكفروا برسالة الله .. و يعالج القرآن هذا المرض بتذكير البشر بربه فاذا عرفه تلاشت الآلهة من دونه.

افلا تنظر الى آثار ربك في هذا الظل الممتد ؟ كيف يبسطه ثم يقبضه بتحريك الشمس مشرقا

لمغرب ؟! ثم يقسم الليل و النهار بقدر ليكون الليل سباتا و سترا و راحة ، و يتخذ النهار نشورا و نشاطا و بحثا عن المعاش.

و المعاش بدوره يدره الرب حين يرسل الرياح لتبشر برحماته و بركاته . فاذا بالسماء تنزل الماء الطهور .فاذا بالحياة تدب في البلد الميت ارضه و بشره و بهائمه.

كل ذلك ليتذكر الانسان ، و لكن اكثر الناس يكفرون . و كفرهم هذا يدعوهم ليتخذوا إلههم الهوى ، و يتحدوا - بالتالي - قيادة الرسول.

**بينات من الآيات**

**و هو الذي مد الظل**

[45]الايمان بالله قاعدة كل معرفة و منطلق كل ايمان ، فلا يمكن للانسان ان يؤمن بالوحي قبل الايمان بمن أنزله .

و في أول آية من هذا الدرس نجد قوله تعالى : " الم تر الى ربك " و ذلك مما حير المفســـرين ، و جعلهم يؤولون الكلام تأويلا .. أو يستطيع الانسان - هذا الضعيف المحدود - أن ينظر الى ربه ؟!!

فقال بعضهم : ان في الآية لقلبا ، و معناها : ألم ترى الى الظل كيف مده ربك و قال البعض ان فيه حذفا ، و معناه الم تر الى فعل ربك ولكن يبدولي : ان في تعبير الآية ايحاء لا نجده في غيره ، فالانسان يرى ربه بالفعل و ليس بعينيه و لا بصورة مباشرة ، بل يراه بقلبه المنفتح من خلال آياته في الكون ، فهي لوضوحها الشديد تعبر عن بديع صنع الله ، و تشهد على ما ورائها من قوة مهيمنة عليها ، و هي قوة الله و اسماؤه الحسنى.

و ماذا يحصل للانسان عندما يرى شيئا ما ؟

أوليس يؤمن به ايمانا عميقا ؟

و الا فلماذا يؤمن بالشمس و ظلها ، و بالارض و ما فيها ؟

بالطبع لأنه يرى كل ذلك ، اذن فالرؤية تعطيه هذه المعرفة ، و تصنع هذه الحالة النفسية من الايمان و الاطمئنان لديه حتى يصل الى درجة اليقين الاعمق.

بالطبع أنه لا يرى الا انعكاسا لنور الشمس عليها.

و من الشمس ماذا يرى ؟

اليس نورها دون جرمها ؟

و هكذا بالنسبة للقمر و سائر النجوم و الاشياء.

فمن النجوم ما يحتمل العلم أنها اندثرت ولا نرى منها سوى نورا انبعث قبل مليون عام ليصلنا اليوم مثلا ، فلا نستطيع ان نتأكد من فناء النجم ، الا بعد مليون عام.

و ماذا نرى من التفاحة التي نحملها بين أيدينا غير النور المنبعث من اي مصدر ضوئي انعكس عليها ؟

و حتى جرم التفاحة لا نرى منه غير الاجزاء المحيطة به ، فالثقل ظاهر محيط بالجسم لا ذات الجسم.

و هكذا الحقيقة غيب ، لا يصل اليها الانسان الا عبر الظواهر و الشواهد المرتبطة بها و الدالة عليها ، فهي تشبه أمواج الاثير التي لا ترى الا على شاشة التلفزيون ، و امواج اللاسلكي التي لا تلتقط ولا تسمع بغير المذياع و الاجهزة المشابهة.

و هل هناك حقيقة ترى بأحسن ما يمكن ان يرى الانسان ربه ؟

اذا كانت الشواهد هي التي تحملنا على الايمان و الاعتقاد بكل شيء و ليس الاحاطة به ، و اذا كان الامر هكذا بالنسبة لسائر الاشياء ، كالارض و السماء وما فيها ، فهل لشيء من الآيات و الشواهد و بالتالي من الظهور و الوضوح مثلما لله سبحانه و تعالى ؟!

فلماذا يجوز ان نقول رأينا الشمس و نظرنا الى القمر .. الخ و لا يجوز ان نقول رأيناربنا ؟!

ان ايماننا بالله يجب ان يكون اقوى من ايماننا بأي شيء سواه ، لأننا نجده في كل شيء ، ( و في كل شيء له آية تدل على انه واحد ) .. ففي كل شيء تتجلى آثار القدرة و العظمة ، و الحكمة و النظام ، و الجمال و الروعة و هي من اسماء الله الحسنى.

و نحن عن طريق النور الذي ينبعث مـــن الشمس الى الارض نكتشفها و نؤمن بها ، و الشمس أظهر الحقائق عندنا ، فاذا أراد الواحد بيان وضوح شيء قال : " كالشمس في رابعة النهار " ، و لكن هل رأينا الشمس رأي العين ؟

كلا .. بل ان كل ما نراه هو ظلها الممتد على البسيطة . و قد قال بعض المفسرين ان الظل هو موجود منذ البدء في الكون ، ثم تأتي الشمس لتذهب به ، فكلما ارتفعت انحسر اكثر ، حتى يأتي وقت الزوال فينعدم تقريبا ثم يعود فيئا بعد دوران الارض حول الشمس ، فيصبح الوقت مساء .

الا ان هناك احتمالا آخر لمعنى الظل أطرحه ليتدبر فيه المتدبرون :ان الظل هو انعكاس نور الشمس ، و لذلك جاء في الحديث في تفسير علي بن ابراهيم و في رواية ابي الجارود عن ابـي جعفر ( عليه السلام ) في قوله عز و جل : الم تر الى ربك كيف مد الظل فقال : " الظل ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس. "

و إذا سميت شبح الاشياء ظلا فلأن شعاع الشمس يمتد اليه.

و نسأل : ماذا يرى الناس من ظل الشمس ؟

لا يرون الا نورا منبعثا منها منبسطا على الارض ، و هو في انقباض و انبساط بمشيئة الله فبين الحين و الآخر يتبدل النهار ليلا و الليل نهارا ، و كل ذلك آية دالة على وجود الشمس.

إننا نؤمن بالشمس ، دون ان نرى غير ظلها ، الذي نعرف من خلاله طبيعتها و قوتها ، و مدى دفئها ، كما لو كانت الشمس هي التي نراها ، و كذلك عن طريق اسماء الله و آياته في الكون يجب ان نعرف ربنا و نتيقن يقينا راسخا به ، و كما ان الشمس هي دليل الظل بإذن الله و ليس العكس ، كذلك الرب هو الدليل إلى ذاته بذاته ، و بآياته و اسمائه و ليس العكس.

]ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ]و ذلك بوقف دوران الأرض لتبقى في ليل دائم ، أو نهار مستمر.

]ثم جعلنا الشمس عليه دليلا [

تتماوج التعابير و الايحاءات القرآنية لتبث حزمة نور الى القلب و توصل الانسان الى غيب الحقائق ، فما نراه ظل للشمس ، و آية من آيات الله ، فلماذا عن طريق الظل نكتشف الشمس ولا نعرف

وجود الله ؟! و اين نحن من ذلك الإمام الذي قال : " ما رأيت شيئا الارأيت الله قبله و معه و بعده " ؟!

فالمؤمن يعيش محاطا بمعرفة الله ، لأنه أنى ينظر يجد آيات الله الواضحة ، مما يزيده ايمانا الى ايمانه ، فان رأى الجمال و الكمال قال سبحان الله ، و ان رأى العظمة و القدرة قال الله اكبر . و لعل الآية توحي الى التشابه بين شمس الطبيعة و شمس الوحي ، و أنالذي جعل الشمس دليل الظل أوحى بالرسالة لتكون هدى و نورا.

] [46]ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا[

و هنا تتجلى هيمنة الله ، و كيف أنه ينشر الظل ، ثم يقبضه بصورة سهلة و ميسرة ، دون نصب و تعب تعالى الله عن ذلك.

[47]بيـــن ساعة و أخرى يرتدي الكون ظلمة الليل ، و يتوقف كل شيء في مكانه ، فالنور المنبعث من السماء يخفت ، و زرافات الحيوانات المنطلقة من هنا و هناك تعود الى مهاجعها ، و اسراب الطيور تؤوب الى وكورها ، و يعود الانسان الى بيته يبحث عن ملجأ يأوي اليهو كأنه يخشى من شيء غريب . و بعد لحظات يرى الانسان الذي كان كتلة من النشاط ، قد تراخى على فراش نومه.

و لعل هذا التعبير يشير الى التغيير الذي يحصل في الانسان المؤمن ، فان الذي يهتدي بالقرآن كمن يعيش الصباح و النهار فكله معرفة و حركة و نشاط ، بينما يشبه الكافر و الضال من انغمس في سبات عميق ، في ظلمة ليل بهيم ، فكله سكون عن النشاط و خوف و جمود.

و بين هاتين الحالتين يجب على الانسان التحرك نحو النشاط عبر الوحي ، فالله في هـذه السورة يحدثنا عن القرآن و لكنه يختار ما يتناسب مع موضوعها من آيات الطبيعة.

]و هو الذي جعل لكم الليل لباسا[

حيث يشبه ربنا الليل و كأنه لباس يشمل ملايين البشر ، كما يغطي الطبيعة سهلها و جبلها ، برها و بحرها.

]و النوم سباتا[

السبات هو الانقطاع عن العمل و الحركة . فاذا توقفت الآلة عن العمل قيل لها سبتت ، و سمي يوم السبت كذلك لان الماضين كانوا ينقطعون عن العمل فيه ، و هكذا تنقطع اعضاء و جوارح الانسان عن النشاط و الحركة ليلا ، و لذا سمي النوم سباتا.

]و جعل النهار نشورا[

فهو عكس الليل لانه انبعاث و عمل.

] [48]و هو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ]ان الانسان ليفرح بالرياح و هي تقل له عرف الورود و الاوكسجين ، كما تحمل السحب المليئة بالمطر ، فهي مصدر بشارة و سرور له.

]و أنزلنا من السماء ماء طهورا[

لقد أثبت العلم ان افضل أنواع المياه هو ماء المطر ، لان ما ينزل من السماء بالاضافة الى كونه

ماء فانه يحمل الاوكسجين النقي ، فهو نظيف و منظف ، كما هو ان نزوله يزيل الأمراض.

] [49]لنحي به بلدة ميتا[

ان التعابير القرآنية هنا اشارات الى رسالة الله - كما يبدو - فالله الذي يطهر الأرض بالماء الذي ينزله من السماء يطهر القلب بالوحي.

]و نسقيه مما خلقنا أنعاما و أناسي كثيرا[

خلق الله الماء و أودعه الارض ليسقي به الانعام و الناس.

] [50]و لقد صرفناه بينهم ليذكروا[

فماذا صرف الله بينهم ؟

قال البعض ان هذه العبارة تدل على تصريف الله للسحاب ، ينزلها بإذنه علىالمناطق المختلفة من الارض ، و لولا ذلك لتجمعت في مكان واحد و انزلت كل حمولتها من المطـر على بلد واحد حيث تفيض المياه ، بينما تبقى سائر البلاد قاحلة لعدم وصوله لها.

و لكن القرآن يقول " : و لقد صرفناه بينهم ليذكروا " و كلمة صرفناه لا تدل على السحب بقدر ما تدل على الأمثال التي ضربها آنفا.

و المعنى انا صرفنا امثالنا و كلماتنا فبيناها للناس كافة ، و في البلاد المختلفة انزلنا كتابا من الله يحمل رسالته للبشرية عبر رسول منه.

]فأبى أكثر الناس إلا كفورا [

و هنا نرى نوع التشابه و التنسيق ، بين المطر الذي ينزل من السماء ، و عن طريق توزيع القنوات الطبيعية في الارض يجري ليسقي الانعام و الاناسي ، و بين الرسالة التي تهبط من السماء فتستقر في قلوب الناس.

**و جاهدهم به جهادا كبيرا**

**هدى من الآيات**

لم يخلق الله البشر عبثا ، و لم يتركهم سدى ، فلقد وفر لهم سبحانه جميع وسائل الهداية ، و عندما تكون الإكثرية هي الكافرة ، فان ذلك لا يدل على انعدام الفرصة امامهم ، بل لان الايمان تكامل عظيم قلما يرتفع اليه انسان . كما لا تدل قلة المصلحين الاجتماعييينأو المخترعين و العلماء على عدم أهمية العلم و الاختراع ، أو الاصلاح الاجتماعي ، و انما هي مراتب عالية لا يصل لها الا القليل.

و ان يرســل الله رسولا واحدا للعالم باكمله لا يدل على ضالة قيمة الرسالة عند الله حاشا ، بل العكس هو الصحيح فلعظمتها اكتفى بشخص واحد يبلغها البشرية كلها . و كما تكفي الشمس ان تكون مصباحا لكل الارض و الكواكب المحيطة بها ، فان رسول الله (ص) يكفي ان يكون بشيرا لكل العالمين.

و بالطبع لا يكون ذلك الا اذا تسلح بالقرآن و تحدى الكافرين دون طاعة لهم أو تنازل عن القيم ، فواحد يتسلح بالقرآن يمكنه الانتصار على الجاهلية العالميةبأكملها ، ويذكرنا الرب بقدرته لعلنا نخشى انذاره و نتبع النذير المبعوث من عنده . انظروا الى البحرين كيف أرسل الله المياه فيهما من عذب فرات و ملح اجاج و جعل بينهما حاجزا لكي لا يختلطا.

و من مظاهر قدرته خلق الانسان من الماء و تنظيم حياته عبر جعله نسبا يتصل بعضهم ببعض عبر الولادة ، و صهرا يتكاملون بالزواج.

كذلك ينبغي ان نخلص له العبادة و نسلم لمن ارسله ، بينما يعبد الكفار من دون الله أصناما و أناسا لا ينفعون من اطاعهم ، و لا يضرون من رفضهم ، و يتظاهرون ضد رسل الله و رسالاته.

و ليس الرسول وكيلا عنهم انما هو مبشر و نذير ، و هو لا يطالب بأجر لقاء اتعابه و انما يسعى لإسعاد الانسان عبر هدايته الى السبيل السوي.

ولا يعتمد الرسول على قوة بشرية فانية ، انما يتوكل على الحي الذي لا يموت ، و يستمد منه القوة حين يسبح بحمده ، و هو وحده الذي يحاسب عباده ، و كفى به خبيرا.

بهذه الصفات ينعت القرآن رسول الله ، و يزيل الشبهات التي القاها الشيطان في قلوب البسطاء ليكفروا بالوحي.

**بينات من الآيات**

**الجهاد الكبير**

] [51]ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا[

ان الله قادر على ان يبعث نذيرا في كل قرية ، و لكنه بالحكمة جعله واحدا لكلالبشر ، و ليس هذا دليل على عدم عظمة النذير ، و لا هو دليل ايضا على عدم أهمية الفئة القليلة الملتفة حوله من المؤمنين ، بل لعله يدل على العكس تماما .. و اذا كان القلب طاهرا و الأذن واعية يكفي نذير واحد للعالمين ، أما اذا كان في الآذان صمم و على القلوبرين فلا ينفع وجود المنذرين في كل قرية بل ولا في كل بيت.

[52]الكثير من المؤمنين يفقدون احساسهم بشخصيتهم ، و ثقتهم بذاتهم إذا وجدوا أنفسهم فئة قليلة ، فينهارون أمام ضغوط الكفار ، و هنا يحذر الله الرسول من هذه السلبية إذ يقول:

]فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا[

اي جاهد الكفار بسلاح القرآن جهادا لا هوادة فيه . و قد قال بعض المفسرين ان الجهاد الاكبر هنا هو جهاد الكلمة و الحجة ، و لكن السياق لا يدل على هذا التفسير ، لان التعبير في هذا المورد اشمل من ان يدل على جهاد الكلمة فحسب ، لان المؤمن حينما يرفض طاعة الكفار أو الاستسلام لأفكارهم و ضغوطهم ، فذلك يجره لخوض المعارك معهم مما يجعله يدخل الصراع بجهاد أكبر ، و من جميع الانواع و في مختلف الجبهات ، و لابد ان يعرف الكفار أن مخالفتهم للرسالة تعرضهم للخطر من موقعين ، من عند الله و من عند رسوله و المؤمنين .فلايحسبوا ان النعم التي خشوا زوالها بالايمان سوف تستمر لهم إن هم كفروا بالوحي ، كلا .. سوف يعلن الرسول جهادا كبيرا عليهم سواء بالكلمة الصاعقة أو بالسيف الصارم أو بوسائل ضاغطة أخرى.

و نتساءل ماذا تعني كلمة " به " هنا ؟ الجواب : ان القرآن ذاته نهج الجهاد الثقافي و السياسي و الاقتصادي و العسكري ، فالجهاد يتم بالقرآن شاملا متكاملا مستمرا.

[53]ولقد حذرنا الرب نفسه ، و ابلغنا واسع قدرته ، و ذكرنا بآياته في الخلق . افلا نخشاه ؟! دعنا نقرأ في كتاب الطبيعة اسماء ربنا العزيز المقتدر .. دعنا نخرق حجب الظاهر الى غيب الحقائق .. هذه المياه التي اقرب ما تكون الى الإمتزاج بها ، يجريها الرب فيمجاريها بحرين مختلفين هذا عذب فرات ، و هذا ملح أجاج ، و يجعل بينهما فاصلا يحجز هذا عن ذاك . أوليست تلك علامات القدرة و شواهد الحكمة ؟! فما اكثر من يتحدى ربا هذه آياته و تلك هي أسماؤه الحسنى.

]و هو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات و هذا ملح أجاج و جعل بينهما برزخا و حجرا محجورا ]العذب هو الماء الحلو ، و الفرات هو احلى المياه ، و الملح هو الماء المالح ، و الاجاج هو اشد المياه ملوحة ، و البرزخ هو السد الذي يمنع المائين من الاختلاط ببعضهما.

] [54]و هو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا و صهرا و كان ربك قديرا ]و كما جعل الله الاختلاف في المياه ، جعل ذلك في بني البشر ، فالناس كلهم من ماء واحد ، و ارض واحدة ، الا أنهم يختلفون بالنسب و الصهر عن بعضهم ، فالبعض ينتسب الى الآخرين عبر النسب كالاب و الاخ و الابن .. الخ ، و بعضهم ينتسب للآخرين عبر التصاهر بالزواج.

] [55]و يعبدون من دون الله مالا ينفعهم و لا يضرهم ]و تسأل : و هل عبادة الانسان للاصنام تضره أم لا ؟

بالطبع أنها تضره ، و لكن القرآن يقول : " و يعبدون من دون الله مالا ينفعهم و لا يضرهم " ذلك ان ما يضرالانسان عبادته للاصنام و ليس الاصنام ذاتها ،فالطغاة من الحكام ، و المترفون ، و المؤسسات الثقافية المضلة .. كل اولئك أصنام ، و الانسان هو الذي يلحق الضرر بنفسه عندما يخضع لهم ، و يؤيد الشيطان و الكفار.

ولولا خضوع البسطاء من الناس و استسلام اصحاب المصالح لما قامت للظلم قائمة . دعنا نقرأ معا حديثا حكيما في ذلك :

عن علي بن أبي حمزة قال : كان لي صديق من كتاب بني أمية فقال لي : استأذن لي على أبي عبد الله فاستأذنت له ، فلما دخل سلم و جلس ثم قال : جعلت فداك إني كنت في ديوان هؤلاء القوم ، فأصبت من دنياهم مالا كثيرا و أغمضت في مطالبه ، فقال أبو عبد الله (ع) : لولا أن بني أمية وجدوا من يكتب لهم ، و يجبي لهم الفيء ، و يقاتل عنهم ، و يشهد جماعتهم ، لما سلبونا حقنا ، و لو تركهم الناس و ما في أيديهم ما وجدوا شيئا إلا ما وقع في أيديهم ، فقال الفتى : جعلت فداك فهل لي من مخرج منه ؟ قال : إن قلت لك تفعل ؟ قال : أفعل، قال : أخرج من جميع ما كسبت في دواوينهم ، فمن عرفت منهم رددت عليه ماله ، و من لم تعرف تصدقت به ، و أنا أضمن لك على الله الجنة ، قال : فأطرق الفتى طويلا فقال : قد فعلت جعلت فداك . قال ابن أبي حمزة : فرجع الفتى معنا إلى الكوفة فما ترك شيئا على وجه الأرض إلا خرج منه حتى ثيابه التي كانت على بدنه ، قال : فقسمنا له قسمة ، و اشترينا له ثيابا ، و بعثنا له بنفقة (١. (

]و كان الكافر على ربه ظهيرا[

ان من يعبد الطاغوت بخضوعه يظاهره و يعاونه ضد الحق ، و الا فبمن استطاع الطغاة التسلط على رقاب الناس ؟!

(1)بح / ج ٧٥ - ص ٣٧٥

- 1اليس بالصحفيين المأجورين و امثالهم ، ممن يتسكعون على عتبات القصور من أجل فتات الخبز و فضالة الطعام ، ثم يلمعون اوجه الطغاة القبيحة بمقالاتهم السخيفة ؟!

- 2أوليس بالجنود المجندة من الشباب الذين يصرفون طاقاتهم في خدمة الطغاة ، بدلا من ان يكون كل واحد منهم قائدا في مجتمعه ؟!

- 3أوليس بالموظفين الذين أذلوا أنفسهم في دوائر السلطة كي يشبعوا بطونهم ؟!

- 4ثم الأهم من كل ذلك ؛ اليس بسكوت الناس عنهم ، و خنوعهم عن المواجة و الثورة ضدهم ؟!

اذن فالجريمة ليست من الطغاة وحدهم ، بل للشعوب المستسلمة نصيب وافر من المسؤولية

أيضا.

[56]الرسول ينذر و يبشر و الناس يتحملون مسؤوليتهم . و اذا ساد الظلام أمة من الناس ينتمون ظاهرا الى رسالة الهية فلا يعني أبدا أن في رسالات الله نقصا ..بل أنهم هم المسؤولون لأنهم تركوا العمل الجاد بها ، و تحمل مسؤولية الثورة ضد الطغاة.

]و ما أرسلناك إلا مبشرا و نذيرا[

اذا تسلط الطاغوت ، فان البعض يحاول ان يلقي باللوم و المسؤولية على كاهل الحركة الاسلامية العاملة ، ثم ينتظرها تخلصه من هذه الازمة كلا و هذا خطأ .

فكما ليس من الصحيح ان ينتظر الناس الرسول أن يجاهد الطاغوت وحده ،ليس من الصحيح ايضا ان تنتظر الامة الاسلامية اليوم ، الطليعة الرسالية أن تقوم بهذا الدور ، ذلك ان دور الرسل كما الحركات الرسالية هو قيادة النضال و توجيهه ، لا القتال نيابة عن الناس ، كما كان بنو إسرائيل ينتظرون من نبيهم موسى (ع) فلما جاءهم و حملهم مسؤولية الجهاد " قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا و من بعد ما جئتنا " (١. (

فاعضاء الحركة الاسلامية يبذلون أقصى الجهود ، من كتابة ، و توزيع ، و مؤتمرات ، لفضح الطواغيت بابراز اعمالهم الاجرامية ، متحملين في سبيل ذلك التبعات ، من السجن و التعذيب و الاعدام ، حتى هتك الاعراض و الحرمات ، و لكن لا يجوز للناس ان يتفرجوا و ينتظروا الانتصار.

لان مسؤولية الطليعة من حملة الرسالة هي مسؤولية الرسول نفسها ، اي تبليغ الرسالة للناس و قيادة المعركة و على الناس المقاومة و الثورة ضد الفساد و الانحراف.

] [57]قل ما أسئلكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا ]إن الرسل و من يمثلهم عبر التاريخ لا يطالبون الناس أجرا مقابل بما يقدمون لهم من خدمة البشارة و الانذار ، هذا فيما يخص الناس.

[58]أما فيما يخص الرسول و حملة الرسالة فان واجبهم السير في الطريق رغم الصعاب ، بالتوكل على الحي القيوم ، دون إلتفات لقلة الانصار حولهم ، أو مدى الطاعة و الرفض من قبل الناس.

]و توكل على الحي الذي لا يموت[

(1)الاعراف / ١٢٩

فاذا اعتمد البعض على قوة بشرية فان المؤمن يعتمد على الله الذي لا يموت وحده ، و لا يعتمد حتى على الانصار و الاصحاب ، فقد تزل قدم هؤلاء أو تعثر فييأس و يترك الجهاد.

]و سبح بحمده[

ان القيادة أو الطليعة الرسالية هم الاقلية في بدء الانطلاق ، و هم الغرباء عن واقعهم ، اذ يشعرون بالوحشة و هيبة الطريق ، كما يتحسسون الفراغ الاجتماعي ، و لكي يقاوموا هذه السلبيات فان عليهم التعويض عن كل ذلك بالارتباط المتين و العميق بالله سبحانه وتعالى ، لان ذلك يثلج صدورهم ، و يسكن روع قلوبهم ، فيعطيهم الثبات و الطمأنينة.

]و كفى به بذنوب عباده خبيرا[

يعني ان الله قادر على احصاء ذنوب الذين يتركون المؤمنين الحاملين للرسالة ، فلا تشغل الفئة المؤمنة نفسها باحصاء سلبيات و ذنوب الآخرين من المخالفين ، و لا تفكر في رفض الناس لها و لرسالتها ، وانما عليها المضي قدما على خطها ، تاركة ما يجري حولها الى الله ، فهو الذي يحصي ذنوب الناس و كفى به خبيرا بها.

**عباد الرحمن**

**هدى من الآيات**

في إطار التذكرة بالتوحيـد الذي هو قاعدة الايمان بالرسالة يبين الدرس بعض أسماء ربنا ، و بالذات إسمي " الرحمن " و " تبارك. "

و يتجلى اسم " الرحمن " في خلق السموات و الأرض و تدبيرهما بالرغم من نفور الكفار من هذا الاسم الكريم ، و رفضهم السجود للرب الذي أحاطت بهم رحمته ، وزعموا انهم لا يسجدون لمن يأمرهم الرسول ( استهزاء به و تحديا له. (

بينما يتجلى اسم " تبارك " في ذلك البناء المتين الذي تعالى فوقنا ، و السراج المنير الذي تعلق به كالقنديل ، و القمر المنير الذي زينه و فاض نوره الهادئ على الربايا و السهول.

وهكذا في توالي الليل و النهار ليكون فرصة لمن يريد ذكر الله ، أو أراد له شكورا.

ان اسماء الله تتجلى في افئدة الذاكرين الشاكرين ، فيكونون عباد الرحمن حقا . فتراهم يمشون على الأرض هونا لا أذلاء ولا متبخترين ، و يواجهون الجهل بالسلام ، و يبيتون الليل بالتبتل ، و يتطلعون لاتقاء نار جهنم اللاهبة البئيسة ، و اذا أنفقوا اقتصدوا ، فلم يبخلوا و لم يترفوا.

و يواصل الدرس التالي الحديث عن سائر صفات هؤلاء الصالحين.

**بينات من الآيات**

**فسأل به خبيرا**

[59]يحدثنا القرآن الكريم في هذه المجموعة من الآيات عن أمرين متقاربين:

الأول : الايمان بالله.

الثاني :كيف يتجلى الايمان في سلوك الانسان الصادق . لتوضيح هذا الأمر لابد أن نتذكر أن هناك فرقا بين الايمان بالله و بين معرفته - حقا - لأن هناك درجات في مسيرة التوحيد و هناك مفارقات ينبغي ان نعرفها و هي كما يلي:

- 1فقد يكون الايمان اجماليا ، كما لو عرف الانسان أن وراء الاكمة أشجارا ، أو ان وراء الجبل غابة ، و ربما يؤمن بذلك عن طريق العلم بكثافة الامطار وراء الاكمة ، أو وجود الحيوانات المختلفة الآتية من وراء الجبل ، أو عن طريق مخبر صادق يثق به.

و قد يكون الايمان عرفانيا ، و ذلك حينما يدخل الغابة أو يشرف عليها من قريب ، و يزداد هذا العرفان كلما أحاط بما في الغابة من جزئيات.

- 2الذين يؤمنون بالله عبر آية واحدة من آياته ، قد لا يندفعون إلى السلوكالمتكامل الذي يصوغ الايمان العرفاني به شخصية المؤمنين . عبر معرفتهم بآيات الله المختلفة التي يرونها.

- 3اذا أراد الانسان اكتشاف حقيقة ايمانه ، و هل وصل الى درجة العرفان ، أم لايزال ايمانه بسيطا يخرجه عن حدود الجحود و الكفر فقط ، فان عليه أن يبحث عن آثار الايمان الصادق ، فاذا كانت موجودة بصورة كاملة على سلوكه و تصرفاته كان و إلا فلا.

لذا نجد القرآن يربط بين من يؤمن بالله إيمانا كاملا - و الذي ينعكس في صورة توكل علـــى الحي الذي لا يموت - و بين سلوكيات عباد الرحمن كما تصفهم الآيات الكريمة.

- 4كلما عرف الانسان ربه بالتقرب إليه من خلال العبادة ، كلما عرف نفسه بصورة أكمل ، فهاتان معرفتان متقابلتان ، و سبب المقابلة إن الله هو خالق الانسان ، فايمانه بالإله الخالق يدعوه للايمان بالعبد المخلوق . مما يجعله عارفا بمدى عبوديته و ضعفه ، أو محدوديته و ضيق أفقه ، و بين الأمرين ( معرفة الله ، و معرفة النفس ) تتنامى نحو التكامل الشخصية الايمانية لدى الانسان المؤمن.

كذلك يبصرنا القرآن بآيات ربنا المبثوثة في الآفاق ذكرى من بعد ذكرى فيقول تعالى:

]الذي خلق السموات وما بينهما في ستة أيام[

حينما يقف الانسان على ربوة تل ، فيرمي ببصره نحو الأرض الممتدة من تحته ، أو السماء الواسعة من فوقه ، فانه ينبهر بكل ذلك ، و هنا و في لحظات الانبهار بالذات ، عليه ان يجعل الانبهار سبيلا الى الايمان بالله ، فكلما وجد عظمة و قدرةو جمالا و روعة تتجلى في الخلق ، كلما تعمق ايمانه بعظمة الخالق.

و لعل خلق الله السماوات و الأرض في ستة أيام ، دليل على أنه يطورهما باستمرار ، حتى وصلت الى ما هي عليه الآن ، و هذا لا يدل على عجز الله ، بل يشير الى استمرار الهيمنة الالهية عليهما ، فلم يتركهما بعد الخلق لشأنهما سدى.

]ثم استوى على العرش[

وعلى هذا فهناك علاقة سياقية بين كلمتي " في ستة ايام " و " ثم استوى على العرش " حيث تشير الآية الى ان الذي خلق السماوات و الأرض يشرف عليهما و يدبر أمرهما.

و " ثم استوى : " أي هيمن على العرش ، و هو رمز التدبير بعد التقدير و الإمضاء بعد القضاء.

]الرحمن[

تتكرر كلمة الرحمن في مواضع كثيرة من هذه السورة ، و لعل الحكمة في ذلك ان الرسالة الالهية هي أعظم منة من ربنا علينا ، و ان السبيل الى الايمان بها يمر عبر الايمان بأن الله هو الرحمن ، و ان آيات رحمته في الخلق تجعلنا نثق بل نوقن انه لن يترك عباده في بؤر الجهل و الضلالة . تتجاذبهم شهوات المترفين ، و نزوات المستكبرين.

إذا فلنؤمن برسالته التي يشكل ارسالها أكبر شاهد على رحمته.

]فسئل به خبيرا[

أي فاسأل بهذا الأمر ( خلق السماوات و الارض و على مراحل متتابعةو متكاملة ( خبيرا ينبؤك به ، وهو - كما نعرف - من خلال الآية ، الله و جبرائيل (ع (فتكون هذه الآية مختصة بالنبي محمد (ص. (

و لعل المراد من الخبير كل عالم من علماء الفلك و الفيزياء و الكيمياء و غيرهم ممن توصلوا الى الاكتشافات العلمية التي تعرفنا بآثار رحمة ربنا سبحانه ، و بالتالي يكون هذا استشهاد بالعلم ، حيث يأخذ بأعناق المثقفين و المفكرين للايمان بآيات الله و الاعترافبالرسالة.

**عندما يتصور البشر ربه**

[60]يتساءل الكفار : " و ما الرحمن " ؟ عندما يؤمرون بالسجود له ظنا منهم بأن الرسول يريد من وراء ذلك تعظيم نفسه ، و هذا سبب رفضهم الخضوع لله.

]و إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا و ما الرحمن أنسجد لما تأمرنا ]أي هل تريد التأمر علينا

بفرض السجود ؟

إن المجتمع الجاهلي القائم في علاقاته الاجتماعية على أسس فاسدة ، كالعنف و الاستغلال لا يمكنه أن يؤمن برحمانية الله ، و هو يحسب ان العلاقات القائمة في الكون تشبه العلاقات القائمة بين أبناء البشر ، فالمجتمع الجاهلي إذا تصور الله فانما يتصوره حسب مزاجه النفسي المستوحى من الخيال ، أو من الوضع الاجتماعي القائم.

فعندما أراد المجتمع اليوناني تصور الله بادر مفكروه يضعون آلهة من التماثيل الحجرية و اللوحات الفنية المتضاربة ، فلكل إله جيش و شعب ، و عنده حدود و اقليم ، و يستخدم شعبه و جيشه في محاربة الآلهات الأخر.

و هذا الخيال يعكس التضارب القائم في ذلك المجتمع الاغريقي القديم ، فلأن وضعهم مليء بالصراع ، و علاقاتهم مشحونة بالبغضاء ، تصوروا الله كذلك يشاركهم في المزاج و الشعور ( تعالى الله عما يصفون. (

و هكذا كان يصنع المجتمع العربي قبل الاسلام فكل حزب بما لديهم فرحون ، لذا جاء في الحديث المروي عن الامام الصادق (ع: (

"لو ان النملة تصورت ربها لتصورت له قرنين "فمادامت القضية لا تتجاوز التصور ، فان النملة تمتلك القدرة على تصور الرب ، و لكن من واقعها و شعورها.

و قد وقع بعض البسطاء من المسلمين في ذات الخطأ ، فقالوا :ان الله شخص عنده لحية بيضاء طويلة ، و يركب الحمار لينزل الى الارض في ليالي الجمع ، فكان بعضهم يضـــع حزمـــة علف علـى سطح بيته في كل ليلة جمعة ، حتى يأكل ما فيها حمار الله . ( سبحانه و تعالى عن الامثال. (

و سبب هذه التخيلات خضوع الانسان لخياله المحدود عند تصور الله ، فيتصوره تارة من واقعه و طبيعته كانسان فيحسبه كذلك ، أو من واقع المجتمع و طبيعته تارة أخرى ، فينعكس الوضع الاجتماعي على تصوره لله ايضا ، فلأن علاقة المجتمع الجاهلي بالتجمع الايمانـي مادية فهي صلفة ، فانهم لم يكن بمقدورهم تصور الرحمة صفة من صفات الله ، فـلا عجب ان يرفضوا أمر الرسول لهم بالسجود للرحمن . فقالوا : " و ما الرحمن " ؟

فهذا اسم جديد على واقعهم ليس بعيدا أن يستغربوا منه ، فواقعهم مشبع بالخوف والارهاب وما الى ذلك من الصفات المشينة.

]و زادهم نفورا[

لم يكن أمر الرسول لهم بالسجود لله الا لجمع شتاتهم . كي تشرق عليهم شمس الرحمة ، و تلفهم غمامة اللطف الالهي ، و لكنهم لعمق الاحساس بالارهاب و الخوف و ما أشبه من الصفات الرذيلة نفروا حتى من هذه الكلمة كما تنفر الابل المذعورة.

و يعبر هذا النفور عن مدى الجهل الغارقين فيه ، و الذي لا يزال جاهليي العصر يغرقون فيه أيضا ، و لا فرق بين الجاهليتين الا أن احداهما حديثة و الاخرى قديمة.

فلو نهض رسالي يدعو الشرق الملحد ، و الغرب المشرك للسجود للرحمن ، و اشاعة السلام و العدل في ارجاء المعمورة لردوا " و ما الرحمن " ؟ أيضا ، و ما ظلمهم الله و لكن أنفسهم يظلمون .

**من آيات الكون**

] [61]تبارك الذي جعل في السماء بروجا و جعل فيها سراجا و قمرا منيرا[

ربما تشبه كلمة البركة كلمة التكامل في منطقنا الحديث ، فالمبارك يعني واسع الخير و ثابته ، أو المتكامل الذي ينمو - و تعالى الله عن النمو لانه " - الكامل الذي لا كمال بعـــده . اذ ليس لصفته حد محدود ، و لا نعت موجود ، و لا أمد ممدود " كما قال الامام علي (ع. (

فما معنى : " تبارك الذي جعل في السماء بروجا " ؟

ان الذي اعطى البركة للسماء هو الذي يعطي البركة للانسان ، و البروج هي المواقع الظاهرة و المرتفعة في نفس الوقت ، و عادة ما يكون برج المدينة رمزها ،و الشمس و القمر و سائر الكواكب و النجوم بروج للسماء ، و الذي جعل الشمس و القمر و البروج هو صاحب البركة ، فالاولى أن نتوجه اليه دون غيره لانه الرحمن ، فلماذا لا نعرف هذه الصفة الحميدة من صفات ربنا ؟

] [62]و هو الذي جعل الليل و النهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ]لقد جعل الله كلا من الليل و النهار يخلف أحدهما الآخر ، فلو دام الليل لانعدم المعاش ، و لو دام النهار لانعدمت الراحة.

و لكن متى يتذكر الانسان ؟ في الليل.

و متى يحصل على النعم فيشكر الله ؟ في النهار.

و كم هو جميل السياق اذ يقول :جعلنا الليل لمن أراد أن يذكر!

فحينمـا تهدأ الاصوات ، و تسكن الاحياء ، فيعم الصمت حيث الناس كل آوى الى فراش نومـه ، فينبعث ضمير المؤمن حيا ليناجي ربه " أن ناشئة الليل هي أشد وطئا و اقوم قيلا. "

اما في النهار حيث ينهض الانسان من نومه طلبا للرزق و المعاش ، لا لكي يطغى و انما ليشكر ربه ، و يصل بوظائف النعم التي وفرها له ، نجد انعكاس المعرفة الايمانية على سلوك عباد الرحمن الذين يصوغون به شخصيتهم من خلال الايمان العرفاني.

**عباد الرحمن**

[63]ان العباد الرحمن الذين تتجلى اسماء الله وفي طليعتها ( الرحمن ) على

افئدتهم وسلوكهم صفات حسان كثيرة أبرزها:

١- **التواضع**

]و عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا[

فعلاقتهم من الطبيعة و الناس علاقة الرحمة ، لانهم عباد الرحمن - ولا غرابة - فقد انعكس اسم الرحمن الالهي على شخصيتهم فصيغت بقالب هذا الاسلام المقدس ، و هذا ما يدعوهم للسير هونا على الارض ، مشية متواضعة لا كمشية المتكبرين على العباد و المفسديـن في الارض ، ولا كمشية الأذلاء و الدونية ، لذلك جاء في الحديث في تفسير الآيــة:

"يمشي بسجيته التي جبل عليها لا يتكلف ولا يتبختر " (١)فعباد الرحمن يحبون حتى الارض التي يضعون اقدامهم عليها ، و كما يقول المعري:

خفف الوطئ فما أظن اديم الارض الا من هذه الاجسادولما يتعاملون به من خفة مع الارض ، لا يسحقون حتى النمل ، و لا يقتلون حتى النبتة الصغيرة ، و لا ينفرون الحيوان ، بل

يمشون عارفين بمواقع اقدامهم.

هذا بالنسبة للأرض ، أما بالنسبة للمجتمع فان علاقتهم علاقة رفق مع الآخرين ، و خلفية كل ذلك أنهم يتكيفون مع السنن و القوانين الالهية الثابتة ، في علاقاتهم مع الطبيعة و المجتمع ، مقتنعين بوجود سبل و اساليب ينبغي العمل وفقها ،(١) المصدر / ص ٢٦

و السير في اطارها للاستفادة من الامكانيات الهائلة المودعة من قبل الله في الطبيعة ، و ينعكس ذلك أيضا على مواقفهم الاجتماعية و السياسية ، فلأنها نابعة من فطرتهم النقية التي ترفض التكلف و التبختر فانها مشية معتدلة . لا تظاهر فيها ولا صخب . جاء في الحديثالمأثور عن الامام الباقر عليه السلام:

"الأئمة عليهم السلام يمشون على الأرض هونا خوفا من عدوهم " (١)وهذا خلاف ما يفعله الآخرون ممن لا تشملهم الآية الكريمة " و عباد الرحمن " فانا نجد علاقتهم مع الطبيعة و المجتمع علاقة قائمة على أسس فاسدة من الخشونة و العنف ، و استغلال الناس ، و توجههم منصرف الى التمرد على الأنظمة و القوانين الطبيعية ، مما نرى آثار ذلك في افساد العلاقات الاجتماعية ، و انتشار التوتر و الحروب بين الدول المختلفة.

**- 2الرفق**

]وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما[

لأن علاقتهم علاقة السلام و الأمن فانهم يجيبون الجاهليين - ممن يخاطبونهم بالجهل - بقولهم : سلاما ، و قيل : ان المقصود بالسلام سلام الوداع ، اي انهم ينصرفون عن الجاهل بعد السلام عليه ، عندما يحتكون به دون مبادلته جهلا بجهل.

ولكن الأقرب الى قوله تعالى " قالوا سلاما " انهم يبدأون كلامهم و علاقاتهم مع الناس عن طريق السلام ، وهو ابداء حالة من الأمن و العلاقة الايجابية مع الطرف الآخر.

(1)المصدر

٢- **قيام الليل**

] [64]والذين يبيتون لربهم سجدا و قياما[

قليل هم الذين يحيون ليلهم بالعبادة ، مكثرين من الصلاة و الدعاء تضرعا لله و خوفا منه . و الناس في نوم عميق ، و الكثير من الناس من يطمح في الوصول الى مستوى عباد الرحمن ، ولكن لا يستطيع فلماذا ؟

لان هذا القسم من الناس يريدون اجبار أنفسهم على الفضائل وهي لا تأتي بالإكراه ، و إنما بصياغة الشخصية ، فاذا لم تنعكس آيات الرحمن على سلوك الانسان ، فلا ينمي نفسه بالسجود له ليلا لانه سيرى نفسه عاجزا أمام هجوم النوم ، أما عندما تتجلى آيات الرحمن أمام ناظريه ، و تنعكس على سلوكه فتصوغ شخصيته ، آنئذ لا يستطيع النوم ليلا بل تتجافى جنوبهم عن المضاجع.

ففي وقت متأخر من احدى ليالي صيف مضى ، كنت نائما على سطح المنزل مستلقيا على فراشي ولما يستول علي النوم بعد.

وكان صاحبي على مقربة مني و عيناه تحملقان في آفاق السماء ، وكأنه ادرك عن طريق النجوم قرب الفجر فرأيته - كمن لدغته حية - يقفز من فراشه قفزا ، و يتوضأ بسرعة ليقف يصلي ، وهكذا هم عباد الرحمن.

فالاصل في كل فضيلة معرفة الله و اصلاح النفس ، فمن لا يعرف الله ، ومن ثم لا يصلح نفسه لا يحصل من الفضائل الآخرى على شيء ، اذ ليست المسألة مسألة تكلف بقدر ما هي سجية لقلب الانسان.

**- 4 التقوى من النار**

] [65]و الذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم[

ان شهيق جهنم و زفيرها لا يعزب عن بالهم طرفة عين أبدا ، بل تتجسد صور النار أمام أعينهم في كل لحظة ، فيقول أحدهم : الهي اصرف عني عذاب جهنم ، و كأنه يرى نفسه ينصلي فيه ، او لا يقول تعالى : " و ان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا و نذر الظالمين فيها جثيا. "

فكل انسان سيمر من فوق الصراط على جهنم ، و العاقل من فتش عن سبيل للنجاة.

]إن عذابها كان غراما[

اي ان عذاب جهنم يلزم الانسان الذي يدخله ، و انه لخسارة كبرى ، فليس الخسران الحقيقي خسران الدنيا بما فيها من لذات ، و انما الخسارة ان يخسر الانسان رحمة الله في يوم القيامة حيث المطاف الأخير.

] [66]إنها ساءت مستقرا و مقاما[

فهي ليست مستقرا مرغوبا كي يقيم فيه الانسان ، و ليست مكانا طيبا يصلح ان يستمر فيه.

**- 5الاقتصاد في المعيشة**

] [67]و الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا و كان بين ذلك قواما[

الكثير من الناس من ينفق المال ، و القليل من يحصل على الثواب ، و الاقل من ينفقه كما يريد له الله ، و هم عباد الرحمن حقا ، فانفاقهم ليس بدافع الترف و الشهوة ، أو الرياء و السمعة ، و انما بدافع الايمان و العقل و الارادة ، فلم يسرفوا و لم يقتروا و كانبين ذلك قواما .

فبين هذا و ذاك ينفقون و باعتدال ما يقيمون به حياتهم و حياة الآخرين.

و هكذا يروي العياشي يقول : استأذنت الرضا (ع) النفقة على العيال ؟ فقال " : بين المكروهين . قال فقلت : جعلت فداك لا و الله ما اعرف المكروهين ، فقال :بلى - يرحمك الله - أما تعرف ان الله تعالى كره الاسراف و كره الاقتار فقال : " و الذين اذاانفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا و كان بين ذلك قواما(1) . " و ضرب الامام الصادق عليه السلام مثلا لذلك فأخذ قبضة من حصى و قبضه بيده فقال : هذا الاقتار - الذي ذكره الله عز و جل في كتابه - ثم قبض قبضة أخرى فأرخى كفه كلها ثم قال : هذا الاسراف ثم أخذ قبضة أخرى فأرخى بعضها و امسك بعضها و قال : هذا القوام.

و تربط رواية ثالثة بين الانفاق و مستوى المعيشة في المجتمع ، بينما نجد رواية رابعة : تجعل الانفاق في سبيل قوام البدن و فيما يصح البدن اسرافا - مهما كان - و تأمر نصوص أخرى بضرورة التوسعة على العيال ، و نفهم من مجموع النصوص ان الاقتصاد في المعيشة يرتبط بمجموعة عوامل يحددها الشرع و العقل و العرف.

(1)المصدر / ص ٢٨

## عباد الرحمن بين السلوك و التطلعات

### هدى من الآيات

في الغالب تلخص الآيات الأخيرة من السورة أفكارها ، لتزيدها ايضاحا و تبيانا ، و لتزرع في نفس القارئ ، خلاصة مركزة عما مر الحديث عنه.

وفي نهاية سورة الفرقان التي خصصت لبيان الرسالة و الوحي ، و الايمان بهما ، يوجز لنا الله عدة موضوعات هامة ذكرنا بها خلال السورة.

أولا : ليس الايمان بالرسالة كلمة تقال ، انما هو وقر عظيم و موقف حاسم يشعر كل فرد من افراد المجتمع بوطئه و خطورته.

ثانيا :ان المجتمع الذي تصنعه الرسالة بعيد عن السلطة ، فلا يتسلط فيه أحد على الآخر ، اذ لا خضوع لغير ولاية الله فيه ، اما الخضوع لولي أمر الله كالرسول أو الامام أو الفقيه العادل العارف فحقيقته خضوع و تسليم لله سبحانه . اذ لا يقدس المجتمع اشخاصهم ،و انما يقدس و يخضع للقيم التي يجسدونها.

ثالثا : ان هذا المجتمع تحكمه روح الاحترام المتبادل في العلاقة بين ابنائه ، فلا يقتلون النفس و لا يزنون .

و هناك علاقة بين قتل النفس من جهة ، و الزنا من جهة أخرى ، فكلاهما يعتبر نوعا من الاعتداء على كرامة الانسان ، و بالتالي فكلاهما قتل للنفس كما سنوضح ذلك في البينات .

وان الذين يفضلون سيادة سلطة غير الهية عليهم ، فلا يحترمون النفس البشرية ، و يفعلون الفاحشة سيلقون العذاب في الدنيا و الآخرة ، الى ان يتوبوا الى الله ربهم.

رابعا : في المجتمع الرحماني لا يظلم احد احدا ابدا.

و حتى لا يظلم الانسان غيره ، فان عليه الامتناع عن شهادة الزور ، و كثير من الذين يجدون جوا مناسبا للظلم تدفعهم شهواتهم و مصالحهم لارتكاب الجريمة ، و الاعتداء على حقوق الآخرين ، أما في المجمع الاسلامي فان الجو العام ، و القانون الالهي الحاكم لا يشجععلى الظلم أو البغي ، فلو فتش ظالم عمن يشهد في صالحه فسوف لن يبلغ مناه.

خامسا : الجدية من أهم مميزات المجتمع الايماني.

فهو بعيد عن اللغو ، الذي يكون عاملا من عوامل الانحرافات الاجتماعية الفكرية و غيرها ، كما اللامبالاة التي تعني العبثية و اللاهدف ، فيجب ان يكون المجتمع جديا في البحث عن اهدافه ، بعيدا عن اللغو واللامبالاة اللذان يجعلانه بعيدا عن الرحمانية ، قريبا من الجريمة و الانحراف.

وهذا المجتمع هو الذاكر الذي يتكامل بذكره لله ، إذ يجعل ذكره لخالقه معراجا لسموه المعنوي و المادي ايضا ، و بتعبير آخر هو الذي يجعله يعرج الى مستوى التحضرو التقدم ، فيصنع بذلك حضارة الايمان ، كما صنعها نبي الله سليمان منذ قبل.

سادسا : ان صفة التطلع من أبرز سمات المجتمع الاسلامي ، الذي يصفه القرآن في هذه السورة ، فبالرغم من اعتماد ابنائه على العناصر الفاضلة من الاسرة في تربيتهم ، الا أنهم لا ينسون تطلعاتهم الاجتماعية . اذ يطمحون لإمامة المتقين ، و تنتهي السورة بذكر الدعاء

الذي هو رد التحية من البشر لرسالة الرب سبحانه.

يعني امامة افضل طبقة و فئة في المجتمع ، فقد يطمح الانسان ان يكون اماما و فقط ، اما عباد الرحمن فطموحهم قيادة الطليعة في المجتمع ، و هذا يدل على التطلع الواسع في البعد المستقبلي و الحاضر لأبناء المجتمع الإسلامي الرحماني.

فمن جهة يسعون لصياغة شخصية ابنائهم وفق المفاهيم الصادقة ، ليمتدوا عبر أولادهم كما أزواجهم عموديا في عمق الزمن.

ومن جهة أخرى فأنهم يسعون و جادين ايضا ليصبحوا قدوة لمن حولهم من الناس ، ليمتـــدوا أفقيا عبر ابناء المجتمع ، الذي يعيشون فيه و في اوسع رقعة من المكان.

و هؤلاء بتطلعاتهم و سلوكهم هم الذين سيبنون حياة فاضلة في الدنيا ، و يجزون جزاء حسنا في الآخرة ، اذ يأمر الله الملائكة و الطبيعة ان يكونا مسلمين لهم ، و عندما تكون الملائكة و الطبيعة معا مسلمين لانسان ما ، فحينئذ لا يخشى هذا الانسان من شيء ، لانه يشعر و كأن رب الطبيعة و الملائكة و خالقها من جهة ، و ذات الطبيعة و الملائكة الموكلة بها من جهة أخرى ، يحبونه و يعينونه.

ذلك لان عباد الرحمن كانوا مسالمين مع أنفسهم ، و قد علموا ان دورهم بناء انسان رسالي فاضل انطلاقا من ذواتهم ، و أمة رسالية فاضلة انطلاقا من اسرتهم ،و حضارة اسلامية متقدمة انطلاقا من مجتمعهم ، و كل ذلك في اطار السنن و القوانين الرسالية الصحيحة.

و على العكس في كل ذلك من يرتكبون الجرائم و يقترفون الآثام ، فيضلوا أنفسهم و أسرهم و مجتمعهم ، ولا يصلون الى اهدافهم التي يطمحون اليها ، فتكون المعادلة عكسية انسان منحرف ، أمة متخلفة ، نهاية حضارة أو مدنية - كما وصل الى هذه النتيجة السابقون من الاقوام - قال تعالى:

"الم تر كيف فعل ربك بعاد * ارم ذات العماد *التي لم يخلق مثلها في البلاد * و ثمود الذين جابوا الصخر بالواد * و فرعون ذي الأوتاد * الذين طغوا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * ان ربك لبالمرصاد " (١. (

سابعا : في نهاية هذه السورة لفتة غريبة.

فســورة الفرقان التي بدأت بذكر القرآن معبرة عنه بالفرقان ، أي الميزان بين الحق و الباطـــل ، نجدها تنتهي بذكر الدعاء في قوله تعالى : " قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم " . فما هي العلاقة بين القرآن و الدعاء ؟

ربما يفسر هذه العلاقة حديث شريف يقول:

"اذا أردت ان يحدثك الله فاقرأ القرآن ، و اذا أردت ان تحدث الله فاقرأ الدعاء "فقبل ان ينتظر الانسان رسالة تنزل من الله عليه ، يجب ان يبعث رسالة الى الله(١) الفجر / ٦ -١٤

عبر الدعاء ، فان الله يحب رسالة الانسان ، و يستمع اليها ، فهو الذي قال : " أمن يجيب المضطر اذا دعاه و يكشف السوء " و هو الذي قال : " و إذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي اذا دعان " و هو الذي يقول : " لبيك عبدي " اذا دعاه داع .

**بينات من الآيات**
**الوجه الآخر للقتل**

] [68]و الذين لا يدعون مع الله إلها ءاخر[

اي لا يخضون لسلطة مادية أخرى ، انما لله وحده ، فهو صاحب السلطة المطلقة في منطقهم لا غير.

]و لا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق و لا يزنون ]يعني لا يقتلون النفس المحترمة ، ولا يرتكبون فاحشة الزنى ، و لكن السؤال لماذا جاء ذكر الزنى بعد قتل النفس ؟!

الجواب أن قتل النفس نوعان:

- 1القتل عبر ازهاق الروح.

- 2القتل عبر سلب الروح الانسانية بسوء التربية و التوجيه ، و ايضا بطمس العقل و الارادة في نفس الانسان ، فاذا سلب الانسان عواطفه الحسنة و شخصيته الايمانية فان ذلك اشد عليه مما لو قتل بزهق روحه أو إهدار دمه.

و لقد جاء في تفسير الآية الكريمة : " من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه منقتل نفسا بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعا و من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا " . ان من قتلها باضلالها فكأنما قتل الناس جميعا ، و من أحياها بهدايتها فكأنما أحيا الناس جميعا.

والذي يزني فيتسبب في مجيء ابناء زنى يتربون في الشوارع كأنما قتلهم ، لانهم لن يجدوا اسرة تحتضنهم لتربيتهم ، مما قد يحولهم الى وحوش كاسرة على المجتمع ، اذ تموت الصفاة الخيرة و المواهب الفاضلة فيهم ، و تنمو مقابلها كل صفات الشر ، و هذا هو القتل المعنوي.

وعندما يسأل رجل الامام الرضا (ع) أيهما أشد يابن رسول الله ، القتل أم الزنا ؟ يجيبه الامام " الزنا اشد من القتل. "

فيسأل الرجل يابن رسول الله ولم ذلك ؟

فيجيب (ع) : ان من يولد بالزنا سيكون له أولاد آخرون.

و ربما يكون هؤلاء جيل من المنحرفين ، بينما اذا أزهق الرجل روح آخر يكون بذلك قد أزهق روح شخص واحد أما الاول فقد قتل اجيالا.

]و من يفعل ذلك يلق اثاما[

من الطبيعي ان يلقى جزاء عمله ، و جاء في الحديث:

"ان اثام واد من اودية جهنم من صفر مذاب ، قدامها حــرة ( اي ارض ذات احجار سـود ) في جهنم يكون فيه من عبد غير الله تعالى ، و من قتل النفس التي حرم الله ، و يكون فيه الزناة ، و يضاعف لهم فيه العذاب " (١. (

(1)نور الثقلين / ج ٤ -ص ٣١

] [69]يضاعف له العذاب يوم القيامة و يخلد فيه مهانا ]فكل عمل يلحقه جزاء بقدره و عذاب بامتداده ، فلو كذب رجل على آخر سأل عن طريق فارشده الى غيره تعمدا ، فانه سيجازى

اولا على الكذب ، و ثانيا على العذاب و النصب العملي الذي سيواجه المكذوب عليه ، و يكون الكاذب مسؤولا لو اصاب هذا الانسان شيء في طريقه.

و لعل هذا هو معنى مضاعفة العذاب.

## التوبة قرار و عمل

] [70]إلا من تاب و ءامن و عمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات و كان الله غفورا رحيما[

ان رحمة الله واسعة جدا ، فمهما فعل الانسان من ذنوب كالزنا و القتل ، الا أنه سيجد باب الرحمة مفتوحا على مصراعيه للتائبين و المستغفرين - و ليس هذا فحسب - بل الاعظم من ذلك ان الله يحول سيئات التائبين الى حسنات يثابون عليها ، و لعل سبب تحول السيئات الى حسنات ان التائب سيجعل تذكره لها ، و ندمه على فعلها منطلقا للتصحيح ، و المسارعة الى معرفة اكبر ، و ايمان اعمق ، و كلما تذكر سيئة شعر بمسؤولية محوها ، و إبدالها بعمل صالح ، و الشقي الشقي من حرم غفران الله باصراره على الذنـوب دون التوبة . إن ذنوب العباد مهما كبرت و كثرت لأصغر و أقل من رحمة الله . جاء في حديث مروي عن الامام الباقر عليه السلام في تفسير الآية:

"يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتى يوقف بموقف الحساب فيكون الله تعالى هو الذي يتولى حسابه لا يطلع على حسابه أحد من الناس فيعرفه بذنوبه ، حتى اذا اقر بسيئاته قال الله عز و جل للكتبة : بدلوها حسنات و اظهروها للناس ،فيقـــول النـــاس حينئذ : ما كان لهذا العبد سيئة واحدة ، ثم يأمر الله به الى الجنة " الخبر (١)حقا ان الأمل في رحمة الله ، يجعل المؤمن يزداد لربه حبا . فيبتعد عن معاصيه . لذلك استفاضت آيات القرآن و نصوص السنة تؤكد رضوان الله ، و الحديث التالي يعكس مدى تعطف الرب لعباده ، كما يبين كيف تساهم معرفة هذه الحقيقة في اصلاح البشر ، يروى عن الامام الرضا عليه السلام : " قيل لرسول الله - صلى الله عليه و آله و سلم - هلك فلان ، يعمل من الذنوب كيت و كيت فقال رسول الله (ص) بل قد نجى ، و لا يختم الله عمله الا بالحسنى ، و سيمحو الله عنه السيئات و يبدلها حسنات ، انه كان مرة يمر في طريق عرض له مؤمن قدانكشفت عورته و هو لا يشعر فسترها عليه و لم يخبره بها مخافة ان يخجل ، ثم ان ذلك المؤمن عرفه في مهواه ، فقال له : اجزل الله لك الثواب و اكرم لك الماب ، و لا ناقشك الحساب ، فاستجاب الله له فيه ، فهذا العبد لا يختم له الا بخير بدعاء ذلك المؤمن ، فاتصل قول رسول الله بهذا الرجل ، فتاب و اناب ، و أقبل على طاعة الله عز و جل ، فلم يأت عليه سبعة ايام حتى أغير على سرح الدينة ، فوجه رسول الله في اثرهم جماعة - ذلك الرجل أحدهم - فاستشهد فيهم " (٢)[٧١] [ و من تاب و عمل صالحا فإنه يتوب الى الله متابا ]يعني ان الذي يتوب و يعمل صالحا ، فانما يتوب الى الله الرحيم.

## صفات عباد الرحمن

### - 1لا يشهدون الزور

] [72]و الذين لا يشهدون الزور[

(1)راجع المصدر / ص 34

(2)المصدر / ص ٣٥

- 1ان عباد الرحمن لا يشهدون بالباطل زورا ، و من جانب آخر لا يطلقون الكلمة الا في وقتها و محلها المناسب ، شعورا منهم بان الكلام هو من عمل الانسان ، كما قال الرسول (ص) لاعرابي سأله و هل يحاسبنا الله على ما نقول ؟؟

قال (ص: (

"و هل يكب الناس على مناخرهم في النار الا حصائد ألسنتهم "و في حديث آخر عن الامام الصادق (ع) قال:

"لو علم الناس ان كلامهم من عملهم لقللوا الكلام "و في بعض الروايات " ان الزور هنا الغنى " (١) و جاء في حديث آخر : " انه مجالس الفساق ولا يحضرون الباطل " و روى الأمامان الباقر والصادق عليهما السلام ، عن عيسى بن مريم عليه السلام " اياكم و مجالس الخطائين " (٢) و جاء فيحديث رابع " ان هؤلاء اذا ذكروا الفرج كنوا عنه لعفة ألسنتهم. "

هكذا تتسع دلالة الآية لتشمل كل باطل ، فهم لا يشهدون لأنهم تدبروا في الحياة فعرفوا ان هناك هدفا مقدسا لها ، فسعوا اليه ، فعزفت أنفسهم عن الباطل.

]و إذا مروا باللغو مروا كراما[

**- 2يمرون باللغو كراما**

فلا يتشدقون بالكلام الخاطئ أو غير الهادف ، و كذلك لا يشاركون في اجتماعات اللهو و اللعب ، و الضرب و الرقص لان وقتهم اثمن من ذلك ، و لعلمهم(١ (الحديث المروي عن الامام الصادق عليه السلام المصدر / ٤١(٢) المصدر

ان الحياة فرصة لا تتكرر ، فلابد من استغلالها ، بسنينها و أيامها و ساعاتها و دقائقها ، كل ذلك اتقاء ليوم الندامة على التفريط في فرصة العمر.

وهم يمرون كراما على اللغو لانهم يشعرون انهم أكرم من اللغو ، فكرامتهم و شرفهم يدعوهم لتجنب مجالس اللهو.

**- 3البصيرة و الوعي**

] [73]و الذين إذا ذكروا بايات ربهم لم يخروا عليها صما و عميانا[

البصيرة من الصفات البارزة لعباد الرحمن . اذ يتفكرون في آيات الله التي تتلى عليهم بحثا عن الحقيقة ، و طمعا في البصيرة ، متأملين في شؤون الحياة على ضوئها ، عاكفين على استنباط الانظمة و التشريعات الاجتماعية و الاقتصادية ، و السياسية ، و التربوية و غيرها منها ، علما منهم بأن من أنزل الآيات هو الذي خلق الحياة ، و سن فيها القوانين و الانظمة.

يبدو ان ترك اللغو يوفر لهم فراغا كبيرا . يملأونه بالنشاط الفكري الرشيد . جاء في دعاء مكارم الأخلاق:

"اللهـــم اجعل ما يلقي الشيطان في روعي من التمني و التظني و الحسد ، ذكرا لعظمتك ، و تفكرا في قدرتك ، و تدبيرا على عدوك ، و ما جرى على لساني من نقطة فحش أو هجر ، أو شتم عرض ، أو شهادة باطل ، أو اغتياب مؤمن غائب ، أو سب حاضر ، و ما اشبه ذلك نطقا بالحمد لله ، و اغراقا في الثناء عليك ، و ذهابا في تمجيدك ، و شكر لنعمتك ، و اعترافا باحسانك و احصاء لمننك. "

و روى ابو بصير عن الامام الصادق عليه السلام : في تفسير الآية هذه قال:

"مستبصرين ليسوا بشكاك "

و لكن اين المسلمون الآن من هؤلاء ؟!

فلو تطلعنا الى واقع الامة الاسلامية لرأينا اكثر المسلمين ممن يخرون على آيات الله صما و عميانا ، يرتلونها مبدعين ، و لكنهم لا يفقهون معانيها و لا يدركون مدلولاتها ، بل لا يتدبرون فيها ليطبقوها على سلوكهم ، و من ثم على مجتمعهم.

**- 4الطموح الكبير**

[74] [و الذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا و ذرياتنا قرة أعين و اجعلنا للمتقين إماما]

ان العلاقة بين طلب الازواج و الذرية الصالحة ، و بين طلب الامامة و القيادة لدى عباد الرحمن ، تتجلى في طموحهم نحو امتداد رسالتهم في ذريتهم و ايضا فيمن يلتقون بهم من الناس ، فيصبحون قدوة للمتقين ، و المتقون - بدورهم - طليعة المجتمع ، فهم يطمحون ان يكونوا قدوة الطليعة و ليس الطليعة فحسب.

و تدل الآية الكريمة على ما يحملون من روحية التنافس على الخير ، ففي المجتمع الرحماني يتطلع الكل لأن يصبح افضل في مجال الخير و العمل.

و جاء في احاديث ائمة آل البيت عليهم السلام ان الكلام اياهم عنى ، و هم تأويلها . و جاء في حديث شريف : عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

"و الله ما سألت ربي ولدا نضير الوجه ، و لا سألته ولدا حسن القامة ، و لكن سألت ربي ولدا مطيعين لله خائفين وجلين منه ، حتى اذا نظرت اليه وهو مطيعلله قرت به عيني قال : " و اجعلني للمتقين اماما " قال :نقتدي بمن قبلنا من المتقين فيقتدي المتقون بنا من بعدنا " . (١)[٧٥ ] [أولئك يجزون الغرفة بما صبروا و يلقون فيها تحية و سلاما ]حيث يستقبلهم الله بغرفات مبنية من الذهب و الفضة ، و من الياقوت و الدر ، و يلقون فيها تحية و سلاما من الله و ملائكته.

و توحي هذه الآية الى فكرة هامة و هي ، ان تحقيق الطموح و بلوغ الاهداف يحتاج الى كثير من الصبر ، فالطموح الاجوف و التطلع الميت لا يجدي نفعا ، و الانسان لا يجزى على تطلعه بمقدار ما يجزى على سعيه في تحقيق ذلك التطلع و ما نستوحيه من الآية ان الجزاء يكون على الصبر في سبيل الاهداف السامية.

[76] [خالدين فيها حسنت مستقرا و مقاما]

**- 5الدعاء معراج المؤمن**

[77] [قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم]

الدعاء هو جسر الارتباط مع الله ، و مما يميز عباد الرحمن دعاؤهم ، فهم بجانب العمل و السعي يهتمون بالدعاء ، ايمانا منهم بأن توفيق الله أفضل من عملهم ، بل هو روح العمل التي توصله الى ابواب الجنة.

اذ لا فائدة من عمل لا خشوع لله فيه ، و من طلب الحساب على عمله دون فضل الله خسر ، و الرسول الاعظم (ص) لا يدخل الجنة بعمله ، و انما بفضل الله فلو حاسب الله الناس باعمالهم ما دخل أحد الجنة.

(1)المصدر / ص ٤٤

[فقد كذبتم فسوف يكون لزاما]

عندما ينصرف الناس عن الله ، و لا يتوجهون له بالدعاء و التضرع ، فانه ينزل عليهم العذاب ، و كما في الحديث ان :

"الصدقة تدفع البلاء و الدعاء يرد القضاء المبرم. "